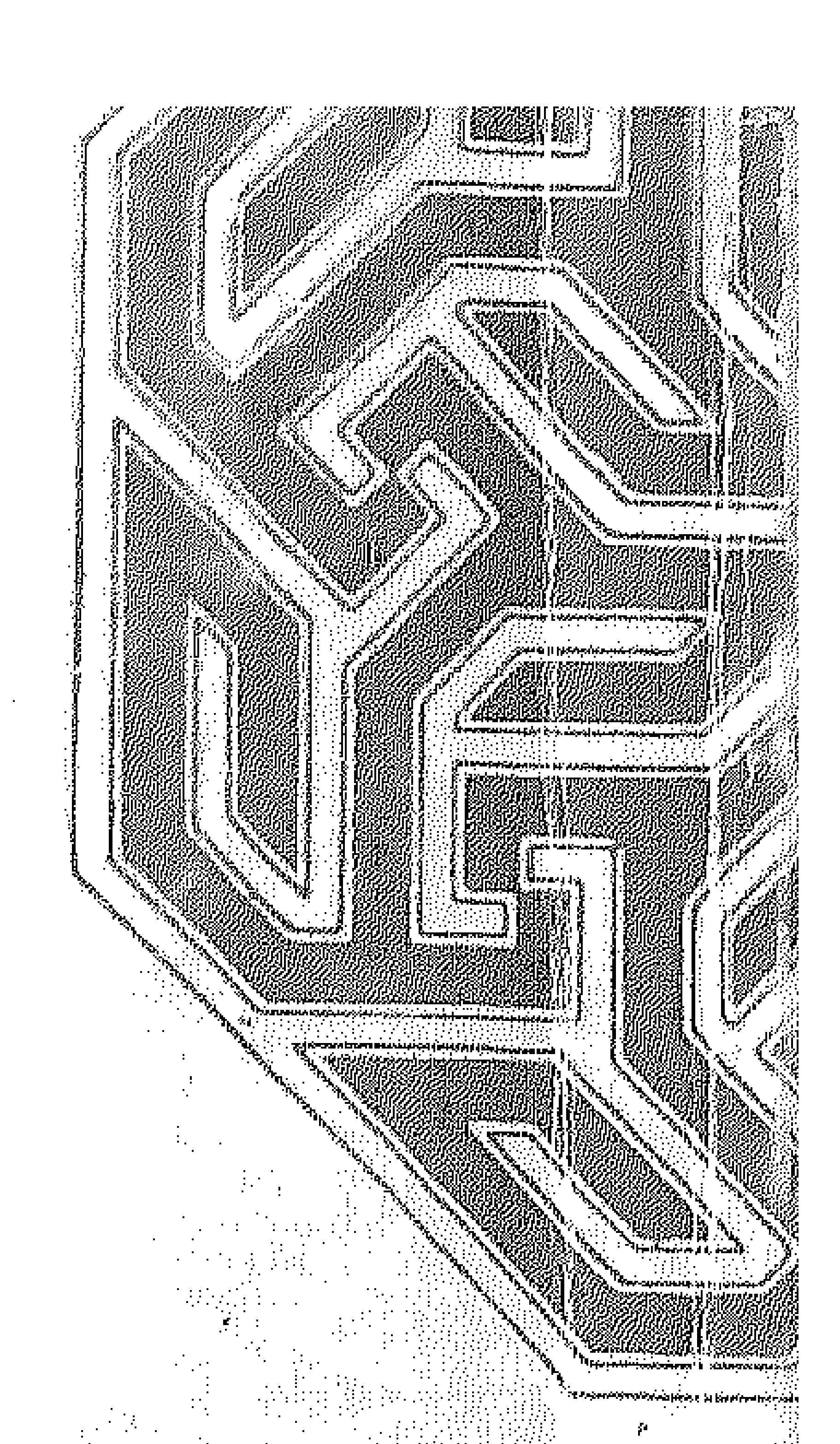


د. عيسى عبده

أحمد اسماعيل يحيى



دار المعارف



دكتور عيسى عبده
أحمد إسماعيل يحيى

لماذا أسلموا؟

القصص الحقيقية لإسلام عشرة رجال
من الأطباء والعلماء والقساوسة والنبلاء..



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا أسلموا ؟؟

كتاب يقص علينا القصص الحقيقية لإسلام هؤلاء :

١ - عميد اليهود فى مصر . . الأستاذ زكى عريبى المحامى .
٢ - راعى الكنيسة الإنجيلية . . الأستاذ إبراهيم خليل فيلبس .
٣ - الطبيب عبده إبراهيم والد الدكتور عيسى عبده .
٤ - الفنان الفرنسى العالمى . . الفونس إيتين دينيه .
٥ - الفيلسوف الفرنسى . . رينيه جينو .
٦ - اللورد الإنجليزى . . رولاند هدلى .
٧ - الإنجليزى عبد الله باترسى .
٨ - الصحفى النمسوى الكبير . . ليوبولدفايس .
٩ - النبيل النمسوى . . كارل فرودشتاين .
١٠ - القس العراقى الأشورى . . عبد الأحد دُؤاد .

إهــــداء

إلى الذين هداهم الله إلى الإسلام.. ليشكروا الله على ما هـداهـم، وإلى الذين لم يهتدوا بعد، لعلهم يفيقون فيدركون ما هم عليه من ضلالة وباطل، فيستنقذوا أنفسـهـم وأهليهم وأولادهم سعيًا إلى الخلاص، قبل أن يدركهم الموت فلا يكون لهم من العذاب مناص.

المؤلفـان

د. عيسى عبده

أحمد إسماعيل يحيى

حكمة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ .... فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم

هـذا الكتـاب

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾.

ويقول عز وجل فى سورة النور : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الـذى ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعـد خوفهم أمنًـا يعبـدوننى لا يشركون بى شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾.

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران : ﴿. . . إن الدين عند الله الإسلام ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منـه وهو فى الآخـرة من الخاسرين﴾.

والآيات التى تحمل مثل هذه المعانى الكريمة فى كتاب الله الحكيم كثيرة كثيرة ولكنا سنكتفى بما ذكرنا فقط لنقول :

إن الله جلت حكمته قد نزل الفرقان على عبده بالهدى ودين الحق، وجعل الأنبياء والرسل دعاة إلى الله بإذنه، مبشرين ومنذرين ومذكّرين، وخلق لنا العقول والأفهام وكلف الإنس والجن بعبادتـه لا يشركـون به شيئًا. . فمن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. .

والنبى ﷺ يقول : (من يهد الله فلا مضل له، ومن ضلّ فإنما يضل على نفسه ثم لا يجد بعد ذلك من دون الله وليًا ولا نصيرًا).

وفى هـذا الكتـاب نسـوق بعض القصص التى تحكى كيف أصـاب أصحابها الإسلام وكانوا فى الضلال، وكيف انتقلوا إلى النور وكانوا فى الظلمات، وكيف عرفوا الحق بعد دعوتهم بـالباطـل، ووراء كل قصـة عبرة، وأساس كل عبرة فكرة، وها نحن نضرب بهذه القصص الحقيقية أمثالاً، لعلّ فيها عظة لمن أصابه الكفر وبالاً، وأورثه فى عقيدته وعقله خبالاً . .

ولقد اختلفت الأسباب التى قـادت هؤلاء إلى طريق النـور والهدى، فمنهم من قاده إلى الإسلام بلاغة القرآن الكريم وإعجازه العلمى، ومنهم من انشرح صدره للشريعة الإسلامية الكاملة، الراسخة الشامخة، والتى تجيب فى يُسرٍ وسهولة على تحدّيات الحياة، ومنهم من وجد الإسلام ديناً لا يفرق بين العبـد وسيده، بـل هو يجعـل الفضل بـالتقوى والعمـل، لا بالثروة والجاه، ومنهم من أسرت مجامع قلبـه الصلاة التى تـزيل كـل حجاب أو واسطة بين العبد وربه، يدعوه ويناجيه فيستجيب له ويهديه.

وكلهم يقـرر فى النهـايـة تَفَـوُّق الإســلام. . ونحن نجـد الصحفى النمسوى الكبير (ليوبولدفايس) الذى أسلم يقول فى سبب إسلامه :

(يختلف إدراك العبادة فى الإسلام عـما هو فى كـل دين آخر، إذ أن العبادة فى الإسلام ليست مقصورة على أعمال الخشوع الخاص كالصلوات والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العلمية أيضًا، وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم عبادة الله، فيلزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة فى مجموع مظاهرها على أنها تبعة أدبية متعددة النواحى، وهكذا يجب أن تأتى أعمالنا كلها حتى تلك التى تظهر بسيطة على أنها عبادات يجب أن تأتيها بوعى، وعلى أنها تؤلف جزءًا من ذلك المنهاج العلمى الذى أبدعه الله، وتلك حال ينظر إليها الرجل العادى على أنها مثل أعلى بعيد،

ولكنْ أليس من مقاصد الدين أن تتحقق المثل العليا فى الوجود والواقع ؟

وليس من الضرورى أن نستشهد بآيات القرآن الكريم أو بـأحاديث الرسول للدفاع عن موقف الإسلام من العلم، فإن التاريخ يبرهن على أنه ما من دين أبدًا حثّ على التقدم العلمى كما حث عليه الإسـلام، وأن التشجيع الذى لقيه العلم والبحث العلمى من الدين الإسلامى انتهى إلى ذلك الإنتاج البـاهر، أيـام الأمويـين والعباسيـين وأيام دولـة العرب فى الأندلس، وأن أوربا لتعرف ذلك لأن ثقافتها هى نفسها مدينة للإسلام ولتلك النهضة على الأقل بعد قرون من الظلام الدامس.

نحن نعد الإسلام أسمى من سائر النظم الحديثة لأنه يشمـل الحياة بأسرها، إنه يهتم اهتمامًا واحدًا بالـدنيا والآخـرة، ابالنفس والجسـد، وبالفرد والمجتمع، إنه لا يهتم فقط بمـا فى الطبيعـة الإنسانيـة من وجود الإمكان إلى السمو، بل يهتم أيضًا بما فيها من قيود طبيعية، إنه لا يحملنا على طلب المحال، ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعـداد، وإلى أن نصـل مستـوى أسمى من الحقيقـة حيث لا شقـاق ولا عداء بين الرأى وبين العمل).

وها هو الشاب الفرنسى وصـال محمد عبـد الكريم من مـواليد سنـة ١٩٤٤م، وقد أسلم سنة ١٩٦٣ فى باريس يقول عن سبب إسلامه[1] : (إن الإسلام بأركـانه الخمسـة يدعـو إلى المحبة والسـلام، ويدعم بنـاء المجتمـع الصالـح، الـذى يقـوم عـلى الحب والتقـديـر ويـطرد البغض والكراهية، إن الإسلام هو الحـل الوحيـد لإنقاذ البشـرية من الضـلال والهلاك وإنارة الطريق إليهم).

---

(١) راجع الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين للمستشار محمد عزت الطهطاوى. الناشر دار التراث.

أما المخرج السينمائى العالمى ركس إنجرام الذى أشهر إسلامه سنة ١٩٢٨ فيقول : (لقد درست الدين الإسلامى ولم أتخذه دينًا إلا بعد بحث علمى وقلبى عميق وتحليل نفسى طويل، لقد اعتنقت الإسلام لأنه يوفر لى الراحة من ضجيج الحياة الجنونى ويتيح لى أن أنعم بالسكينة فى الظلام والهدوء والتأمل بعيدًا عن متاعب الهموم والمحن التى يسببها التكالب على الكذب والتهالك على المال الذى أصبح معبود الكثير من البشر، ولأخلص نفسى من براثن الإغراء وخدع الحياة الباطلة والمسكرات والمخدرات وحياة اللهو العابثة، وهأنذا اليوم فى عزلتى النائية عن بريق الإغراء والأخاديع وأمانى النفس الخبيثة . . أجد الراحة الكبرى التى ما كنت أتصورها أو أتخيل وجودها فى هذا العالم . . فقد أنزل الله السكينة على نفسى ونزع منها كل الشهوات الدنيئة وأطماع القوة والظهور والمال التى تملكتنى فيما مضى . .) .

وإنه لمّا يلفت النظر كظاهرة مشرقة تستحق التأمل، أن الذين اهتدوا إلى نور الإسلام من الغربيين والشرقيين على السواء كانوا من أعظم المواطنين ثقافة وعلمًا وأنهم برغم اهتماماتهم المختلفة وتباين فروع ثقافاتهم فقد وجد كل منهم ضالّته المنشودة فى الإسلام . . فاختاروا أن يكونوا ممن يتفيئون ظلاله ويجنون ثماره من الهدى والسلام . . وفى صفحات هذا الكتاب سوف يجد القارىء صورًا مضيئة تدعونا إلى التمسك بهذا الدين القويم الذى أنعم الله علينا به، وتدعو غيرنا من أصحاب الملل الأخرى أن يدرسوه بغير تعصب قبل أن يدركهم الموت وهم من المغضوب عليهم أو من الضالين .

نسأل الله لنا ولهم الهداية . . إنه نعم المولى ونعم النصير .

الدكتور عيسى عبده

أحمد إسماعيل يحيى

١ - لماذا أسلم
عميد اليهود فى مصر
الأستاذ زكى عريبى المحامى ؟؟

كان الأستاذ زكى عريبى يتحرق شوقًا إلى الإسلام كلما رأى مسجدًا، أو وقعت عينيه على رجل يصلى لله فى خشوع ويبتهل إليـه فى خضوع، وكان قلبه ينشرح حين تقع فى أذنيه كلمات الأذان، تدعو الناس إلى عبادة الواحد الديّان، وكان هناك سؤال يتردد فى نفسه ويلحّ على عقله دائمًا، وهو لماذا لا يعتنق الإسلام ؟؟ وكان هذا الخاطر يعلو صوته فى داخله ويهزه من أعماقه كلما رأى بين الحقول رجلًا متواضعًا من زارعى الأرض يقف بين يدى الله مؤدّيًا صلاته فى المصلّى الصغير على شاطىء الترعة، فكان يودّ لو كان يصلى مثل صلاته ويناجى مثل مناجاته وهو وقتئذ من أبرز المحامين المرموقين فى مصر.

كان الرجل يرى أن الإسلام وجدان بالقلب، وعقيدة بـالفعل[1].. ولقد عرف هذين الأصليين منذ الصغر.. فقد نشأ الأستاذ زكى عريبى فى حى بولاق بين المسلمين، وحفظ القرآن مع أطفالهم فى المدارس الأميرية، وهو يجيد العربية لغة وحديثًا وكتابة وأدبًا، ومثله كان أبوه من قبله، ثم هو قد انتقل من مدرسة عباس بالسبتيـة إلى مدرسة حلوان الثانـوية، وفى

---

(١) جريدة الأهرام القاهرية سنة ١٩٥٩ - راجع فى الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين للمستشار محمد عزت الطهطاوى. مرجع سابق.. بتصرف.

مدرسة الحقوق أتيح له أن يدرس الشريعة الإسلامية، فقارن بينها وبين القانون الرومانى الذى مضى عليه آلاف السنين، وبرغم كل تطور تشريعى فهو يقف قزمًا إلى جانب الشريعة الإسلامية بل إنه فى الحق إذا ما قورن بها فإنه لا يثبت على قدم ولا يستطيع محض مواجهة.. على حين تقف الشريعة الإسلامية شامخة متكاملة تجيب على تحديات الحياة فى سهولة ويسر بلغت حَدَّىْ الكمال والجمال..

وكان ضروريا أن يدفعه ذلك إلى الغوْص وراء أصول هذه الشريعة، وساءل نفسه ترى ماذا تكون أصول هذا الدّين الكامل؟؟ واهتدى إلى أنها الحقيقة الأزلية التى عرفها إبراهيم عليه السلام كما عرفهاالأنبياء من قبله ومن بعده.. وبرغم ما اهتدى إليه فإن ما بهره واستوقف فكره هو ذلك النبى محمد ﷺ الذى أرسله ربه على فترة من الرسل.. فانبعث بالنور والهدى فى صحراء جرداء جدباء، وأهلها عاطلون من الثقافة والمعرفة.. ولكن محمدًا ﷺ يُرسَل إليهم بالقرآن.. ولقد حيرهم به فما هو بشعرٍ ولا سحرٍ ولا قول بشر، يخطرهم بما هو آت ويخبرهم بما فات من أخبار الأولين.. ولقد تحدى محمد ﷺ به البشر والجن أجمعين.. فلماذا لا يكون هذا القرآن تنزيل من رب العالمين؟.

وكيف يكون هذا القرآن افتراء من عند محمد ﷺ الأمّىّ البسيط الذى يمشى فى الأسواق ويأكل الطعام ويتزوج النساء؟ لابد إذا أنه من عند الله، جاء لينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف فى الحياة.

يقول الأستاذ زكى عريبى: (.. ونظرت فى هذا الدين وأطلت النظر، عساى أتلقى جماله، وعجزت من أين أتلقى جماله - لقد وجدته دينًا مصدّقًا لكل شىء قبله وهذا بالذات دفعنى إلى الأمام فى بحثه ودراسته، حتى انتهيت إلى الإيمان به.. وحقيقة أخرى فهمتها فيه وهى أن اليهودى

إذا أسلم أو النصرانى إذا أسلم لم يجد نفسه قد أنتزع من دينه انتزاعًا، فإذا كان يهوديًا فسيجد نفسه بين أنبياء بنى إسرائيل - يجد نفسه يؤمن عن طيب خاطر وعن تفكير سليم كذلك بموسى - ويجد القرآن يقص قصة تلك المحاورة الكبرى التى وقعت بين فرعون وموسى فى الوادى المقدس طوى. . . . وليست هذه القصة فحسب، بل هناك عشرات القصص عن موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل - كل هذا يجده اليهودى إذا أسلم فلا يستوحش ويجد نفسه بين يدى دين الموسوية الصحيحة التى نزلت على موسى. . . وأخيرًا يجد نفسه هادىء النفس ناعم البال لا يخشى إلا الله ذا الجلال والإكرام، فالعقيدة الموسوية الأصلية هى أقرب العقائد للإسلام(٢).

وكذلك المسيحى سيجد نفسه مع مريم ابنة عمران. . والقرآن يصور هذه القصة كأروع ما يكون التصوير، ويجد نفسه كذلك مع يحيى عليه السلام حيث يقول الله : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة).

ويجد القرآن يتحدث عن كل ما يتصل بأنبياء بنى إسرائيل أحسن من التوراة). ويستطرد الأستاذ زكى عريبى فيشرح طول نظره فى الأمر وعمق تفكيره فيه. . . . ثم يقول : (إن خير تحية فى الأرض هى تحية الإسلام. . إنها معاهدة تنعقد بين الرجل الذى يلقى التحية والذى ألقيت عليه التحية، والدين الإسلامى هو دين السلام، فالصلاة فيه هى السلام، والتحية فيه السلام، وجنته السلام، وكل صغيرة وكبيرة فيه فإنها مشتملة على السلام، والسلام الذى إذا انتشر يكفى الإنسانية العداوة والبغضاء

---

(٢) هكذا جاءت كلمات الأستاذ زكى عريبى ولعلها كانت متأثرة بإحساسه وشعوره أما القول الفصل فى القرآن : ﴿لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون﴾ المائدة آية ٨٢.

والإحن التى فى القلوب، ويا ليت الأمم التى تنشد السلام وتعمل على تحقيقه بين أرجاء العالم تأخذ بتعاليم الدين الإسلامى فإنه خير وسيلة لإحلال السلام محل البغضاء التى بين الشعوب)[٣].

ويتكلم الأستاذ زكى عريبى عن الصهيونية واليهود فيقول : (من الإجرام وقد عاش اليهود فى أحضان العرب والإسلام مكرّمين بعد طردهم من أسبانيا فى القرن الخامس عشر أن تبدأ مناوراتهم الدنيئة وأن يقابل كرم الضيافة العربى بهذا اللؤم وبهذه الخدع وأنا شخصيًّا أعتقد أن شرّ ما ابتليت به اليهودية هو الصهيونية. . .).

ثم يعلن الأستاذ زكى عريبى إسلامه وعمره خمسة وستون عامًا ويقول إن ابنته قد سبقته إلى إعلان إسلامها بعد أن عرّفها منذ صغرها طريق الإسلام.

* * *

---

(٣) قد يقول قائل (إننا نرى المسلمين اليوم متطاحنين متحاربين برغم إسلامهم. . وإلى هؤلاء نقول إن ما بينهم فتنة يشغلها غير المسلمين ويوقعونهم فى نارها. . ولو لم يكن ديننا غير الإسلام لعمّ فى العالم السلام.

٢ - لماذا أسلم

راعى الكنيسة الإنجيلية سابقًا

القس المصرى : إبراهيم خليل فيلبس؟؟ . .

(وسمى نفسه) إبراهيم خليل أحمد

صاحب هذه القصة رجل شرح الله قلبه للإسلام، وهداه من عنده إلى شريعة محمد ﷺ سيد الأنام بعد أن كان قد ارتقى سلم الداعين إلى المسيحية حتى صار راعيا للكنيسة الإنجيلية بمصر، وأستاذًا للعقائد واللاهوت والإسلام بكلية اللاهوت بمدينة أسيوط حتى سنة ١٩٥٣م، ممّا أتاح له أن يطّلع على ما لم يطلع عليه المسيحى العادى، بل وربما بعض القساوسة، من أسرار العقيدة المسيحية ونصوصها وتفاسيرها، خاصة بعد أن عين سكرتيرًا عامًّا للإرسالية الألمانية السويسرية بأسوان، ومبشرًا مسيحيًّا بين المسلمين، وتنقل بين محافظات أسيوط وسوهاج وقنا وأسوان داعيًا إلى العقيدة الكنسية حتى عام ١٩٥٥.

والأستاذ إبراهيم خليل فيلبس لم يكن مجرد قس من القساوسة يؤدى وظيفته الكنسية وإنما هو واحد من الأفذاذ الذين اشتغلوا بالعلم والفكر والتدقيق فقد حصل على دبلوم كلية أسيوط الثانوية الأمريكية عام ١٩٤٤، ثم دبلوم كلية اللاهوت الإنجيلية بمصر سنة ١٩٤٨، ثم حصل على الماجستير فى الفلسفة واللاهوت من جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٢.

ولقد اهتدى بما أفاء الله به عليه من حكيم العقل ووافر العلم أن الله

سبحانه وتعالى لا يكرم الإنسان لمجرد تقليده الآباء والأجداد، أو تمسكه بما ورثه عنهم من عادات وعبادات دون تدبّر وتعقّل، وإنما كان تكريم الله للإنسان بإعماله العقل، والخلوص إلى الحقيقة عن طريق الفكر.

ولنستمع إليه معًا عزيزى القارىء وهو يحكى لنا بداية الهدى فى مقدمة كتاب له عنوانه : (محمد رسول الله ﷺ : فى التوراة والإنجيل والقرآن) حيث يقول : (الطريق إلى الله واضح المعالم، والوصول إليه رائده المنطق والعقل، والرسالات السماوية جميعها تناشد الإنسانية ما قاله المسيح عليه السلام : (الله روح، والذين يسجدون له، فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا)[1] وفى هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿فأينما تولّوا فَثَمَّ وجه الله. . .﴾[2] ويحكى لنا كيف كانت البداية فيقول مستطردًا : (. . . والذى حفزنى إلى البحث بغية النفع العام هو ما تنبأ به المسيح عليه السلام عن الرسول الكريم ﷺ بقوله : (الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا، لذلك أقول لكم، إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره)[3]، ثم يقول : (ومن دواعى الاطمئنان واليقين أن هذا السند يرتبط ارتباطًا وثيقًا بقوله تعالى : ﴿الرسول النبى الأمّىّ الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل﴾[4] من هنا بدأت فى اطمئنان ويقين تام أبحث عن هذا الرسول النبى الأمى الذى تنبأ عنه المسيح عليه السلام وأشار إليه بقوله : المسيا المنتظر).

وهكذا بدأ القس إبراهيم خليل فيلبس يربط بين آراء فقهاء المسيحية مثل (آريوس) فى القرن الثالث الميلادى و (لوثيروس) فى القرون

---

(١) يوحنا ٤ : ٢٤.

(٢) البقرة آية ١١٥.

(٣) متى : ٢١ : ٤٢، ٤٣.

(٤) الأعراف آية ١٥٧.

الوسطى، والنبوءات العديدة فى التوراة والإنجيل والأنبياء والمزامير. . حتى تبين له الحق فى نفسه من عدة أوجه هى (الوحدانية - الغفران - المبادىء وتقويمها بالأشخاص - الرسالات السماوية. .). . وفى شرح هذه العناصر يقول :

١ - الوحدانية :

(قرأت بتأمل وتفكير سورة الإخلاص : ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد﴾. وأخذت أتأمل الوحدانية فى القرآن الكريم، الأمر الذى يستطيع العالم وغير العالم فهمه واستيعابه وإدراكه، والإيمان بما يتضمنه من المعانى، من غير إجهاد الفكر أو عناء الدرس والتحصيل.

وقارنتها بالوحدانية التى وردت فى إنجيل متى فى الباب الأول والعدد الأخير: الأب والابن والروح القدس (إله واحد آمين) وعند دراستى النص الأصلى علمت أن هذه العبارة لم ترد فى الأصل اليونانى.

هذا بالإضافة إلى بلبلة الأفكار عند عـ ـة الناس وحيرة جهابذة العلماء فى الدفاع عن هذه العقيدة السقيمة التى كشف التاريخ عنها القناع، وأكد العلامة جارسلاف كرينى أستاذ الحفريات فى جامعة أكسفورد فى كتابه (ديانة قدماء المصريين) أن عقيدة التثليث مستمدة من الوثنية الفرعونية).

٢ - الغفران :

قرأت بتأمل وتفكر قوله تعالى : ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم﴾[٥].

---

(٥) الزمر آية : ٥٣.

وقارنت بين هذه الآية وما ورد فى الإنجيل عن الغفران : (بدون سفك دم لا تحصل مغفرة) وبالقول : (هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب لكيلا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية).

قارنت بين العقيدتين :

الأولى : أن رحمة الله ومغفرته تكون لعباده بدون قيد أو شرط مادى.

الثانية : أنها مقيدة بقيود من جانب الله ببذل ابنه الحبيب حسب ما يعتقدون ومن جانب المرء بضرورة الإيمان بهذا الإبن.

ومن هذه العقيدة نشأت فريضة كنسية تعرف بسر الأفخار ستبا، أو سر الشكر، وفيها يؤمن المسيحى باستحالة الخبز إلى جسد المسيح، واستحالة الخمر إلى دم المسيح حقيقة، وبتناولهما تصير فيه حياة أبدية.

ومن هذه العقيدة نشأت صكوك الغفران، وما أدراك ما صكوك الغفران؟ إنها بدعة وخروج عن الحق الإلهى، وكم ندد بها زعماء الإصلاح فى القرن الخامس عشر، وعلى رأسهم لوثيروس الألمانى ثم زوينجلى ثم كلفن وغيرهم.

فحمدت الله على رحمته الواسعة ومغفرته اليقينية بدون قيد ولا شرط مادى، بل بتوبة صادقة، وعزم على الحياة الطاهرة : (إن الله يغفر الذنوب جميعا).

٣ - المبادىء وتقويمها بالأشخاص :

قرأت قول الله تعالى : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(٦) وقرأت ما جاء بالإنجيل : (إذن لسنا أولاد جارية بل أولاد حرة).

---

(٦) الحجرات الآية ١٣.

وزال عنى العجب للتفرقة العنصرية عند الأمريكيين فى أيامنا هذه بين البيض والسود، وزاد إعجابى وإجلالى للمسلمين، إن سيد القوم ﷺ يقف بجانب المواطن العامل والمزارع والتاجر والموظف، كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا، راكعين ساجدين يخشون ربهم، ويرجونه الرضا والعفو، فأيقنت أن مجد الإسلام والمسلمين فى هذا التساند الجميل والتآخى الحبيب (لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر - إلا بالتقوى).

٤ - الرسالات السماوية :

قرأت قول السيد المسيح عليه السّلام ومثاله : (خرج الزارع ليزرع وفيما هو يزرع سقط على بعض الطريق)[٧] وقرأت كتابة بولس ومثاله : (فإنى أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن، ولكنى أرى ناموسًا آخر فى أعضائى يحارب ناموس ذهنى ويسبينى إلى ناموس الخطية الكائن فى أعضائى، ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت؟[٨]).

قولان : أحدهما للمسيح يمتاز بالبساطة ووضوح التعبير، وثانيهما يمتاز بعمق وغور المعانى وكلاهما ينسب إلى الله جل شأنه.

وقرأت فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. . .﴾. وما قبل ذلك فاتحة القرآن الكريم، إلى قوله تعالى : ﴿قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس. . .﴾ إلى آخر السورة، وتأملت وتدبرت، وإذا بالله العزيز الحكيم يحسم الأمر بقوله : ﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا

---

(٧) متى ١٣ : ٣ - ٨، ١٨ - ٢٣.

(٨) رومية ٧ : ٢٢ - ٢٤.

كثيرًا . .﴾ ثم يتحدّى الله خلقه بقوله : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يـأتون بمثله ولـو كان بعضهم لبعض ظهيرًا﴾.

فازددت إيمانًا ورسوخًا، حتى كان ذلك المساء من عـام ١٩٥٥ حين سمعت القرآن مذاعًا بالراديو في قوله تعالى : ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا، يهدى إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحدًا﴾.

وكانت هاتان الآيتان بمثابة الشعلة المقدسة التى أضاءت ذهنى وقلبى للبحث عن الحقيقة، وفى تلك الأمسية عكفت عـلى قراءة القـرآن حتى أشرقت شمس النهار، وكأن آيات القرآن نور يتلألأ، وكأننى أعيش فى هالة من النور. . ثم قرأت ثانية فثالثة فرابعة حتى وجدت قوله تعالى : ﴿الذين يتّبعون الرسول النبى الأمّىّ الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، فالذين آمنـوا به وعـزّروه ونصروه واتّبعـوا النور الـذى أنـزل معـه أولئـك هم المفلحون﴾.

ولم يستمر الرجل بعد ذلك يمارس الدعوة إلى النصرانية، فقدّم استقالته من عمله كقسيس وسكرتير عـام للإرسـاليات الأمـريكية فى أسـوان. . والتحق بوظيفة نائب مدير للمبيعات بشركة (استنـدرد استيشنرى) حتى عام ١٩٥٩، وفى أحد أيام هذا العام حضر إلى الشركة الدكتور عبد المنعم الجمال وكيل وزارة الخزانة السابق وطلب من مدير الشركة طبع تفسير جزء عم من القرآن الكريم باللغة الإنجليزية فتعهد له (القس السابق) بإنجاز هذا. . وقد كان الدكتور الجمّال يظنّه مسلمًا ودارت بينهما مناقشة ودراسة

إسلامية متحررة، وشرح الله صدر الرجل بعدها للإسلام، فاستقال من عمله فى الشركة، وأنشأ مكتبًا تجاريًا سار فيه بخطوات واسعة إلى النجاح.

وفى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٥٩ أرسل برقية للإرسالية الأمريكية بمصر الجديدة يخبرها فيها بأنه آمن بالله الواحد الأحد وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً - واتخذ بعد ذلك من الإجراءات ما أشهر به إسلامه وتغيير اسمه إلى إبراهيم خليل أحمد كما غير أسماء ولديه وابنته.. وقام بعد إسلامه بإلقاء المحاضرات فى علم الأديان المقارن فى كل من الإسكندرية والمحلة الكبرى وأسيوط والمنيا وسوهاج وأسوان وفى بعض كليات الجامعات المصرية.. وقد اهتزت الكنيسة لنشاطه بعد إسلامه الذى اعتنق بسببه عدد كبير من الشباب النصرانى الإسلام، فحرضت عليه وزارتى الأوقاف والداخلية لوقف نشاطه بحجة أنه يزكى نار الفتنة وإزاء ذلك فقد اضطر إلى الهجرة إلى المملكة العربية السعودية حيث وضع خبراته فى خدمة كلية الدعوة وأصول الدين هناك.

***

٣ - لماذا أسلم

الطبيب النَّابه : عبده إبراهيم عبد الملك ؟؟
ولماذا سمّى ابنه الأول : (عيسى . . عبده) ؟

د. عيسى عبده
لماذا أسلم والده ؟؟

القصة الحقيقية لإسلام الطبيب عبده إبراهيم والنصوص والآيات التى وردت فى التوراة والأناجيل والقرآن، واستشهد بها فى المباهلة بينه وبين القساوسة والمفسرين من أهل الكتاب.

الدكتور : عبده إبراهيم
تعريف فى سطور

هو المرحوم الدكتور/عبده إبراهيم، بن إبراهيم أفندى عبد الملك، من حى الظاهر بالقاهرة.

- ولد عام ١٨٨٣م.

- وصل إلى المرحلة الثانوية - ولها شأن فى تاريخ حياته بين سنتى ١٨٩٦ - ١٩٠٠.

- درس الطب بالقصر العينى خمسة أعوام (ولهذه المرحلة بدورها شأن فى حياته بين عامى) ١٩٠٠ - ١٩٠٥.

- التحق بالوظيفة العامة منذ سنة ١٩٠٥.

- تزوج فى صيف سنة ١٩٠٦.

- رزق بابنه الأول[1] فى يوليه سنة ١٩٠٧.

- رزق بابنه الثانى[2] فى يناير سنة ١٩٠٩.

(ولكل من الابن الأول والابن الثانى شأن فى حياته).

- كان أول عهده بالوظيفة العامة بمصلحة السجون (طبيب السجن) بين عامى ١٩٠٥ - ١٩١٠.

- كان آخر عهده بالوظيفة العامة بوزارة الصحة (طبيب المركز)

---

(١) هو المرحوم الدكتور عيسى عبده المتوفى فى ١٩٨٠/١/٩ ودفن بالبقيع فى المدينة المنورة... رحمه الله رحمة واسعة.

(٢) هو الدكتور محمد عبده إبراهيم أستاذ الهندسة بجامعات سويسرا وله أبحاث عالية فى تحلية ماء البحر.

بالسنبلاوين - دقهلية بين عامى ١٩١٠ - ١٩١٤ .

- ثم عمل طبيبًا لمركز ههيا (شرقية) بين عامى ١٩١٤ - ١٩١٨ .

- توفى إلى رحمة الله بالقاهرة فى شهر يونية ١٩١٨ بحمى التيفوس، وكانت العدوى قد انتقلت إليه أثناء عمله فى المخيمات التى يعزل فيها المرضى وكان الوباء قد انتشر فى بعض مواقع الشرقية بسبب تحركات الجنود الذين حشدهم الحلفاء فى الحرب الكبرى (١٩١٤ - ١٩١٨).

- ظن الطبيب بحكم الممارسة المتصلة أن الخطر الذى يهدده غير يسير، ولعله أحس أيضا بدنو الأجل (فقد كان صالحًا رحمه الله) ولذلك أقفل الدار والعيادة الخاصة واصطحب أسرته كلها (زوجة وأربعة أبناء وطفلة فى الشهر الثانى من عمرها) وشغل ديوانا بالدرجة الثانية بالقطار، واعتزل هو وأسرته جميع الركاب، لوقاية الناس من احتمال العدوى.

وفى القاهرة، بحى السيدة زينب (بجنينة ناميش) فى منزل صهره المرحوم الشيخ عبد الحميد مصطفى، عكف الأطباء على علاجه أو متابعة سير المرض ستة أيام، وافاه بعدها الأجل يوم ١٨ /١٩١٨/٦ م بعد المغرب بقليل.. وكان من بين الأطباء الذين باشروا العلاج.. المرحوم الدكتور محمد توفيق صدقى، والمرحوم الدكتور محمد عبد الحى، والمرحوم الدكتور محمد رضا.

بداية الطريق

فى أواخر القرن التاسع عشر، كان (الخواجة) إبراهيم أفندى عبد الملك، يعيش فى منزله بحى الظاهر بالقاهرة، ومن حوله أسرة كبيرة العدد من الأقرباء والأصهار. فقد كان التقليد المتبع فى تلك الأيام، هو أن تتجمع الأصول والفروع فى مساكن متقاربة، وقد تأصلت هذه العادة فى القطر المصرى، وفى غير مصر من البلاد العربية المجاورة.

كذلك كان من الأحياء السكنية ما هو مميز بأنه مسكن طائفة أو أسرة أو جماعة معينة، فمثلاً كانت الحلمية الجديدة مسكن أمراء المماليك ثم من خلفهم من الأسر العريقة، والحسين والسيدة زينب مساكن علماء الدين الإسلامى، والظاهر يسكنه أسر القبط القدامى فى مصر.

وكان (الخواجة) إبراهيم عبد الملك يسكن منزلاً متوسطًا يحمل رقم (٧٢ شارع الظاهر)، وكان لقب (الخواجة) حينئذ يطلق على وجهاء القبط ورجال الأعمال.. ومن هؤلاء كان إبراهيم أفندى عبد الملك، الذى احترف تجارة الجملة والوكالة بالعمولة، وكان قد اتخذ له مقرًا تجاريًا بحى الجمالية، يقضى فيه يومه كله، فهو مشغول دائمًا بأعماله الكثيرة، لكسب رزقه ورزق أسرته الكبيرة العدد، وهو لا يستقر فى داره إلا يومًا واحدًا فى الأسبوع، هو يوم الأحد، وفى هذا اليوم من كل أسبوع كان أفراد الأسرة كلهم يجتمعون إلى مائدة الغذاء بعد عودتهم من الكنيسة، حتى الذين يقيمون بالقاهرة بعيدًا عن حى الظاهر من أفراد الأسرة، كانوا حريصين على هذا الاجتماع العائلى الدورى حرصهم على أغلى ما يملكون.

وكان (الخواجة) إبراهيم عبد الملك قد رزق بأربعة أبناء من الذكور هم بحسب ترتيب أعمارهم عبده، ونسيم، وفهيم، ونسليم، كما أنجب عددًا آخر من البنات اللاتى حرص على حسن تربيتهن، حرصه على تعليم أولاده الذكور وإلحاقهم بالمدارس وتوفير ما يلزم لكل منهم فى دوره، حتى اشتهر بين أقربائه بأنه رب أسرة كادح ناجح.

وكان (عبده)، ابنه الأكبر، مجتهدًا ذكيًا، لم يتخلف فى دراسته سنة واحدة حتى وصل إلى السنة الثالثة الثانوية، التى صادفته فيها ظروف بالغة الخطر، ترتب عليها أن تخلف للإعادة..

فكيف تخلف الطالب الذكى المجتهد (عبده إبراهيم عبد الملك) فى امتحان البكالوريا، وهو الذى كان رمزًا للتفوق، ومثالاً يحتذى بين أقرانه؟ - ولماذا حدث ما حدث ولم يعهد عليه ضعف أو تراخ؟؟ فضلاً عن الرسوب فى الامتحان؟.. إن الإجابة على هذين السؤالين تضعنا على أول الطريق إلى صلب الموضوع.

ذلك أن بعض نظار المدارس الثانوية فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، كانوا يتبعون أسلوب الخلايا العلمية، وهو أسلوب تربوى يقوم على أساس التآلف بين الطلاب، وذلك دون تحديد عدد معين، ودون محاولة الربط بين خلية وأخرى.. إذ كان القصد من ذلك هو مجرد تشجيع الطلاب على التجمع فى (صحبة) أو (عصبة)، ليكون نشاطهم العلمى والاجتماعى أجدى وأقوى من الناحية التربوية، مما لو ترك الطالب - فى سن المراهقة وأول النضج - فريسة للوحدة فى نزهته، حبيسًا فى حجرة استذكاره بداره.

وهكذا اجتمع محمد توفيق صدقى، وأحمد نجيب برادة، وعبده إبراهيم عبد الملك. فى خلية واحدة تآلف أفرادها وانسجموا ثلاثتهم

فانتظموا فى عقد صداقتهم من أول الدراسـة الثانـوية. . فـيا أن وصل ثلاثتهم إلى السنة الثالثة الثانوية، حتى باتت أواصر المودة بينهم قوية تشد بعضهم إلى بعض حتى اشتهروا بين زملائهم بذلك وعرفوا بما يحملونـه لبعضهم البعض من مشاعر الحب والإخلاص والاحترام.

وكان محمد توفيق صدقى أيسر حالاً من الجميع. . وتقع داره فى (جنينة لاظ) المتاخمة لـ (جنينة ناميش) بحى السيدة زينب، وكان للدار فى المدخل من جهـة اليسار (منـظرة) تكاد تنفصـل هى ومـرافقهـا عن البيت كله (يسمونها حجرة الضيافة).

أما أحمد نجيب برادة. . فقد كان رقيق الحال، كفله عمه بعد وفـاة أبيه، فلم يكن الصحب يغشون دار عمه هذا بالحلمية إلا نادرًا، مع أن الدار كانت فسيحة على الطراز القديم، ولها صحن فيه بئر ودلو. . لكنها فى النهاية لم تكن دار برادة ولكنها دار عمه الذى يرعاه بديلاً عن أبيه.

أما عبده، فقد كانت داره كما قلنا بالظاهر، بعيدة عن السيدة زينب وكذا عن الحلمية، خاصة بمعايير مواصلات ذلك العهد. . ذلك فضلاً عن وقوع حجرة (عبده) الخاصة فى الطابق الثالث مع الأسرة.

وهكذا وجد الثلاثة أنفسهم متفقين بغير اتفاق على تفضيـل (منظرة) صدقى للقاء، بقصد الاستذكار، وما يصحبه من صخب الشباب أحيانًا، وقد زاد من ترجيح كفة هذه (المنظرة) قربها من مواقع المدارس الثانوية فضلاً عن قربها من المدارس العليا.

لكن الأمر لم يسلم برغم ذلك، من أن الصحاب الثلاثة كانوا يغشون دار العم برادة بالحلمية أحيانًا مضطرين لظرف أو آخر. . وكان فى صحن الدار كما سبق القول بئر ودلو. . فكانوا إذا وجبت الصلاة وهم بدار العم برادة. . قام صدقى وبرادة، فتوضأ كل منهما بدوره، ثم أقاما الصلاة،

وكان عبده من دونهما يرقبهما بعض الوقت وهما يصليان، ويتشاغل عنهما بالنظر فى أوراقه ما أتيح له ذلك. . وبتكرار هذه المواقف (من وقت لآخر) خلال السنتين الأولى والثانية من الدراسة الثانوية، قام فى نفس (عبده) تساؤل عنيف عن سلوك صاحبيه، فقد رآهما كثيرًا وهما يسعيان فى اهتمام بالغ للتطهر حال سماعهما الأذان، بل وربما قبله استعدادًا للصلاة، وهما يقفان فى خشوع وخضوع مهيب أمام ربهم، ثم يركعان ويخران إلى الأرض سُجَّدًا فى هيئة تدل على تمام عبوديتهما لربهما، ثم إنهما يكرران ذلك بشكل إيمانى رائع، حتى إذا جلسا للتشهد، وفرغا من الصلاة وسلما عن يمين وشمال، أقبل كل واحد منهما على أخيه، يدعوله بقبول العبادة فى محبة وود ورجاء، فكان (عبده) فى كل مرة يسأل نفسه. . ترى هل هما وفريق المسلمين على الحق أم على الباطل ؟؟ فإذا كانوا على الحق. . فما حقيقة دينه إذًا ؟ وإذا كانوا على الباطل، فلماذا لا يصحح لهما عقيدتهما ؟ وكيف مرت الأيام هكذا، وثلاثتهم يخلص لبعضهم، من غير أن يتعرضوا لمناقشة هذا الأمر؟ وهل ساور زميليه نفس الخاطر الذى يساوره الآن، فمنعهما الحياء ؟ فإذا كان ذلك كذلك؟ فلماذا لا يبدأ هو الحديث معهما ؟.

وتشجع (عبده) فأفضى إليهما بقلقه من وجود خُلْفٍ بينهم كجماعة متحابة ومتماسكة فى أمر جوهرى كهذا، وبخاصة وأن هذا الخلف، لم يكن باختيار أحد منهم، وإنما وجدوه بينهم بحكم التوارث وحسب، فهو مثلًا لا يفعل ما يفعلون، لأنه جاء إلى هذه الدنيا من أبوين يدينان بالمسيحية، ولو أن أبويه كانا من أسرة مسلمة لما وجد هذا الخلاف.

ثم إنهما كذلك لا يذهبان إلى الكنيسة فى يوم الأحد، ولا يفكران فى شىء من ذلك، لأنهما ولدا فى أسرتين مسلمتين، ولو كانا قد ولدا فى محيط مسيحى لما وجد هذا الخلاف.

قال عبده : (فيما يرويه زميله (برادة) رحمه الله، وكان قد عاش طويلاً بعد وفاة صاحبيه) : ليس هذا ما ينبغى أن يكون عليه الشأن بين إخوة جمعهم رباط العلم، وملأ قلوبهم كل هذه المشاعر من الحب والصفاء، وإنه لمن الإخلال بواجب المودة الخالصة من الشوائب الموجودة بيننا، أن تستمر الحال هكذا على ما بيننا فى هذا الأمر الهام من خلاف، فلابد أن يكون زميلاى مخدوعين أو أكون أنا جاهلاً بما يؤمنان به.

نهض (عبده) من مجلسه.. وتقدم قريبًا من البئر.. وتبعه صاحباه ينظران ما شأنه؟ فقال : أريانى كيف تفعلان؟ وأعينانى كما تتعاونان فى رفع الماء من البئر وصبه على أطرافكما؟ وهل لذلك قواعد وأصول عندكما؟.

فأجاباه إلى ما طلب وهما يعجبان مما يفعله، وأجرى (عبده) الماء على يديه ووجهه وذراعيه ورأسه وقدميه فى تجربة بدائية، لم يكن يستهدف منها إلا الوقوف على شيء غامض فى داخله، ربما وجد إجابة للسؤال الذى يحيره منذ حين، وهو: ما حكمة صب الماء على أطراف الجسم مع التكرار؟

ولاحظ (عبده) من التجربة أن أول الآثار التى أصابته من جراء صب الماء على أطرافه أنه أحس بنوع لذيذ من الانتعاش واليقظة والانتباه، ملأه ابتهاجًا وثقة بالنفس.

فعاد يسأل : هل سبب ذلك الانتعاش وتلك الثقة، هو ما أراه بعينى الآن من نظافة يدى ومنافذ وجهى وطهارة رجلاى وطيب رائحتهما؟.. إن فى الأمر لسرًّا خافيا عليه لا يزال، لكن ما صنعه ليس مجرد عبث صغير كما كان يراه من قبل، وإنه ليرى من وراء هذا الصنيع بعض المعانى الكبيرة، التى لا يحجبها عنه أو يحجبه عنها إلا جهله بهذا الدين الإسلامى.

فطلب منهما أن يحدثاه عن حكمة الوضوء، وأركانه، وسننه ونواقضه،

وعن حكمة القيام والقعود والسجود وتكرارها . .

ولم يكن صاحباه في هذا السن على قدر واسع من الإحاطة بفقه دينهما، مما جعلهما يدركان أنهما ليسا بمنزلة تؤهلهما لإجابة شافية لسؤاله، وقد أحس هو بذلك حين سكتا فقال : أنتما مقلّدان، وأنا مقلّد . . ولا خير فينا جميعًا ما لم ندرك فائدة وحقيقة ما نختار، فهلاَّ تعاهدنا جميعًا على البحث في حقائق الدين وأسباب ما نحن عليه من خلاف فيه، برغم ما نحسه جميعًا من حب وود يجمعنا ؟

فكان العهد الوثيق الذى أخلص له كل من (عبده) و (صدقى) بصفة خاصة، إخلاصًا صرفهما معظم أيام السنة الدراسية عن دروسهما . .

أما (برادة) فيحكى لنا أنه اقتصد في الوفاء بهذا العهد، لأنه كان يشعر بأن حاجته الكبرى كانت أولاً إلى اختصار الضيافة التى فرضتها الأحداث على عمه . .

وهكذا استغرق عبده وصدقى دون برادة في الاطلاع على ما وصلت إليه أيديهما من المراجع والكتب، الباحثة في الدين وفروعه، على حين توفر الثالث على كتبه المدرسية قبل كل شيء . . ليس غريبا إذًا أن نرى (برادة) وحده يحصل على شهادة (البكالوريا) في ذات العام، على حين تخلف صاحباه عنه، وبقيا للإعادة . .

ولابد أن هذه الظاهرة المفاجئة في حياة كل من (عبده) و (صدقى) قد أثارت الأقاويل والشبهات حولهما . . بل إن الأهل قد تهامسوا فيما بينهم بأن عبده وصدقى قد انحرفا، وغلبت عليهما الأهواء . .

– وجد (صدقى) أن ثقافته في الدين ليست إلا قشورًا . . وشعر بأن وصف (عبده) له في البداية أنه مقلد هو أقل ما يقال في حقه، فتعلق بدراسات شتى، تقربه من معرفة دينه . . وبدأ يهتم بأخبار ندوات العلوم

الدينية ومجالسها، والمحاضرات العامة وأماكنها، فنشأت بينه وبين المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا علاقة، زادت على الأيام ثباتًا وعمقًا.

وكان عبده كثيرًا ما يصحبه إلى هذه المجالس، ثم ينصرف بعدها إلى التأمل والموازنة، بين ما حوته المراجع التى تتكلم عن الأديان من زاوية، ثم غيرها من زاوية أخرى. . فدخل فى مرحلة الشك من أمر اتباعه لدين معين، لمجرد توارث هذا الدين فى تتابع الأجيال، وناله من الهم ما لم يكن منه خلاص، إلا بمزيد من البحث والتأمل، وانقضى العام الدراسى. . ونجح (عبده) و (صدقى) والتحقا بمدرسة الطب. . وزاد اقترابهما من شدة تمسكهما فى الوفاء بعهدهما. . على حين كان (برادة) قد سار شوطه حتى قرابة نصف المسافة فى دراسة القانون، إذ كان قد التحق منذ حصوله على شهادة (البكالوريا) بكلية الحقوق. .

لم ينفرط عقد الصحابة الثلاثة، ولم يتنكر أحدهم للموثق الذى واثقوه، وإنما اقترب اثنان منهما بحكم الزمالة فى مجال واحد ومدرسة واحدة. . وفرض على الثالث أن يتفرد بتخصص قائم بذاته.

* * *

كانت تجربة الرسوب مريرة، فاعتزم الصاحبان أن ينصرفا عن كل راحة، أو لهو برىء، وأن يقسما الوقت والجهد، بين علوم الطب وعلوم الدين، وتقدما من المقدمات التى تدور حول وظائف الأعضاء ونحوها، إلى ما هو أدخل فى اختصاصهما، حتى حصلا على قدر من المعرفة بجسم الإنسان، من دراسة التشريح.

وكان (عبده) بوجه خاص ينهل من المراجع العلمية، ليروى ظمأه وينقع غلَّته، لا لكى يحصل على إجازة تفتح له باب الوظيفة أو الكسب من المهنة، بل لأنه كان يعانى من ظمأ قاتل لا يطفئه إلا شىء من العلم

بحقائق هذا الكون. . ولو فى بعض ما احتواه.

كان يصعد النظر فى السماء، ويدور ببصره من حول هذه الأجرام التى يخطئها عد الإنسان قطعًا. . ثم يرتد البصر حسيرًا، إذ تقوم بينه وبين حقائق هذه السماء الدنيا حجب من الجهل التام بفرع من المعرفة لا يستطيع أن يقترب منه، ثم يعود إلى جسم الإنسان، وقد تهيأت له ظروف الإمعان فى دقائقه والغوص فى خفاياه، فيشبع نهمه إلى المعرفة هنا، لعله يدرك من دراسة هذا المخلوق الذى يسمى (الإنسان) شيئًا لا يزال يجهله، هو قدرة الله سبحانه وتعالى الذى خلق الإنسان على هذه الصورة، وقد كانت فى نظره صورة مذهلة، تدل على قدرة لا تحيط بها الأبصار، وتعلقت آماله بأن يكون حقًّا أن البصائر تدركها.

وهنا بدأ يفكر أن الظاهرات المادية التى سمع عنها. . كالتجسد والميلاد وأكل الطعام والصلب، يجوز أن تكون كلها أو بعضها مقبولة من حيث المبدأ، إذا أضيفت إلى جسم الإنسان الحادث الزائل عن الوجود. . أما إضافة شىء منها إلى من خلق، فهذا أمر يدفعه حاكم العقل بالفساد، وتأباه الفطرة السليمة، فضلاً عن القوة العاقلة المدبرة.

قال محدثنا: المرحوم الأستاذ (أحمد نجيب برادة):

لم يكن الإسلام بعيدًا عن صاحبنا وزميلنا (عبده) مذ توفر على دراسة الأديان قدر اجتهاده فى آخر عهده بالدراسة الثانوية وأول عهده بدراسة الطب. . ولكن دراسة التشريح نحوًا من عشرين شهرًا، نقلته من حال إلى حال، فقد تملكه خوف من لقاء الله وهو فى تردده وجهالته، بحقيقة التوحيد والبعث والثواب والعقاب، فاجتمع إلى صاحبيه، وقال بأنه آمن بالذى هما والمسلمون عليه، وبأنه سيبدأ باتخاذ ما هو مستقر من إجراءات، لتوثيق وشهر إسلامه.

فزع صاحباه من هذه العجلة وقالا له :

استمع إلينا أيها الصَّديق جيدًا . . . أنت تعلم حبنا ووفاءنا لك، وأننا سنخلص لك النصيحة حتمًا، وأنت الآن بينك وبين التخرج ومدة الامتياز عامان ونصف العام، وهذا الأمر الذى أنت مقدم عليه متعجلاً، ستكون له آثار خطيرة، وشديدة على والديك وإخوتك وأهلك، وأقل ما سيلحقونه بك من ضرر، هو ضربك وطردك من الدار ومحاربتك، وأنت بكل ذلك ستعرض مستقبلك للبوار، وهذا الدين القويم الذى رغبت فيه، يأمر بالحكمة والتعقل، فالرأى عندنا أن تتمهل، وأن تستخفى بدينك حتى تتخرج، وتكون لك وظيفة تكسب من ورائها رزقك.

ثم إنك فى حاجة إلى مزيد من الدراسة . . والله يعلم منك صدق نيتك فيما تدعيه، فأنت عنده إن شاء الله من المقبولين ما دامت قد صحت نيتك، فلا تتعجل التوثيق وشهر دينك الجديد حتى تكون العلانية مأمونة لك.

وتدبر (عبده) ما قاله صاحباه . . ووجده حكيمًا وقويمًا ومعقولاً، وأنهما حقا قد أخلصا له النصيحة، ووضح له ما كانت ستؤدى إليه عجلته من عواقب وخيمة، فرضخ لرأيهما الذى اتفقا عليه ونصحاه به، وكتم إيمانه زمنا.

لكنه وجد تعلقه بالدين الجديد يشتد ويقوى لحظة بعد لحظة ويومًا بعد يوم، وهو ما عاد يطيق كتمان مثل هذا النور الذى يشعشع فى مسامه وينير عقله وقلبه، فعاد يتصرف دون الرجوع إلى صاحبيه، حتى لا يشيرا عليه بما يكره من صبر وكتمان.

فعكف على القرآن يتلو آياته كلما وجد من وقته فسحة وفراغًا، وحرص أن يكون فى جيبه دائمًا، وبدأ يؤدى من الصلوات ما تيسر له أداؤه فى خفاء

خارج البيت، أحيانًا، وفى حجرته إذا أمن على نفسه أحيانًا أخرى.

ومضى عامان إلا قليلاً.. وهو يتعجل الأيام لتمضى ويتحقق حلمه، وبدأت مدة الامتياز (وهى أقل من عام).. وحل شهر رمضان بروحانياته وبركاته، فاعتزم طبيب الامتياز أمرًا، وما عاد بعد الآن يستشير فيما وضح له من الحق أحدًا.

غـذاء يـوم الأحــد

تخلف (عبده) عن حضور الغذاء من يوم الأحد. . على غير ما جرت به عـادته وعـادة الأسـرة كلهـا، وسـأل عنـه أبـوه ظهـرًا. . . وعصـرًا. . ومساءً. . ، لكن (عبده) لم يحضر إلى داره إلا فى ساعة متأخرة من الليل، فقيل له : إن الأسرة كلها قلقة لهذا التخلف. . وأن الظنون ذهبت بهم كل مذهب.

وكان رده : إن (الأعمال) فى قسم (الاستقبال) كانت كثيرة على غير المألوف أو المتوقع لها، وقد اعتذر عن الحضور للعمل زميلان له، فقضى اليوم كله فى مواجهة الحالات العاجلة، التى كان ينبغى لهما استقبالها لو حضرا. .

وجاء الأحد الذى يليه. . وتوقف (الخواجة) إبراهيم عن أن يـذوق طعامًا أو شرابًا حتى يصـل ابنه الـطبيب. . وطال انتـظاره له سـاعات وساعات، حتى غلبه النوم فقام إلى فراشه مكتئبًا، وقد داخله هم لا يعرف من أين أتاه. . أو هو يعرف ولكنه يناوىء نفسه، هروبًا من مواجهته، حتى فزع بآماله إلى الكذب.

- وعند منتصف الليل. . جـاء الطبيب إلى الـدار، وعليه من آثـار الإجهاد ما يظنه فى نفسه شفيعًا، واتجه إلى حجرته بخطوات متعبة، وتبعته أمه وهى تقول له : أين كنت اليوم بطوله يا بنى؟؟ إن أباك لم يذق طعامًا ولا شرابًا اليوم، لأنه يكره أن يكون مكانك خاليًا من غـذاء الأحد. . وهذه هى المرة الثانية، التى يتكرر فيها ذلك على التوالى. فهلا تـرفقت

بنفسك وبأبيك وبنا جميعًا، فيما تقبله من واجبات، بسبب تخلف زملائك عن نوبات عملهم؟ بل هلا رحمت أباك وترفقت به، بعد أن تقدمت به السن؟.

وترفق (عبده) بأمه وهو يجيبها إلى ما سألته.. لكنها عادت تلح وتسأل.. وهو مرهق مجهد.. فقال لها: يا أماه!! وحشد لها من صنوف المعاذير ما يظنها اقتنعت به، وهما لا يزالان فى حوار.. وإذا بمساعده فى المستشفى يطرق الباب، ويطلب من الطبيب الحضور إلى المستشفى على عجل، لوقوع حادث كبير، تضاعفت بسببه الحالات، لذا تعين استدعاء كل الأطباء.. ولكن (عبده) لم يكن قد مضى على حضوره لداره ساعة ويضع الساعة، قضاها فى حوار مرير مع أمه، ولم ينل قسطه المقرر من الراحة، أو حتى بعضه، ولكنه طلب من أمه أن تعينه على استبدال ملابسه.. ليمضى فورا مع مساعده، الذى لا يزال واقفًا بالباب..

ثم انصرف الطبيب مع مساعده، ولفهما الليل، ولف المكان سكون مبهم، من ذلك النوع الذى ينبىء بقرب هبوب عاصفة قوية.

- وفى الليلة التالية، جاء من المستشفى من يستدعى الطبيب (عبده) لأن الطبيب النوبتجى قد اعتذر فجأة.

وبعدها تكرر الطلب فى جوف الليل من جديد، مرة بعد مرة.. وتنوعت الأعذار حتى جاء يوم الأحد الثالث.. وأبوه يتابع ولا يتكلم، فقد غشيه من الهمّ غاشية لا قبل له بها.. وعلى مائدة الغذاء، جلس ينتظر ولده ساعات وبه من الهم والكرب والهواجس والشكوك، ما يهدّ كيانه ويزلزل وجدانه، وتحامل الأب على نفسه، وهو ينهض بعيدًا عن المائدة، فاختلّ.. لولا أن أعانه بنوه، وأمرهم أن يجلسوه على مقعد مقابل لمدخل الدار.. وبقيت عينه شاخصة لكل قادم، لكن ساعات طويلة مضت،

وهو على ما هو عليه، حتى قارب الليل أنْ ينتصف. . وغرقت الدار فى سكون حزين مبهم.

* * *

وأقبل الطبيب الذى تخلف عن غذاء الأحد ثلاثا متواليات. . فألقى أباه جالسًا لا يزال لدى مدخل الدار، فتمالك نفسه وحياه. . لكنه لم يرد التحية، وبادره قائلاً : أين كنت طوال اليوم. وهو يوم الأحد؟

قال الطبيب متلطفًا : بالمستشفى كعادتى يا أبى. . وساد بينهما الصمت فترة، حتى تمالك الرجل نفسه، وقال فى هدوء مصطنع : إن أمرك يا بنى لم يعد خافيًا علىّ. . خاصة بعد ما تكرر غيابك فى كل يوم أحد. . ولقد اجتمعت عندنا دلالات خطيرة عن سلوكك فى العامين الأخيرين. . وهى دلالات أيقظت فى نفسى ظنونًا تكاد تقتلنى حسرة على ما آل إليه أمرك، وما صرت عليه من حال، فهلا حدثتنى بحقيقة الخبر، وصدقتنى القول. . فإننى لأجد الحقيقة مهما بلغ سوءها، أرحم بى مما أنا فيه!!

قال الطبيب الشاب : إنى محدثك بالصدق يا أبى. . فما هى هذه الدلالات والظنون التى تشير إليها؟

قال الوالد : كتاب المسلمين. . وجده (الكوّاء) فى جيبك من نحو عامين. . وقد كتمت الأمر ظنًا منى أنك ستعود إلى صوابك ورشدك. . فتنتهى عما أنت فيه، وها هو الكتاب. . فانظر إليه جيدًا. .

أليس هذا الكتاب يخصك؟؟ أجب أيها الضال. .

سكت الطبيب لحظة ثم قال : بلى يا أبى. . الكتاب يخصّنى فعلاً. .

وثارت ثائرة الأب لجرأته، فعاد يقول : وأخوك (سليم) لقد رآك من ثقب الباب وأنت تقوم وتقعد على غير هيئة الصلاة عندنا. . ولقد حدث

أمه بما رأى فكذبته ونهرته. . لكنها راقبتك بنفسها وقد ثبت عندها صدق مقالة أخيك. . فهل تفعل هذا حقًّا، حين تخلو إلى نفسك فى حجرتك بدارى؟ .

سكت الطبيب : وقد بدا له أن الأمر جد ما بعده جد. .

وعاد الوالد يقول : لقد أصابنى من ذلك مالا قبل لبشر باحتماله، ولكنى كنت أوثر الصمت، وأنا أحمل ذلك كله فى حبك للبحث والمعرفة، حتى كان الأحد الذى مضى من ثلاثة أسابيع، ثم الذى بعده، ثم هذا اليوم الأسود. . حين اتصل غيابك اليوم كله، وتكرر خروجك فى الليل. لقد ظننت أن هذا التصرف الغريب من جانبك له صلة بهذا الشهر الذى يصومه المسلمون الآن، والمسمى بشهر رمضان. . فهل أنت تفعل فعلهم فيه أيضا؟ أم هى المصادفات؟

- وفوجىء طبيب الامتياز، الغارق فى البحث والتنقيب العلمى، والتدريب التطبيقى العملى، بهذا الموقف المفاجىء من أبيه، وما جره عليه اتخاذه القرارات بمعرفته منفردًا، وإصراره على ممارسة العبادات قبل أن يستقل بحياته، كما نصحه صاحباه بعدم التعجل. . ، لكنه رأى وقد انكشف الأمر، أنه قد آن له هو الآخر أن يستريح، وأن يفرغ من حالة القلق التى يعيشها منذ عامين أويزيد، وأن ينفض عن كاهله هذا العبء الذى أرهقه، فأقبل على والده مشفقًا عليه وعلى نفسه. . وهو يقول له :

لقد وعدتك يا أبى أن أكون صادقًا معك، وأنت تعلم أنى ما كنت لأخفى عنك أمرًا، مصيره إلى العلانية حتمًا، وإنما أردت أن أؤخر حديثى إليك فى هذا الشأن، حتى تخف واجباتى بالمستشفى. . (ثم سكت لحظة عاد بعدها يقول :)

ولكن. . ما دمت الآن تستعجل معرفة حقيقة الأمر. . فاعلم يا أبى -

هدانى الله وهداك - أنى بالبحث الدقيق الواعى، قد وجدت أن الدين الإسلامى هو الحق. . وقد اقتنعت بما فيه. . وانه قد بعث نبى كريم بالقرآن. . كما بعث من قبله الأنبياء بالكتب.

قاطعه الوالد مستفهمًا: ودينك الذى عليه آباؤك وأجدادك. . كيف وجدته؟. وفى أى مراتب الباطل صنفته أيها المجنون العاق؟؟ لابد أنك قد فقدت عقلك أيضًا حين فقدت دينك؟؟.

قال الطبيب الشاب: أىّ ضير يا أبى يمسّ الأديان السابقة، إذا جاء دين جديد يصحح ويتمّم الذى جاءت به الرسل من قبل؟؟

وعاد أبوه يسأله: هل تعرف ما تتكلم عنه أيها الشيطان؟ أم أن فى الأمر سرًّا نجهله؟ أم لعلك على صلة بفتاة مسلمة اشترطت عليك عدم اقترانك بها إلا أن تدخل فى دين الإسلام؟؟ إذا كان الأمر كما أقول يا بنى فترفق بى، ولدينا من جميلات أسر النصارى ما يسرك، وكلهن طوع البنان، إن ما أحدثك فيه أمر سهل، وطلبك فيه مجاب. أما أن تدعى على صغر سنك أنك قد تعلمت ووازنت بين الأديان، وهُديت إلى الحق منها، فهذا جهل فاضح بتعاليم دينك. . إن المسلمين يا بنى لا يعرفون الأقانيم، ولا يؤمنون بأن عيسى الرب المخلِّص «أبانا يسوع الذى فى السماء»، وهم لا يعترفون أيضا بالمسيح الحىّ، وهم. . .، وهم. . .، واستمر الوالد يعظ ابنه، وهو يظن أنه يجهل حقائق دينه.

وصبر الطبيب برهة حتى أتم والده حديثه. . وتقدم منه خطوة، وقد استجمع ما تفرق من نفسه لحظة المفاجأة. . وقال لأبيه:

والآن. . أرجوك أن تستمع إلىّ يا أبتاه. . لقد درست هذا كله، وأنا فى المرحلة الثانوية، ومعذرة إذا قلت لك بأن وقتك لا يسمح بالتعمق فى شىء من ذلك. . فأنت مشغول دائمًا بكسب معاشنا جميعًا، وأنا أكبر أبنائك،

ولا أزال عبئًا عليك إلى وقتنا هذا، وأنا يا أبي أقدّر جهادك من أجلنـا، وأحبّك لما أنت فيه من فناء فى سبيل المحافظة علينا، وإن أقلّ ما أسديه لك من معروف، أن أتولى عنك وعن إخوتى دراسة هـذا الخلاف بـين الأديان، وهأنذا قد فعلت واهتديت إلى الخير بإذن الله.

وأنا كبير الأمل أن يهديك الله إلى الحق أنت والأسرة.. فتنجون جميعًا من عذاب الآخرة، ولست أظن أن والدتى وإخوتى يتخلفون عنك، أو يختارون لأنفسهم طريقًا غير الذى تختار، هذا الأمل الكبير يا والدى هو الذى تعلقت به نفسى، لأننى أكره أن أخالفكم إلى طريق النّاجية، وأن تنتهى همتى عند إنقاذ نفسى وحسب.. وإلاّ أكون جاحدًا لفضلكم علىّ.

وصبر الوالد.. ما صبر.. حتى انفجر فى ولده الذى لم يكتف بمجاهرته بإسلامه، بل إنه تحول أيضًا إلى داعية لدينه الجـديد، وهـو الذى كـان لا يزال يظنه فى تقديره الخاص، مجرد فرد ضلّ الطريق، أو مجرد متّهم بِتَرْك دينه ودين الآباء. وانفجر الأب فى ثورة عارمة أيقظت كل من فى الدار فجاءوا جميعًا ينظرون.. صار الأب يلعن ذلك اليوم، الذى ابتلى فيه بهذا الابن الضال، البالغ العقوق والعصيان، الجرىء فى ضلاله وبهتـانه.. وأحاط بالأب بنوه وزوجه، يهدئون من روعـه بعد مـا رأوه من اشتداد غضبه، وهو على ما هو عليه، يفور بالغضب، ويقذف بالشتائم، وينذر بالتهديدات، ويتوعّد بالويل والثبور..

وأدرك الطبيب بسرعة أن الأمر لن يقف عند هذا الحد من الغضب، وأن العاقبة لابد وخيمة، وأنه فى مصارحته للأب، قد ارتكب عدة أخطاء لا خطأ واحدًا، فاندفع إلى خارج الدار لا يلوى على شىء، واندفعوا خلفه يسبّونه، ويقذفونه بالأحجار، ولم يكن ذلك مـا يؤلمه رغم شـدته، لكن ما آلمه أنه لم يحمل معه قلمًا ولا قرطاسًا، ولا شيئًا من لوازمه، وتنبّه فإذا هو

فى الطريق العام، فسار مسرعًا جادّ الخطوات، لعله يبتعد عن حى (الظاهر) كله.. وقد خشى أن يلاحقه أبوه أو بعض أخوته وأهله.

وإذْ أوغل فى الطريق، واقترب من حىٍّ ساهر، كما اعتاد الناس فى شهر رمضان، أحسَّ بالحاجة الملحَّة إلى شىء من الهدوء، لعله يلتقط أنفاسه.

وصادفه مقهى عامر بالرواد.. فانتحى منه ناحية، وجلس يتأمل أحداث هذه الساعة من الزمان، كيف بدأت، وكيف انتهت إلى ما انتهت إليه، وتحسس جيبه ليعلم كم معه من نقود قليلة، وقفزت أمامه أسئلة شديدة الإلحاح، الكتب.. والمراجع.. وملابسه.. وأدوات مهنته، ومذكراته الخاصة.. إنها كلها فى حجرته الخاصة.. وهو لم يقترب من حجرته مجرد اقتراب فى ليلته هذه.. فماذا يكون من أمره غدًا؟؟ وبعد غد؟؟ وما بقى من شهور حتى يستكمل مراحله العلمية، ومن ثم يلتحق بوظيفة تعينه على الحياة؟؟.

أدرك الطبيب الموقف على حقيقته بعد قليل من التأمل، واتجه من فوره إلى بيت (صدقى)، فوصله آخر الليل، لكن السهر فى رمضان شجعه على المضى، حتى قابل صاحبه وأفضى إليه بتفصيل ما كان..

قال صدقى: هذه حجرتك من الآن.. وأراه (المنظرة التى كانوا قد اعتادوا اللقاء فيها) وفى غد إن شاء تعالى، فى طريقنا إلى المستشفى، ننظر فى هذا الموقف المفاجىء..

قال محدثنا الأستاذ (برادة) إن (عبده إبراهيم) كان منقطع الصلة بالحياة العامة تمامًا، لانصرافه التام إلى الدرس والتحصيل لمهنته، وللدين الجديد الذى اعتنقه، وقد كانت لهذه الحال آثار فى حياته الخاصة، من يوم أن خرج من دار أبيه إلى أواخر أيامه، بما فى ذلك اختيار الوظيفة والبيئة التى تحيط بها.

لكنه كان لزامًا أن يجتمع الأصدقاء الثلاثة، فى اليوم التالى لطرده من دار أبيه، وأن يتدارسوا الموقف واحتمالاته، ومنها : استمرار ثورة (الخواجة) إبراهيم على (صدقى وبرادة) بسبب اعتقاده أنهما السبب فى غوايته، ثم أنه لابد ومن معه سيلاحقون (عبده) بالأذى، فى كل مكان يذهب إليه، أو يعمل فيه، أو يقيم به، ذلك فضلاً عن تسامع الجيران من النصارى بما حدث، وربَّما امتدَّ السَّماع إلى الأحياء المجاورة القريبة من مسرح الأحداث، لذا يتوقع أن يكون فى حى (الظاهر) لغط وشائعات، ولابد أنه سيكون فى حى الجمالية وفى حى السيدة زينب نظير، وربما اتسعت الدوائر حول هذه الأقطاب، وانتشرت التعليقات والأقاصيص.

لكن الخطر القريب هو الصدام المرتقب بين (الخواجة) إبراهيم وبين (صدقى وبرادة).. قالا لزميلهما : لقد تسرَّعت يا (عبده) فى تصرفاتك الخاصة، وأخطأت بما ظننته فى نفسك من قدرة على هداية أبيك، ومن بعده بقية أهلك.. ولقد أوقعتنا معك بذلك فى مأزق، ما كان أغناك وأغنانا عنه فى هذه الأيام.

- قالا ذلك، والطبيب الشاب ساكن هادىء، يتفكر فى قول الله تعالى : ﴿إنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء..﴾ ولكم كان بودِّه وهو يذكر الآية، لو استطاع أن يراجع النص القرآنى الكريم ونظائره، وما تحمل عليه الآية من تأويل وتفسير، وكأنما هو فى أمن تام، كما كان إلى الأمس القريب..

أجل.. أمن تام حتى من الحاجة إلى أبسط ضرورات الحياة.

المواجهة الأولى

قال محدثنا : لمَّا كان (صدقى) لم يزل غير صاحب إيراد، فقد كان المرحوم الأستاذ (أحمد نجيب برادة) المحامى يدَّخر من موارده ثلاثة جنيهات فرنسية (ونتو) شهريا، ويخصصها لصاحبه (عبده)، وقد استمرت الحال على ذلك عشرة أشهر، حتى اكتمل الدين ثلاثين (ونتوا)، ردها الطبيب لـ (برادة) بعد استقراره فى أول وظيفة، وكان (برادة) حينئذ أيسر الثلاثة حالاً، بعد أن كان الأرق حالا، فقد كان سبق صاحبيه إلى التخرج، كذلك كان قد ادَّخر، ونشط إلى أداء بعض الأعمال الخاصة، بالإضافة لوظيفته، ومن ثم كان (برادة) كما قلنا هو الأقدر على التمويل فى هذه الأزمة التى واجهها الصحاب الثلاثة، أما (صدقى)، فقد كان إسهامه بالمأوى أسبق كما ذكرنا من إسهام (برادة). . وبقيت المشكلة فى أن أدوات المهنة ومراجع الدراسة واللوازم الخاصة لاسبيل إلى تعويضها، إلا بعد زمن قد يطول. .

- لكن ذلك كله كان يهون، إذا ذكر الخطر االكبير. . خطر المواجهة، وقد رفض الصاحبان أن يتدخلا فيما ستمر به هذه المواجهة من أحداث، فـ(عبده) هو الذى اختار لنفسه الطريق، وهو الذى تعجل فى إعلان ما اهتدى إليه من الحق، وهو الذى انقلب من مهتد إلى داعية، وقد تحمل الصاحبان كل ما يمكنهما تحمّله. . أما المواجهة بين عبده وبين والده وأسرته، وهى لابد واقعة، فما شأنهما بها؟ وأى حيلة لهما فيها، وعبده هو الذى كان ضالاً فاهتدى؟ وهل هما يملكان من الأمر شيئا يحق لهما أن يتدخلا فيه؟ فإذا كان ذلك من حقهما، فهما أولى الناس بثالثهما، وأشدهم

إخلاصًا وحبًا له . . ولكن ماذا يمكنهما أن يفعلا سوى حمايته إذا أحدق به الخطر وألمّت به الأهوال.

* * *

وقد حدث ما توقعه الجميع، فالغيورون من أهل (عبده) سواء منهم الأقربون والبعيدون، قد بحثوا عنه حتى وجدوه، وحقا لم يرهقهم البحث، لأنهم كانوا يعلمون أن لا ملجأ له إلاّ صديقيه، وأنهما ما لم يجدوه فى (المنظرة) بمنزل (صدقى) . . فهم لابد واجدوه فى مكان عمله، وهو معلوم لهم جميعًا . .

وتوافدوا عليه زرافات ووحدانًا، وتكررت مناقشاتهم معه، وتواكبت ملاحقاتهم له، فى السكن والعمل. وأراد (عبده) أن يضع لهذه المناقشات والمطاردات نهاية حاسمة بدلاً مما هو فيه من متاعب فى كل يوم ولحظة، خاصة وأن مستقبله يوشك أن يبدأ على وجه يرضيه.

قال لهم : ما حاجتكم منى ؟ وما هدفكم من مطارداتكم ؟

قال أرشدهم (وهو خاله) : يا بنى . . إنك فرد مرموق فى أسرتنا، وفى جملة القبط كلهم، خلقًا وحسن سمعة، ثم إنك توشك أن تكون طبيبًا، وهذا الذى فعلت – خسارة – لانطيقها، فضلاً عن أنه فضيحة وعار لأسرتك، وللنصارى فى مصر وفى غيرها من بلاد الله، فهلا استمعت إلينا ؟

– قال : إنى مستمع إليك، لعلِّى بذلك أصل معكم إلى حل، يحفظ لكم ولى أوقاتنا ومصالحنا، ويوفر على كلينا ما نحن فيه من جهد وإجهاد، وقلق وعناد . .

قال أرشدهم : إن أباك يدعوك إلى الاستماع من رجال الدين إلى كلمة

الحق، وهم لابد أقدر منا على تبيان أوجه الضـلال، الذى أوقعـك فيه خصوم ديننا.

قال الطبيب الشاب : ما أوقعنى أحد فى ضلال، فافهموا عنى هذا، وإنما هدانى رب العالمين.

قال قائل منهم : إن كنت مؤمنًا بفعلتك هذه عن بيِّنة وحجة ! ! فماذا عليك لو أنك واجهت علماءنا ؟

قال : لكم ما تريدون.

وإذ سئل عن المهلة التى يطلبها، قال : بل أى موعد تضربون ! !

قالوا : فعد معنا الآن إلى دارك، وهناك نضرب مـع أبيك المـوعد، ليكون برضاه وفى حضوره.

قال : ليكن لكم ما طلبتم، وإنى لأسأَلُ الله المستعان، أن يهبنى الصبر على عنادكم. . وما أراه منكم من نوايا الإيذاء، وإنى لأسأل الله لى ولكم الهداية والرشاد، والله ما كنت أريد بما وقع إلاَّ الخير والنجاة، لى ولأسرتى ولكم، ولقد بذلت كل ما عندى من طيب النوايا وحسن الموعظة، ولكنى رأيت أبى يثور، وأخى يتجسس علىَّ، وأمى تتحقق من الأمر على ذات طريقة أخى. . إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت. . ولكنى قبل الذهاب معكم، أودّ أن أستوثق عما أنتم فاعلون، إذا ما جلست إلى علماء دينكم، ولم يقدموا دليلاً ولا برهانًا على صدقهم، أفأنتم منتهون ؟ أم أن الأمر مجرد حيلة تكسبون بها الوقت، وأنتم تدبّرون فى الخفاء أمرًا ؟ ؟

قال أرشدهم : يا بنى. . إنما أنت ولدنا، ونحن أرفق بك من غيرنا. . وإن ما وقع لك من الأذى، من أبيك وإخوتك، لم يكن إلاَّ فورة غضب انتابتهم، فلم يعوا ما كانوا يفعلون، وقد تركناهم والألم يقتلهم مما أحدثوا بك، ولسوف تتحقق بنفسك مما أصـابهم بسبب فقدك، فهم لايـزالون

يبكون ويلطمون حتى تقرحت منهم الجفون، وباتوا لاينامون، ولقد وجهنا اللوم جميعًا لأبيك على شدته فى معاملتك، وتهوره فى سياستك، وإنى لأقطع لك عهدًا على نفسى، أن تكون آمنًا حتى تنتهى جلستك مع رجال الدين.

ونهض الطبيب الشاب معهم، واستودع صاحبيه إلى حين، وهو يسأل الله أن يهبه التوفيق فى مباهلته، وأن يكون سببًا فى هداية أهله ليخلصهم من عذاب الآخرة.

أما أهله وجيرانه فقد كانوا طوال الطريق يفكرون، فيمن يمكنهم من رجال الدين أن يعيدوه إليهم، بما يعلمونه من دقائق الدين، والموازنات بين الفِرَق والنِّحِلَ، على أساس أن الفتى قد فتن عن دينه الحق.

وفى الصباح توجه الطبيب الشاب إلى المرحوم الشيخ (محمد رشيد رضا)، وكان يختلف إلى مجلسه من وقت لآخر. . ونفض إليه جملة الخبر، فبين الشيخ له ما غاب عنه، وأيده بالأدلة من الكتب القديمة بوجه خاص كإظهار الحق ومقامع الصلبان وشروح أهل الكتاب إذ لايحتج عند لجنة الإرشاد (حسدًا وعنادًا) بما جاء بعد عيسى عليه السلام، ثم إن الشيخ رحمه الله. . زوده بأسئلة مضادة. . يثيرها حين يفرغ من الأمور التى توقف دون جلائها أو إثباتها.

* * *

كان الموعد فى دار أبيه (الخواجة) إبراهيم عبدالملك. . وقد أنفق أبوه عن سخاء لإنقاذ ولده الأكبر مما هو فيه، وليمنعه مما هو مقدم عليه. . لكنه يئس صبرًا، وهو يرى ابنه يأتى إلى المسكن ليلاً، وقد بدا عليه الإرهاق مما يبدو أنه يفكر فيه، وظن الأب أنه يستطيع أن يوقف هذا المد، حتى يوم الأحد، وهو الموعد المضروب لرجال اللاّهوت، فعجل بجلسة سريعة،

يمهد بها للجلسة الكبرى، فربما رجع ابنه من قريب، أو استكشف هو عميق فجيعته فى ولده، فشحذ له الأسلحة وعزز لجنة الإرشاد لهدايته ورده إلى طريق الكنيسة.

وفوجىء الابن بأبيه يدعوه إلى البقاء بالمسكن لمواجهة من سيحضرون لهدايته.

وبدأت الجلسة هادئة، والكل ينصت لما يدور من قرع الحُجَّة بالحجة، والنصوص حاضرة تتلى من مراجعها، على مسمع من الجميع، ولم يعد كبير مجال للتهوين من تصرف الطبيب الشاب، على أنه رأىْ فردٍ ضالّ، كما لم يبق مجال للقول، بأنه يقع تحت عوامل الإغراء، التى ربما أحاطه رفاقه بها، وأدرك الحاضرون أن الأمر فى غاية الجدّ، فشدّدوا هجومهم، لكنهّم وجدوا لكل سؤال جوابًا، ثم وجِّهت لهم منه أسئلة مضادّة، استشعروا وهم يجيبون عنها أن ألسنتهم كانت تلوك العبارات فى غير وعى ولاتعقّل، فظنوا ذلك من فرط غضبهم وانفعالاتهم، وواجه الطبيب إجاباتهم بنصوص متعارضة فى الأناجيل، وقدم لهم أسانيد واعترافات لفريق من علماء أهل الكتاب الذين سبقوه إلى اعتناق الإسلام.. فألجمهم بما عنده، وأردف ذلك كله برأى عالم فى اللاّهوت يدحض رأى زميلٍ له بشأن حقيقة الإسلام، وثالث يسفّه رأى الثانى، ورابع يسخر من سابقه، حتى وضح لكل ذى لبٍّ وعينين، أن رفض الإسلام لم يكن عن بيِّنة عند أىّ واحد من هؤلاء..

ودار الحديث عن التجسد والأقانيم الثلاثة.. وسابقة القول بالبنوَّة عند بعض اليهود، وجرأة أهل الكتاب على جملة الأنبياء، وإنحدارهم فى هذا الأمر إلى مستوى من الإسفاف لم تعرفه البشرية، ودعوى أبوَّة الجسد ليوسف النجار، وقول فريق من النّصارى عن مريم ابنة عمران قولاً

كبيرًا، ووقائع الصلب فى كتب الرومان واليهود، وتضارب أقوالهم بشأن الحادث، وبشأن القيامة.

ثم انتقل الحديث إلى الإسْلام : عن حقيقة الوحى، وحقيقة القرآن، وحيرة أهل الكتاب من أمر إعجازه، وتصديقه لما جاءت به الكتب من قبل، وصدق الأنباء بأنه لارسول بعد محمد ﷺ.

ولم يكن الطبيب يصدر فى أقواله عن رأى من عنده، أونصٍّ من حفظه، وإنَّما كان يبسط الأسانيد العلمية، وينسب القول إلى قائله من كبار علماءِ الدِّين، وبخاصة الكتابيينَ.

وفوجىء الجميع بأن الأمر جدُّ عسير، وأن الطبيب يعرف طريقه إلى الإستعداد لمواجهة الشبهات، وما اصطلح بتسميته الأسرار، فأنهوا الجلسة، وعقدوا اجتماعًا مغلقًا، تداولوا فيه، وخرجوا إلى الجميع بقرار : أن يحشدوا له فى جلسة الأحد المتفق عليها قبلاً، عددًا من الرءوس ذات الخطر لمواجهته وردعه، حيث بلغ من تأثير الطبيب عليهم : أن باتت عندهم القضايا التى كانت يقينًا، معلقة، واهتزت النصوص التى طالما حفظوها على شفاههم. . وعادت أسئلتهم من عنده بغير معنى. . وأيقنوا أن اللَّجْنة قد عجزت. . فأعلنوا على الجميع :

أن (عبده إبراهيم عبدالملك). . ابن (الخواجة إبراهيم عبدالملك) من أسرة كذا، التابعة لكنيسة كذا. . . قد حلَّت عليه اللعنة الأبديَّة لهذه الكنيسة، ما لم يرجع إلى رحمة أبينا يسوع المسيح. . مخلِّصنا وراعينا. . وأن اللجنة رحمة به، وحنوًّا على أبيه المسكين، قد منحته فرصة العودة إلى دين آبائه وأجداده، بالحضور يوم الأحد فى ذات المكان، أمامَ عددٍ من الآباء لنصحه وهدايته، نسأل إلهنا وأبانا الذى فى السماء يسوع المسيح أن يكتب له العودة إلى حظيرة رحمته وألا يصير من الخراف الضالة. . . آمين آمين.

لكن عددًا ممن حضروا الجلسة، كانوا يرجون لو استمرَّت المباهلة، حتى يروون عطشهم إلى ما يحرقهم من أسئلة واستفسارات.

فقد سمعوا لأول مرة فكرا جديدًا، ونقاشا فريدًا، ودفاعًا من الطرفين، جعلهم فى شوق إلى معرفة نتيجة محدَّدة، بدلاً من أن يوقظوا القضايا هكذا ثم يدعوها ساهرة، ويثيروا على الشفاه الأسئلة، ثم يتركوها حائرة، فما بالهم قد عجزوا أمام هذا الفرد الذى تخلف عن السَّير فى موكب آبائه وأجداده؟

فهاجوا وماجوا وتدافعوا يتصايحون!! لكنَّ كبير الجلسة نصحهم بالهدوء، حتى لايشرد منهم هذا الخروف الضال، ووعدهم بأن يوم الأحد قريب، وأنه قد جمع للمباهلة فحول علماء أهل الكتاب والمفسرين، وخبراء التبشير الرَّاسخين، فهدأت ثائرتهم.. ولكن إلى حين..

* * *

المباهلة

وجاء يوم الأحد الموعود، واحتشد الأهل والأقارب وكل من يهمه الأمر، ليرى هزيمة هذا الطبيب الذى خدع، وصبأ عن دينه الحق إلى دين المسلمين، وهم يهددونه ويتوعدونه، لئن لم ينته عما هو مقدم عليه، ليمزقنّه إرْبًا، ويُصَيِّرونه عدمًا، وأن هذه الفرصة هى الأخيرة، ما لم ينصع إلى دين يسوع المسيح.

وما علموا أن الذى يقولونه من القول، لا يحرك له ساكنًا، ولا يهز منه شعرة، وأنه يقبض بيديه الآن على حقيقة لن يفلتها، وأن أرخص ما يقدم فى سبيل إيمانه بها، حياته، ثم هدأ الصخب، وبدأت الجلسة وقد انبرى كبير القساوسة، وهو يتطاول فى كرسيه، يتيه على الحاضرين بما حفظه، ولقّنه قديمًا فى الكنيسة فقال:

(باسم الأب والابن والروح القدس، إله واحد، خصنا بابنه ومحبوبه، ومدّ علينا رحمته الصليبية، روح المسيح إلهنا، الذى خلق السموات والأرض وما بينهن، والذى فدانا بدمه المقدس، ومن عذاب جهنم وقانا، ورفع عن أعناقنا الخطيئة، التى كانت فى أعناق بنى آدم، بسبب أكله من الشجرة التى نهى عنها: فخلّصنا المسيح بدمه وفدانا، هرق دمه فى مرضاة جميع ولد آدم، إذ كان الذنب باقيا فى أعناق جميعهم، فكلّهم تخلّص منه إلّا من كفر به، وشك فيه، فإذا أردت أن يتغمّدك الله برحمته، وأن تفوز بجنته فعد إلى دينك ودين آبائك وأجدادك، وقل: المسيح ابن الله، الذى هو الله، وبالروح القدس ثلاثة أقانيم أقنوم واحد، فستنجح وترشد).

قال الطبيب الشاب:

(بسم الله الرحمن الرحيم، إلـه واحد، فرد صمد، ﴿لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد﴾.. سلام على المهتدين، والحمد لله رب العالمين، فضل المسلمين بالإيمان على جميع الأجناس، وجعلهم ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾. أوحّد الله بموجبات تـوحيده، وأمجـده سبحانـه حق تمجيده، وأومن بـه وبملائكتـه وكتبه ورسله، ﴿لا نفـرق بين أحـد من رسله﴾، ولا أشرك بعبادته سبحانه أحدًا، وأصلى وأسلم على من جـاء بالهـدى، خالص أصفيائـه، وخاتم رسله وأنبيـائه، سيـد ولد آدم، بعثـه ربه فى الأميين، ليخرج البشر من الظلمات إلى النـور، ﴿ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾).

صلى الله عليه وسلم، من نبىّ كريم، على خلق عظيم، بعثه الله على فترة من الرسل، موضحًا للسبل، داعيًـا إلى خير الملل، ملة إبـراهيم، ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه﴾. و﴿ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا، ومـا كان من المشـركين﴾. و﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا، فلن يقبل منه، وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾).

قال أحد القساوسة:

عجيب أمرك أيها الفتى الضال، وعجيب أمر أصحابك الذين أضلوك عن كتابك، ولقنوك من الكلام ما قد سمعناه منك الآن، حتى صرت أشدّ منهم حماسًا لدينهم، وأحفظ منهم لآيات كتابهم، فأصبحنا نراك وكأنك قد نسيت دينك ودين آبائك، وهو الدين الذى عليه نشأت وترعرعت، فربى عقلك، وأصلح فساد نفسك.

قال الطبيب الشاب :

والله الفرد الصمد، الواحد الأحد، ما أضلّني ولا أغوانى منهم أحد، وإنما هدانى إليه ربى، وساقنى إليه فطرتى، واختاره لى صحيح عقلى، ودلّتني عليه عافية نفسى، فرأيت فيه ما لم أر فى غيره من الشرائع والأديان من النور والهدى، والحق والصدق، فتمسكت به ولزمته لأنى وجدت فيه تمام عقلى، وصلاح أمرى، ومنطلق فكرى، وشفاء روحى، وجوابًا راجحًا لكل سؤالى، فليس هذا الدين كدينكم : الذى يمجد الفقر، ويسوغ الذل، ويورث العقل الخلل، ويحيل المرشد سفيهًا، والمحسن مسيئًا.

لأن من كان فى أصل عقيدته التى جرى نشؤه عليها الإساءة إلى الخالق، والنيل منه بوصفه بغير صفاته الحسنى، فأولى به أن يستحلّ الإساءة إلى مخلوق.

فكيف أترك ما هدانى الله إليه من الكمال والنعمة، بعد ما بدا لى من جهلكم، وتحريفكم لدينكم، ولست مجادلكم إلا بالتى هى أحسن، فما فى الإسلام من حث على مخاصمتكم ومعاداتكم، بل هو أرحم عليكم وأحْنى، حتى من دينكم لكم، فـ ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلاّ الله ولا نشرك بعبادة ربنا أحدا﴾.

صاح أحدهم : بل نقرعك الحجة بالحجة، فإن كانت لنا الغلبة، عدت إلى دين الخلاص، وإلا تركناك تتخبط فيما مسَّك من جنون، فتكون من الخاسرين الذين تصيبهم لعنة الرب إلهنا يسوع.

قال الطبيب الشاب : قبلت التحدى، ووالله : إن ضلالاتكم : قد سارت مسير الشمس، وبواطلها قد لاحت لعيون الجنّ والإنس، ووالله لا يخذلنى الله أمامكم، وأنتم قوم غيّرتم فغيّر بكم، وأطعتم جُهَّالاً من

ملوككم فخلطوا عليكم فى الأدعية، فقصدتم البشر من التعظيم بما هو للخالق وحده، فكنتم فى ذلك كمن أعطى القلم مدح الكاتب، على حين أنّ حركة القلم لا تكون بغير الكاتب، وهأنذا على قصور .سنى، وإغفالى المطالعة أقبل منازلتكم. فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

قال كبيرهم : أيها الابن الضالّ : لعلك سمعت بما جاء به صاحب شريعة الإسلام، من أن المسيح عيسى **(روح الله وكلمته)**، وأنه **(وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين)**، فأين من هو أوجه فى الدنيا والآخرة من المسيح ابن الله ؟

كذلك فإن الذى جاء به صاحب شريعة الإسلام فى كتابه : **أن عيسى يحيى الموتى**، فكفاك بذلك دليلا على أن عيسى هو الله، خاصة وأن المسيح أيد بإحياء الموتى بعض الحواريين، فأحيوا الموتى، كمثل ما فعل المسيح، وأرسلهم المسيح إلى جميع الأجناس وأمرهم بإفشاء أمره، بعد أن بذل لهم شرائعه بنفسه، ورآه الناس بأعينهم وهو يتواضع، فيجب عليهم أن يفعلوا كما رأوا خالقهم يفعل.

لأنه عز وجل لمّا كلّم العالم على ألسنة أنبيائه، الذين جعلهم رسله ووسائطه إلى خلقه ليعلموهم الإقرار بربوبيته، وشرعوا لهم ترك أوثانهم وأصنامهم، الفاشية ضلالتها فى جميع الأرض، فنزل هو سبحانه من بعد ذلك من السماء ليكلّم الناس بذاته لئلا تكون لهم حجة عليه، فتنقطع حجتهم، من أجل أن كلّمهم بذاته لا بواسطة بينهم وبينه، فارتفعت المعاذير عمن ضيعً عهده، بعدما كلمهم بذاته إتمامًا لرحمته على الناس، فهبط بذاته من السماء، والتحم فى بطن مريم العذراء البتول أمّ النور، فأخذ منها حجابًا، كما سبق فى حكمته الأزلية، لأنه (فى البدء كانت الكلمة هو الله)، وهو مخلوق من طريق الجسم، وخالق من طريق النفس،

وهو خلق جسمه، وهو خلق أمه، وأمه كانت من قبله، بالناسوت، وهو كان من قبلها باللاّهوت، وهو الإله التام.

قال قسيس ثان:

ومن تمام رحمته على الناس، أنه رضى بهرق دمه عنهم، فى خشبة الصليب، فمكن اليهود أعداءه من نفسه، ليتم سخطه عليهم، فأخذوه وصلبوه، وغار دمه فى إصبعه، لأنه لو وقع منه شيء فى الأرض ليبست إلا شيء يسير وقع فيها، فنبت فى موضعه النّوار، لأنه لا يمكن فى الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصى آدم، الذى ظلمه واستهان بقدره، فلم يرد الله الانتقام منه، لاعتلاء منزلة السيد وسقوط منزلة العبد.

أراد أن ينتصف من الإنسان الذى هو إله مثله، فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح الذى هو إله متساو معه، فصلب ابن الله عزّ وجلّ، الذى هو الله، فى الساعة التاسعة من يوم الجمعة.

صلبته اليهود الملاعين، واليهود تقر أنها صلبته، وأنتم تنكرون ذلك منكم، لأن إنكار الصليبية عندنا كفر، فكل من ينكرها فهو كافر، ولكنكم تعظمون المسيح، فمن أجل ذلك أرتجى لك أن يهديك الله إلى الحق.

قال قسيس ثالث:

أيها الابن الضال:

إن صلواتنا أحسن صلوات تقرأ، وهى هذه: (أبانا الذى أنت فى السماء، تقدس اسمك، وليأت ملكك، ولتكن إرادتك فى السماء مثلها فى الأرض، أعطنا خيرنا الملائم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لمن أذنب

إلينا، ولا توبقنا فى المحنة، وسلِّمنا من الشرِّير). فهذه صلاتنا. وينزل الله علينا من السماء النّور، فى كل سنة فى بيت المقدس، وقد جعل الله فى أيدى البطاريق، ما لم يجعله فى يد أحد، وذلك لأن جميع ما يفعلونه فى الأرض، يفعله الله فى السماء، فإذا أذنبنا فهم الذين يقبلون التوبات، ويعفون عن السيئات، وبأيديهم صلاح الأحياء والأموات.

قال كبيرهم :

وأما ماخدعت به من دين، فقد ألَّف كثير من أساقفتنا كتبًا، فى الطّعن فيه، والردِّ عليه، وذكروا فيه صاحب شريعة الإسلام، ووصفوا أشياء، فرأينا أنه ليس على الحق، وإنما الحق معنا، ولا فائدة فى شريعته لأننا نجد الأحكام الشرعية حكمين :

الأول : حكم التوراة : (من لطمك فالطمه)،

والثانى : حكم الإنجيل الذى هو : (من لطم خدك الأيمن فانصب له الأيسر).

وأنت ترى فضل هذا على الأول ثم لا تجد لهذين الحكمين ثالثًا إلا كان داخلاً فيهما.

وأى دليل يطلب على أنك لست على الحق، من أن يكون مكتوبًا فى كتاب المسلمين :

﴿انكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ والله قد قال فى الإنجيل : (لا يتزوج الرجل إلا امرأة واحدة كما كان آدم وزوجته).

وكتب فى كتاب المسلمين : **أن الرجل إذا طلَّق امرأته ثلاثا (لا تحلّ له حتى تنكح زوجا غيره).**

والله قد قال فى التوراة : (من طلق امرأته ثم أحب مراجعتها فهى تحلّ له ما لم يمسّها رجل آخر).

وفى كتاب المسلمين : **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله، فيقتلون ويقتلون، وعدًا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن﴾** وقد قال الله فى التوراة (. . . لا يكون قتال بين بنى آدم، فإن القاتل والمقتول فى النار).

قال قسيس رابع :

وليس العجب من هذا فإن الذى ذكر لـك عن كتاب المسلمـين من الأحكام يمكنك أن تحتج فيه بالنسخ الذى هو مقدمة من مقدمات أصل شريعة المسلمين، وإنما العجب من قـوله مخبـرا : ﴿وعدًا عليـه حقا فى التوراة والإنجيل. . ﴾ وما فى التوراة والإنجيل إلا ضد ذلك.

قال قسيس خامس :

والعجب أيضا من قوله عن مريم أم المسيح : ﴿ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها﴾ وقال عنها فى موضع آخر : **﴿يا أخت هارون، ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيّا﴾**.

وليست أم المسيح بابنة عمران ولا هى أخت هارون، وإنما اسم أبيها يعقيم، فتوهم من خدعوك من المسلمين، أنها ابنة عمران التى كانت أخت موسى وهارون.

وقال أيضا فى كتاب المسلمين عن إبليس : **إن الله أسقطه إلى الأرض حين أبى أن يسجد لآدم.** وقـد قال فى التـوراة : (إنه أسقط إبليس من السماء قبل أن يخلق آدم، لأنه أراد أن يجعل نفسه نِدًّا لله، واعـتز على الملائكة وقال لهم، أنا من نار ولا خالق لى، فاجعلوا لى كرسيا أكون عليه

شبه العلى، فلم يتم قوله حتى أسقطه الله من السماء، إلى خزى دار الدنيا، هو وجميع أصحابه الذين داخلتهم الفكرة الردية.

كذلك يقول المسلمون : إن فى التوراة والإنجيل والزبور والنبوات خللا كثيرًا، وإننا قد زدنا فيها ونقصنا، وهذا من كفرهم، وليس عندهم على ذلك دليل، ولا هو أيضا مكتوب فى الكتاب الذى جاء به صاحب شريعتهم وإنما هو كلام قالوه هم.

فلو أنك تطالع جميع كتبنا من جديد، وما كان من الفضائل وحتى إلى الآن، فإن منًا أقوامًا صالحين، يعلمون الآيات والبراهين، ولكنهم لا يظهرونها إلا فى وقت الحاجة إليها؛ ولو شاهدت نزول النور الذى يأتينا فى كل سنة ليلة عيدنا الكبير، لرأيت أمرًا عجيبا، وشيئًا غريبًا.

قال كبيرهم :

إن المسلمين يقولون : إن فى الجنة أكلاً وشربًا ونكاحًا، وجميع ذلك مذكور فى الكتاب الذى جاء به صاحب شريعتهم، ونحن ننكر ذلك جميعه، ولا يمكن بوجه من الوجوه عندنا ذلك، إلا أننا إذا حُشرنا يوم القيامة، حُشرنا بأجسادنا ونفوسنا، ولكن لا نأكل ولا نشرب.

كذلك دين الصليب فشا فى الأرض دون سيف ولا قهر، ودينهم ظهر بالسيف والقهر فى الأرض، وقاتل صاحب شريعتهم الأمم وغلبهم، وكان سببا فى تغيير أمرنا، وتكفيرنا.

وفى كتابه : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . .﴾.

وقد دخلت العرب بلادنا، واستأصلت ديارنا، وهتكت أستارنا، لكنّه لما آمن بالله، ودعا إلى الله، أعانه الله فقاتل جميع الأمم فغلبهم بسيفه.

وإنما جاء المسيح ابن مريم، مهينا ضعيفا، ولم يقاتل أحدًا، وصُلب فى

مرضاتنا، فهو إلهنا وخالقنا، ورازقنا ومميتنا ومحيينا، وهو عز وجل بفضله، يغفر ذنوبنا، ويتغمدنا برحمته.

وإنا قد بذلنا لك النصيحة فى هذه الجلسة، فاعتبرها، وتدبّرها، والله يجعلها نورك، وسبب هداك. آمين. آمين.

* * *

جاء الحق وزهق الباطل

كان الطبيب الشاب قد أعار الجميع سمعه، وفتح لكلامهم عقله، وأوسع لحججهم وتهجمهم صدره، ولكم كان يودّ لو أنّهم كانوا على الهدى، إذًا لأطاعهم، أو أنّهم أعملوا عقولهم، وإذًا لأتبع ملّتهم، أو أنّ نفوسهم خلت من الحقد والحسد، إذًا لرجع إليهم، ولكن كيف يرتد إلى الظلام بعد النور؟؟ وكيف يترك الحق الواضح، ليرتمى فى أحضان الزور؟؟

قال الطبيب الشاب:

أراكم قد فرغتم من الكلام، وسردتم ما لديكم من وافر الإتهام، ووالله الذى أومن به، لقد طال جدلى مع نفسى فى كل ما قلتموه وذكرتموه سنوات وسنوات، ولقد كنت أطرح عليكم وقتها السؤال تلو السؤال، لعلى أجد الهدى عندكم، والشفاء فى دوائكم، فلم أجد مما طلبت شيئًا، إلا كلمات ترددونها، وأناجيل تحفظونها، على حين وجدت ما أنشده عند الشيخ (محمد رشيد رضا)، فقد أيّدنى بالأدّلة العقلية التى وجدتها كلها مطابقة عنده للأدّلة الشرعية.. فترددت عليه مرات ومرات، حتى ثبت عندى أن الإسلام هو الدين الحق، وأن كتابهم هو الكتاب الذى جاء بالصدق، وقد طعن فيه منكم جهلاً من لايعرف لخطابه فصلاً، والتمس له تأويلاً من لم يُؤت منكم من العلم كثيرًا ولا قليلاً، فإن من أعجب أقوالكم الشاهدة على رسوخ جهلكم أن تدعوا المسيح ابن مريم إلهًا، وما هو إلاّ مخلوق، وهو عندى وعند المسلمين رسول الله وكلمته، ونحن أوْلى به منكم، فقد قدَّرناه حق قدره، وقلنا بفضله المعلوم وفخره، واعتقدناه

بمنزلة تعقلها الأفهام، وتخلو من الأباطيل والأوهام، ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولاالملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر، فسيحشرهم إليه جميعًا﴾. وقد تبرأنا من قوم غدوا فيه على طرفى نقيض، أوّلها مفتون به ضال، والثانى ظالم بغيض. فكلاهما فى عمًى، وبصائرهما سيّان، وهما فى حلبة الكفر فرسا رهان.

- فأمًّا الأوَّلون ممن فتنوا به: فقد ضلُّوا مرتين:

١ - مرة إذ أشركوا بعبادة الله غيره.

٢ - ومرة لأنهم أوردوا عيسى بغلوِّهم فيه، موردًا يعتذر عند الله منه، يوم الحشر بين يديه، سبحانه وتعالى، إذ يقول له ربه وهو تبارك وتعالى أعلم: ﴿أأنت قلت للناس اتَّخذونى وأمى إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك، إنَّك أنت علاَّم الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به، أن اعبدوا الله ربى وربّكم، وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم، فلما توفيتنى، كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شىء شهيد﴾.

- وأما من أبغضوه أو سبّوه أو لعنوه، فإنّما أوردوه بفعلهم موردا، يكون الله تعالى حسيبهم فيه، والقائم دونه بأخذ حقه منهم.

أخبرونى أيها السادة: يا من جعلتم المسيح إلهًا، من حيث هو من الله روح لم تظلم آدم، وأنتم تقولون: إن الله نفخ فيه من روحه، بعد أن سواه من تراب، وتقولون إن المسيح نفخة من روح الله فى رجل سوّاه الله، من لحمة مريم المتخذة من آدم، فيكون لحمه إذا بمنزلة تربة، ونفخة من روح الله، بمنزلة روح الله، فإذا أوجبتم بذلك الإلهية لعيسى، فما لكم لاتوجبونها لآدم، وأنتم تقرون له بروح من الله فى حجاب من تراب؟

- وأنت يا سيدى القسيس : ما كان أزْين بك أن تقول : إن الله خلق عيسى وأمَّه آيةً للناس، عبدًا رسولاً، وصديقة مباركة كانا يأكلان الطعام.

وأكل الطعام هنا كناية عن التغوّط[1]، وقد كان يجب لله تعالى، لو سبق فى حكمه أن يكون إنسانًا، وينزل لمباشرة عباده كما ذكرت، أن يمتنع من التغوط، إذ أن التغوّط دنيَّةً ابتلى بها آدم وبنيه، إبانةً لنقصهم وعبوديتهم، وهو تعالى المختصّ بالكمال والجلال، والعظمة والجمال، فلاتليق به سبحانه وتعالى تلك الدنية، ولست أعلم ولاغيرى يعلم أن فى ملّتكم من يقول إن عيسى لم يكن يتغوط ولايبول، وحاشا لله تبارك وتعالى، أن يحقر خلقه بدنيَّة، يراها أخسّ الآدميين عارًا على نفسه، ثم يتشبه بعبيده فيها، وأنتم تقرءون فى أناجيلكم الكائنة بين أيديكم عن عيسى أنه قال حين خرج من السامرية ولحق بجلجال : (إنه لم يكرم أحد من الأنبياء فى وطنه)[2].

وفى الإنجيل : (أنه لم يقبل أحد من الأنبياء فكيف يقبلونه؟)[3].

وفى إنجيل مرقس : أن رجلا أقبل إلى المسيح وقال له : أيها المعلم الصالح : أى خير أعمل لأنال الحياة الدائمة؟ فقال له : لم قلت لى صالحا، إنما الصالح الله وحده، وقد عرفت الشروط، وذلك ألاَّ تسرق ولاتزنى ولاتشهد بالزور ولاتخن وأكرم أباك وأمك.

وفى الإنجيل ليوحنا : أن اليهود لما أرادت التقبض عليه، وعلم بذلك، رفع بصره إلى السماء وقال :

قد دنا الوقت يا إلهى، فشرفنى لديك، واجعل لى سبيلا، إلى أن أملك كل ما ملكتنى، الحياة الباقية، وإنما الحياة الباقية أن يؤمنوا بك، إلـها

(١) التبرز.

(٢) قارن بتى ١٣/٥٧ - ومرقص ٦/٤ ولوقا ٤/٢٤ ويوحنا ٤/٤٤.

(٣) إنجيل لوقا.

واحدا، وبالمسيح الذى بعثت وقد عظمتك على أهل الأرض، واحتملت على ما أمرتنى، فشرفنى لديك[٤].

وفى إنجيل متى: أن عيسى قال لتلامذته: (لا تنسبوا أباكم على الأرض، فإن أباكم الذى فى السماء وحده، ولا تدعوا معلمين، فإن معلّمكم المسيح وحده). فقوله لا تنسبوا أباكم على الأرض أى لا تقولوا إنه على الأرض ولكنه فى السماء. ثم أنزل نفسه حيث أنزله الله تعالى فقال: ولا تدعوا معلمين فإن معلمكم المسيح وحده، فها هو قد سمى نفسه معلما فى الأرض لهم، وشهد أن إلـهhim فى السماء واحد[٥].

وفى إنجيل لوقا: أن عيسى حين أحيا الميت بباب مدينة ثايم، حين أشفق لأمه لشدة حزنها عليه، فقالوا: إن هذا النبى العظيم، وأن الله قد تفقّد أُمَته[٦].

وفى إنجيل يوحنا: أن عيسى قال لليهود (لست أقدر أفعل من ذاتى شيئا، لكننى أحكم بما أسمع، لأنى لست أنفذ إرادتى، بل إرادة الذى بعثنى)[٧].

وفى إنجيل يوحنا أيضًا: أنه أعلن صوته فى البيت وقال لليهود: (قد عرفتمونى فى موضعى، ولم آت من ذاتى، ولكن بعثنى الحق وأنتم تجهلونه، فإن قلت إنى أجهله كنت كاذبًا مثلكم، وأنا أعلم أنّى منه وهو بعثنى)، فها هو قد جعل نفسه وموضعه معلومين عند اليهود، وجعل الله عندهم مجهولا، وقال إنه لم يأت من ذاته، ولكن الله قد بعثه، فما زاد فى دعواه شيئًا على ما ادعاه غيره من الأنبياء عليهم السلام[٨].

---

(٤) يوحنا فصل ٦٨/٢.

(٥) متى ٨/٢٣ - ١٠ - ١٨.

(٦) لوقا ١١/٧ - ١٦ - ٥.

(٧) يوحنا ٣٠/٥.

(٨) يوحنا ٢٨/٧ - ٢٩ - ١١.

وفى الإنجيل أنه : قال لليهود بعد خطاب طويل مذكور بينهم وبينه فى ذلك المجلس، حين قالوا له إنما أبونا إبراهيم، فقال : (إن كنتم بنى إبراهيم فاقفوا أثره، ولا تريدوا قتلى على أنى رجل أديت إليكم الحق الذى سمعته من الله، غير أنكم تقفون أثر آبائكم. قالوا له : لسنا أولاد زنى، إنَّما نحن أبناء الله، فقال : لو كان الله أباكم لحفظتمونى لأنى رسول الله، منه خرجت مقبلا، ولم أقبل من ذاتى، ولكن هو بعثنى لكنكم لا تقبلون وصيتى تعجزون عن سماع كلامى، إنما أنتم أبناء الشيطان، فتريدون إتمام شهواته)... إلى كلام كثير ذكر فى الإنجيل الذى بأيديكم أنه كان بينه وبين اليهود فى ذلك اليوم[٩].

وفى الإنجيل أيضا : أنه كان يومًا يمشى فى أسطوان سليمان فأحاطت به اليهود، وقالوا له : (إلى متى تخفى أمرك إن كنت المسيح الذى ننتظره فأعلمنا بذلك)، ولم تقل إن كنت الله، لأنها لم تعلم من دعواه ذلك، ولا اختلاف عند اليهود أن الذى انتظروه، إنسان نبى، وليس بإنسان إلـه كما تزعمون[١٠].

وفى الإنجيل أيضا عنه : أن اليهود أرادوا التقبض عليه فبعثوا لذلك الأعوان، وأن الأعوان رجعوا إلى قوادهم فقالوا : لِمَ لَمْ تأخذوه؟ قالوا : (ما رأينا آدميًا أنصف منه). فقالت اليهود : أنتم أيضا مخدوعون، أترون أنه آمن به أحد من القواد، أو من رؤساء أهل الكتاب، إنما آمن به من الجماعة من يجهل الكتاب، فقال لهم نقود مس القس : أترون أن كتابكم يحكم على أحد قبل أن يسمع منه. فقالوا له : اكشف الكتاب ترى أنه لا يجىء من جلجال نبى.

---

(٩) يوحنا ١١/٨ - ٣٨ - ٤.

(١٠) يوحنا ٢٣/١٠ - ٢٤ - ٤.

فما قالت اليهود ذلك، إلا وقد أنزل لهم نفسه منزلة نبى وليس إلـٰه، ولو أنها علمت من دعواه الإلـٰهية لقالته يومئذ[11].

وكثير من ذلك تعلمونه مما يطول ذكره فى الإنجيل، ولا محالة أنكم إن سمحت نفوسكم بالانقيغد إلى الحق، وخلعتم الهوى علمتم حتمًا أن ذلك كذلك.

ولكن تعالوا إلى الذى اتخذتموه شهيدًا على صلبه من كلام عاموص النبى : إن الله قال على لسانه : ثلاثة ذنوب أقبل لبنى إسرائيل، والرابعة لا أقبلها : (بيعهم الرجل الصالح)، ولم يقل بيعهم (إياى)، ولا قال : بيعهم إلـٰهًا متساويا معى. ويجرى تأويل قوله على وجهين :

(ا) إمَّا أن يكون عنى بالمبيع (عيسى) كما تزعمون فيجب أن نقول : إنه الرجل الصالح والعبد الصالح كما قال عاموص، لا أن نقول الإله المعبود.

(ب) وإمَّا أن يريد بالمبيع (غير عيسى) وهو الذى شَبَّهه لليهود، فابتاعوه وصلبوه، ويتحتم عليكم عندئذ نفى صلوبية عيسى. فماذا أنتم قائلون ؟

ثم إنكم جعلتم حجة على إجلال عيسى على منزلة آدم، والاعتلاء به إلى المنزلة الإلـٰهية أنه أحيا ميتا، ولم تقولوا إن الله أراد ذلك له، برهانًا على نبوته، ودلالة على صدق رسالته، ثم لم تلبثوا أن أوجبتم ما نفيتم، وأقررتم بما أنكرتم، فكنتم كالقائم القاعد فى وقت واحد، قلتم إن عيسى فى حال الإلـٰهية التى تصفونه بها، قد أيَّد نفرًا من الحواريين بإحياء الموتى، وجعلهم أرْسالاً إلى الأجناس، فأحيوا الموتى بزعمكم، فما الذى أوجب أن

(١١) يوحنا ٧/٤٤ - ٥٢.

يكون المسيح فى حال إلـهيته قد أيّد بذلك بشرًا وجعله رسولاً إلى الناس، ومنع أن يكون اللّهُ عز وجل يؤيّد بذلك بشرا ويجعله رسولا إلى الناس؟.

فإن كان المسيح من أجل أنه أحيى ميتا هو اللّه، فكل من أحيا ميتا من الحواريين بزعمكم فهو الله، وبإجماع من جميع المِلَل أنَّ إلياس النَّبىّ، أحيا الموتى، وكذلك اليسع، فلم تظلمون بعضًا دون بعض؟.

ثم إنكم تقولون: إن اللّه عز وجل لما كلّم العالم على ألسنة أنبيائه، الذين جعلهم رسله ووسائطه إلى خلقه، ليعلموهم الإقرار بربوبيته، وشرعوا لهم ترك أوثانهم وأصنامهم الفاشية ضلالتها فى جميع الأرض، فنزل هو تعالى بعد ذلك من السماء، ليكلم الخلق بذاته لئلا تكون لهم حجة عليه، فتقطع حجتهم بأن الله كلمهم بذاته لا بواسطة، فارتفعت المعاذير عمَّن ضيع عهده بعد أن كلمهم بذاته، أخبرونى أيها القساوسة: ما الذى أوجب ذلك؟ هل كان علمه لم يحط بما فعل أنبياؤه حتى هبط ليطّلع على فعلهم؟ أو هل كانت أنبياؤه متهمة عنده بمخالفة أمره؟ أو هل كانت الأنبياء لم تَقْوَ على بيان ما جاءت به من الإيمان بالله، وعجزت عن إظهاره فى العالم، وضعفت عن إظهار المعجزات العجيبات، الدَّالَّات على صدقها حتى هبط هو، ففعل ما لم يفعله من قبله؟.

فلقد قصصتم فى الإنجيل الذى بأيديكم، أن اليهود كانت تطالبه بمثل بعض معجزات موسى بن عمران، فلا يجيبهم بشىء، وسوف أذكر لكم ذلك فى حديثى معكم، قبل انتهاء هذه الجلسة.

أما الآن فأخبرونى أيُّها القساوسة: ما الذى أظهر دليلا على أنه هو الله، حتى تنقطع حجة العالم به دون غيره كما زعمتم؟ وما الذى رأوا من العظمة التى لم يكونوا رأوها حتى ترتفع المعاذير؟.

ألأجل أن رأوا يديه ورجليه مكتوفة كما تظنون من غير يقين؟ أم لأجل

أنه كان مصفوعًا فى قفاه[١٢]، مبصوقًا فى وجهه، بتاج من الشوك على رأسه، مصلوبًا على أطروش نبيط، مسمَّرة يداه ورجلاه فيه، كما جاء وصفه فى الإنجيل؟.

بل عجبًا لتوهّمكم أيضًا، باختلافكم فى خشبة صلبه، فَمِن قائلٍ: كانت من السرول، ومن قائلٍ: كانت من الأرز، ومن قائل: كانت أطروشا من نبيط، وقلتم إن الخشبة قطعت وحملت على عنق الله تبارك وتعالى، إذلالاً له وتنكيسًا به، وصلب عليها، تشنعون بذلك خطيئة اليهود لتضرموا قلوب عوامكم ضغنا عليهم، لقد وجب تنقص تلك الإلـهية بما لا يخفى على أحد، ولم يكن من جرم أنه لو سبق فى حكم الله أن يباشر خلقه مثل المباشرة التى ذكرتم، لأنبأت بذلك التوراة والأنبياء تصريحًا، لا كناية وألغازا، ولجل ذلك عن الإنكار، ولعظم فى الأوهام والأفكار، ولا تنظرته الأمم بأشد أسباب الانتظار.

أما إنكم تأوَّلتم فى التوراة، وفى بعض النبوأت ما يخرج عن منهج الحق، ويبرح عن مبين الصدق، ويوجد تأويل من قبلكم لها أهدى سبيلا، وأقوم قيلا، وأوضح دليلا، كما تأولتم فى الثلاثة ملائكة الذين أتوا لبشارة إبراهيم تحت العفصة، فقام إليهم وبجلهم، وخاطبهم خطاب رجل واحد على ما ذكر فى توراة اليهود، جعلتم ذلك دليلكم: على التثليث، إلى غير ذلك من التأويلات التى هى رمد فى عين الإيمان، وشجى فى صدر كل ناطق إنسان.

ثم احتال بعضهم لذلك الكفر البشيع والجهل الشنيع بوجوه من العذر أقبح من الذنب كالشمس ثلاثة أشياء جرم ونور وحرارة، تشبيها بالتثليث، وكالحديدة يحميها الحداد ثم يمدها، فليمد ما شاء فإنه ليس يمد

---

(١٢) إنجيل متى ٢٦/٦٧ - ومرقص ١٤/٦٥ و١٥/١٩ - ويوحنا ١٩/١ و٣/١٨.

النار، وإنما يمد جسم الحديد، تشبيها بالله عز وجل حين صلب بزعمكم، إلى غير ذلك من الهذيان..

* * *

ورأى الطبيب الشاب على وجوههم السخط والبهت، وهم ينظر بعضهم إلى بعض فى حسرة وندم، ولسان حالهم يقول: لقد ذهب إلى غير عودة، ولكزه أبوه فى صدره بشدة، لكنه لم يتراجع، ولم يرهبهم، بل عاد ينظر إليهم موجِّهًا القول إلى كبيرهم:

قل لى أيها الكاهن الكبير: ألم يحدث أنَّ سيد النبيين والمرسلين محمدًا ﷺ، دعا أربابكم إلى المباهلة، حين أنزل الله عليه: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، الحق من ربك فلا تكن من الممترين، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.

ألم يجزع أربابكم لذلك، وأبوا عليه، فأوعدهم عليه الصلاة والسلام لو باهلوا بإضرام ذلك الوادى نارًا عليهم، فتخوَّفوا نقمة الله تعالى حين تيقَّنوا كرامته عليهم، وجاهه لدى الله؟

وإلّا فلم لم يبكِّتوه حينئذ، فيباهلوا ولا يحترقوا كما أوعدهم؟.

وأما الإنجيل الذى بأيديكم، فإنكم تجدون فيه نصًّا، لما قدمت من الدليل على براءة عيسى مما نسبتم إليه، من ادعائه الإلٰهية لنفسه: «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للنّاس كونوا عبادًا لى من دون الله، ولكن كونوا ربانيين، بما كنتم تعلّمون الكتاب، وبما كنتم تدرسون».

غير أن من ضلّ بعده إلى مدة من نحو ثلاثمائة سنة، كانوا فى استدراك الأكاذيب عليه، وتقفية الإنجيل بها، ويدعـون أنه يكلمهم فى سحـاب السماء، وفى أضغاث الأحـلام، وشدوا أزر ذلـك، بأن نصّـوا بأن فى الإنجيل : أن الإيمان بعيسى لم يتم إلّا بعـده، ليجعلوا ما جـاءوا به من الكذب تمامًا لإيمانهم.

وأصل هذا النص، أن عيسى قال لأصحابـه، إن الإيمان بـه لا يتم إلا بالذى بعده. وأكد ذلك فى مواضع كثيرة، صرح فيها بسيـد النبيين والمرسلين، محمد ﷺ. . ، ولما همّوا بالتحريف بعد مدة من هلاك الحواريين رضى الله عنهم، وكرهوا ما ندبهم إليه عيسى وأمرهم به، فانحرفوا عنه بتأويلات وخيمات اخترعوها، إلى شرائع مضلات شرعوها.

والإنجيل الذى بأيديكم مملوء من القول ونقيضه، ولقد رأيت فيه من التضـاد والتناقض مـا فيه عجب، كـاستشهادكم بكـلام الأنبيـاء عليهم السلام، واتخاذكم أقوالهم جنة بينكم وبين اليهود.

ثم أثبتم فى نص الإنجيل أن عيسى قال : أنا الباب، فمن دخل علىَّ سَلِمَ، ويجد مرعى أبدا.

ثم عرض بمن قبله من الأنبياء، فجعلهم لصوصا وسـرَّاقا، فقـال : (آمين. . آمين، أقول لكم إنى أنا باب الضأن، والقادمون عليكم كانوا لصوصا وسرَّاقا، ولا يقبـل اللص إلَّا ليسرق شيئـا ويقتل، وأنـا قدمت لتحيوا، وتزدادوا خيرا). ولقد رأيت لطيفكم ومفسركم أغشتين قد اعتذر عن هذا بهذيان لا يلتفت إليه.

وفى الإنجيل الذى بـأيديكم عنـه أنه قـال : (إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى غير مقبولة ولكن غيرى يشهد لى). . ثم يقول فى موضع آخر من الإنجيل : (إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق لأنى أعلم من أين جئت

وإلى أين أذهب). . ألا فلتخبرونى أيها القساوسة كيف تكون شهادته حقًا وباطلًا ومقبولة وغير مقبولة وكيف يجمع بين هذين فى كتاب منسوب إلى الله تعالى(١٣).

وفى الإنجيل الذى بين أيديكم(١٤) عنه أنه حين استشعر بوثوب اليهود عليه بزعمكم قال: (قد جزعت نفسى الآن، فماذا أقول يا أبتاه، فسلمنى من هذا الوقت) وأنه حين رفع فى الخشبة صاح صياحًا عظيمًا وقال: إلى إلى لم عذَّبْتانى؟) وترجمته: إلـهى إلـهى لم أسلمتنى؟ ثم فى موضع آخر من الإنجيل أنه قال: (من أحب أن يقفوا أثرى فليذهب نفسه). فحرض على إتلاف النفوس، فكيف يجزع ممّا حرض عليه من قبل؟، أم كيف يكون إلـها وتجزع نفسه؟ وكيف يكون ابنا لله يدعوه أن يخلصه من ذلك الوقت فلم يستجب له؟

وفى الإنجيل الذى بأيديكم عن متى الحوارى(١٥) حين ذكر نسب عيسى عليه السلام: ابن يوسف بن يعقوب بن متان بن عزار بن اليوث بن أخيم، وعد إلى إبراهيم الخليل عليه السلام تسعة وثلاثين أبا.

ثم فى إنجيل لوقا الحوارى(١٦) يقول فى نسب عيسى عليه السلام: إنه ابن يوسف بن إلى بن متان بن لاوى بن ملحى بن متان، وعد إلى إبراهيم الخليل عليه السلام نيفا وخمسين أبا. وأنا أسألكم: كيف يقع مثل هذا الاختلاف فى كتاب تنسبونه إلى الله تبارك وتعالى؟

وهل هو مما يعقله العقل ما تتذرعون به من أن للمسيح عليه السلام نسبين هما نسب التنسيل والتوليد، والآخر نسب الولاية والكفالة؟ أم أنه عذر للخروج من المأزق وكفى؟

---

(١٣) يوحنا ٨/١٤.
(١٤) يوحنا ١٢/٢٧.
(١٥) انظر متى ١/١ - ١٦.
(١٦) لوقا ٣/٢٣/ ٣٤.

وفى الإنجيل[17] الذى بأيديكم عنه : أنه كان يومًا قد نهاكم عن التجارة فى بيت المقدس، وأن اليهود قالت له حينئذ : أى علامة تظهر لنا؟ قال : تهدمون هذا البيت، وأبنيه لكم فى ثلاثة أيام، فقالت اليهود : بيت بنى فى خمس وأربعين سنة، تبنيه أنت فى ثلاثة أيام؟

ثم فى موضع آخر منه : أنه لما ظفرت به اليهود (بزعمكم) وحمل إلى بلاط عامل قيصر، واسترعيت عليه بينة أن شاهدىْ زورًا جاءَا إليه وقالا : سمعنا هذا يقول أنا قادر على بنيان البيت فى ثلاثة أيام.

فأخبرونى أيها القساوسة : كيف استجزتم أن تسموهما شاهدىْ زورٍ، وقد شهد نص كتابكم أنه قال ذلك؟ فإن قلتم : إن اليهود ظنوا بهذا القول، غير ما عنى عيسى، فإن الشاهدين لم يشهدوا على تأويله، إنما شهدا على لفظه، وما نطق به لسانه، وما هو فى كتابكم نص.

وأىّ تأويل لهذا غير ما يظهر من فحوى مجاوبة اليهود، من أن البيت المعنى فى كلامه بيت المقدس؟ فقلتم إنما أراد جسمه، وأنه قام بعدما صلب بثلاثة أيام، ومن عجب أنكم تأولتم على اليهود فى ذلك ما أقررتم أنهم لم يقصدوا له، ذلك حين قال لهم : اهدموا هذا البيت وأبنيه لكم فى ثلاثة أيام فقالوا : بيت بنى فى خمس وأربعين سنة تقيمه فى ثلاثة أيام، فقلتم فى معنى ذلك إن التربة التى صنعت منها الخمسة والأربعون من أقطار الأرض، وأن الأحرف التى فى ابتداء السطر، إذا حصلت وجدت آدم، وأكدتم التصديق بهذا الهذيان الذى لا يؤدى إلى معنى، بإخراج العدد من اسم آدم حين تدل حروفه (بحساب أبى جاد) على خمسة وأربعين من العدد، فأنتم تأولتم قول اليهود بهذا الهذيان، وأنتم أقررتم أنها لم ترد شيئًا من ذلك، وإنما أرادت المدة التى بنى فيها بيت المقدس، ومن أعجب

(١٧) يوحنا ٢

الأشياء، أن اليهود لا تعرف شيئًا عن هذا، ولا سمعت أن أسلافها جرى بينهم وبين عيسى هذا المجلس، ولا سـواه مما تصفـون من خرافـات فى كتبكم.

وفى الإنجيل الذى بأيديكم[١٨] عنه: أن يحيى قال فيه: أنه يجب أن يكبر ولا ينقص، فأخبرونى أيها القسـاوسة عن من كـان إلـهًا تـامًّا كـما تصفون، كيف تلحقه الزيادة والنقصـان؟ أو كيف تأخـذه الآفات؟ أم أنكم ستقولون ما قال به مفسركم ولطيفكم أغشتين، ثم يصيبكم الحياء من هذيانكم كما استحيا من سفساف مقاله؟

وفى إنجيل لوقا[١٩]: أن عيسى قال لرجلين من تلامذته، اذهبـا إلى الحصن الذى يقابلكما، فإذا دخلتما فستجدان فلوًا مربوطا، لم يركبه أحد، فحلاّه، وأقبلا به إلىَّ، وفى الإنجيل لمتى يصف هذا الخبر بعينه، ويذكر أنها كانت حمارة متبعة، فكيف نوفق بين هذين القولين؟

وفى الإنجيل للوقا يخبر عن المرأة التى صبت الطيب على رجلى المسيح، وشق ذلك على التلاميذ، وقالوا هلا تصدقت به، وفى الإنجيل لمتى يصف هذا الخبر بعينه أنها إنّما صبَّت الطيب على رأس المسيح، فأى الخبـرين أصدق؟

وفى الإنجيل أنَّ أم ابنى زبدى[٢٠] جاءت إلى عيسى ومعها ابناها فقال: ما تريدين؟ فقالت: أريد أن تجلس ولدىَّ، أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك، إذا جلست فى ملكك. فقال: تجهلين السؤال، أيصبران على الكأس التى أشرب؟ فقالا: نصبر. فقال: (ستشربان بكأس، وليس إلى

---

(١٨) قارن بيوحنا ٣/٣٠.

(١٩) لوقا ١٩/٣٠ وقارن بمرقص ١١/٢ ويوحنا ١٢/١٤ - ١٥.

(٢٠) انظر متى ٢٠/٢٠.

تجليسكما عن يميني ولا عن شمالى إلاّ لمن وهب ذلك إلىّ) . فها هو ذا عيسى أيها القساوسة يعترف أنه ليس له من الأمر شيء. فهل تقولون بغير ما قال؟

ومن أعجب الأشياء التماس بعضكم تأولاً لهذه المقالات البشيعة، من فلسفة أو روحانيات، حين نبذتم المقبولات الشرعيات، وأيم الله، ما يعلم فى معمور الأرض ديانة يتشرع بها إنسان، أبلغ فى تضادها للفلسفيات والعقليات التى ادّعيتم تجويز محالاتكم عليها، من ملّتكم.

ولقد يعلم أن العرب عبدة الأوثان، الذين بعث الله فيهم سيد النبيين والمرسلين محمدًا ﷺ، كانوا شرّ الكفار عبادة وأشنعهم إلحادًا، فلقد أنفوا من مثل ما أنتم عليه، حين قالوا عن أوثانهم وأصنامهم : (ما نعبدهم إلاّ ليقرِّبونا إلى الله زلفى) فكأنهم نزهوا الله تعالى فجعلوا واسطة بينهم وبينه جهلاً منهم، وما أبين فضل هؤلاء على من اعتقد أن الله تبارك وتعالى نزل من السماء عن كرسى عظمته ودخل فى امرأة، أقام يتخبط تسعة أشهر بين نجس وبول ودم وطمث، ثم خرج بعد ذلك، إلى لطم اليهود خديه، وصفعهم فى قفاه[٢١]، وبصقهم فى وجهه، ووضعهم تاجًا من الشوك على رأسه وقصبة فى يده، استخفافًا به، وتسميرهم يديه ورجليه فى خشبة، وصلبهم إياه عليها، وإيجابه تبارك وتعالى على نفسه اللّعنة بذلك، لأنه تبارك وتعالى قال فى التوراة : ملعون ملعون من تعلّق بالصليب، ولقد جعلتموه سفيها حين وصفتموه بهذا وهو قادر، وأوجبتم شكر اليهود على أنفسكم، فإن فعلهم به، أرشد من فعله بنفسه، حين أعادوه إلى سمائه، وصرفوه إلى كرسى عظمته، بعد أن كان سفيهًا أهان نفسه، وأنزلها فى غير نصابها، نستعيذ بالله من شر هذا الإلحاد الذى شِعْتموه.

(٢١) انظر متى ٢٦/٦٧ ومرقص ١٤/٦٥ و ١٥/١٩ ويوحنا ١٩/١ و ١٨/٣.

وفى الإنجيل[٢٢] عنه من التناقض أنه قال : (لا تحسبوا أنى قدمت لأصلح بين أهل الأرض، لم آت لصلاحهم لكن لألقى المحاربة، وإنما قدمت لأفرق بين المرء وابنه، وبين الابنة وأمها، حتى يصير أعداء المرء أهل بيته). . وفى الإنجيل عنه أيضا أنه قال : (إنما قدمت لتحيوا وتزدادوا خيرا، وأصلح بين الناس). وأنه قال : (من لطم خدك الأيمن فانصب له خدك الأيسر، ومن أراد مغالبتك وانتزاعك قميصك، فزده أيضا رداءك، ومن أسخطك ألف باع فأصحبه مثلها، ومن سألك شيئا فأعْطِه، ومن استسلفك فأسْلفه).

وفى الإنجيل لمتى[٢٣] عن المسيح أنه قال لبيطرة : (طوبى لك يا شمعون ابن الحمامة، وأنا أقول لك إنك الحجر، وعلى هذا الحجر أبتنى بيعتى، فكل ما حللته على الأرض يكون محلولا فى السماء، وما عقدته على الأرض، يكون معقودًا فى السماء). . ثم فيه بعد أحرف يسيرة يقول له :

(اذهب يا شيطان ولا تعارض فإنك جاهل) فكيف يكون شيطان جاهل يطيعه صاحب السماء؟

وفى الإنجيل[٢٤] أيضا نص أنه (لم تلد النساء مثل يحيى)، هذا فى إنجيل متى ثم فى إنجيل يوحنا أن يحيى بعثت إليه اليهود من يكشفون لهم عن أمره (فسألوه من هو، أهو المسيح ؟ قال : لا. قالوا : أتراك إلياس؟ قال : لا. قالوا : أنت نبى ؟ قال : لا. قالوا : أخبرنا من أنت؟ قال : أنا صوتُ منادٍ فى المفاوز). . إلى كلام كثير. فنفى عن نفسه كونه إلياس. أو كونه نبيا، ولا يجوز لنبى أن ينكر نبوءته. وقال فى هذا الكلام وقد ذكر

(٢٢) متى ١٠/٣٤ - ٣٦.
(٢٣) متى ١٦/١٧ - ١٩.
(٢٤) متى ١١/١١ ولوقا ٧/٢٨.

عيسى : (أنه لا يصلح أن يحل شراك نعله - وسماه خروف الله) وأنتم تقولون هو الله.

وكذلك تتأولون من الإنجيل[٢٥] الذى بأيديكم، أنه لا نبى بعده، وفيه من جهة أخرى : **أنه سيبعث أنبياء**، وفى كتبكم **أنه كان بعده بأنطاكية أنبياء**، منهم بارنبا وشمعون ولقيوش وماثال، وكذلك فى كتبكم، أنه قدم أنبياء من بيت المقدس وقام أحدهم وكان يسمى أغيانوش، فتنبأ وقال إنه يكون فى البلاد مجاعة وقحط شديد، وفيها أن جرجيس النبى كان من بعده، وبعث إلى ملك الموصل، وهو من أهل فلسطين، وكان قد أدرك بعض الحواريين، فأنتم القائلون أنه لا نبى بعد المسيح، وأنتم المصدقون بنبوّة هؤلاء كلهم ولم يكن لهم من الذكر فى الكتب ولا النبؤات مثل ما للذى كفرتم به.

ثم قلتم إنه لا ينكر صلوبية عيسى إلا كافر، وما ذلك إلا ضلالات ابتدعتموها، ومحالات على رعاع الأعاجم أجزتموها، ووالله إنكم لفى شك منه ما لكم به من علم إلا اتباع الظن.

وإلا فأخبرونى أيها القساوسة ومعكم كبيركم : ما معنى قول يهوذا الأشكر يوث : الكائن قبل حواريا، ثم ارتد عنه (بزعمكم) ودل عليه (بظنكم) حين خرج من اليهود إلى طلبه، فقال : لهم : إنى لأستحى منه، ولكن أجعل الامارة عليه حين لا تعرفونه بعينه أن أقبله، فإن فعلت فأنتم وذاك، فهذا يشهد أن اليهود لم تكن تعرفه، وهذا فى إنجيلكم نصا[٢٦]، ومن نصوصكم أيضا : أنهم حين أحاطوا بعيسى ومن معه، خرج بنفسه إليهم، وقال : من تطلبون؟ قالوا : يا شوا النازرى، قال : أنا هو،

(٢٥) متى ٢٣/ ٣٤.

(٢٦) انظر يوحنا ١٨/٣ - ٨ - ١٢.

فنظروا إلى يهوذا إلا شكريوث ليروا منه الأمارة ثم قال لهم : ذلك عيسى مرارًا، إلى أن أظهر يهوذا الأمارة فتقبضوا عليه (بزعمكم).

أخبرونى أيها الكهان : كيف أمنتم أن تكون اليهود قد عمدت إلى سواه، حين كانت لا تعرفه ورفعه الله، كما رفع أخنوخ النبى، ولعلكم صدقتم يهوذا الأشكريوث، فى دلالته عليه وفى نص إنجيلكم أنه : مرتد كافر ملعون، فشهادته إذًا غير جائزة، أو لعله عندما عاينه وأدركته الندامة، جعل الأمارة على غيره من التلاميذ، وسارع التلميذ إلى وقايته بنفسه.

وفى نص الإنجيل[٢٧] الذى بأيديكم، أن يهوذا الأشكريوث أدركته الندامة حينئذ، وصرف لهم الثلاثين درهمًا التى كان باعه بها، إذ أعلمهم أنه ليس ذلك، فقالت له اليهود : وما علينا، أنت ترى. وهذه الندامة وهذا القول لليهود فى أناجيلكم.

وقلتم أنه خنق[٢٨] نفسه، وتأويل المفسرين منكم فى خنقه نفسه : أنه أراد الإسراع عاجلاً إلى جهنم، قبل نزول عيسى إليها، فيخرج من فيها حين فداهم بدمه من عذابها، فأراد يهوذا أن يكون من جملة المخرجين، وقلتم إن عيسى أبى إلا أن يكون فيها من المخلدين.

فأما اليهود فإنها قتلت رجلاً لا تعينه (بإقرار كتابكم) ولا تعرفه إلا بشهادة يهوذا الإشكريوث أنه ذلك المطلوب، وأما أنتم، فلا كتاب عندكم صادق بتحقيق ذلك، ولا خبر قاطع للحجة، وإنما قيل لكم بعد زهاء ثلاثمائة وثلاثين من السنين : أنه قد كان فى سالف الدهر رجل من أمره كذا وكذا، وبأضغاث أحلام من امرأة اسمها ألانة، ادعت أنها رأت

---

(٢٧) متى ٢٧/٣ - ٤ -١٨.

(٢٨) متى ٢٧/٥ - ٢.

فى منامها، هذيانات فقبلتم أقوالها، وتشرعتم بها من غير يقين، ولا تواتر متصل.

وأما قولكم : فأخذوه وصلبوه وغار دمه فى إصبعه لأنه لو وقع منه شيء فى الأرض ليبست إلا شيء وقع فيها فنبت فى موضعه النوار، فهذا من أعجب ما قيل، ولا أحتاج فيه إلى إثبات هذيانكم بأى دليل.

ثم قلتم إنه لما لم يمكن أن ينتقم الله من عبده العاصى آدم، الذى ظلمه واستهان بقدره، لاعتلاء جلالة السيد وسقوط منزلة العبد، فقد أراد أن ينتصف من الإنسان الذى هو إلـه مثله، فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى..

أخبرونى أيها القساوسة : أولا عن هذه المماثلة، كيف وجبت لعيسى بالله تعالى؟ ثم إذا كان الله لم يرد الانتقام من آدم، لاعتلاء قدر السيد وسقوط منزلة العبد، فالأولى أن يعفو عن الذنب ويتوب على المذنب، لا أن يعاقب أحدًا بذنب غيره، فتلك غاية الظلم، فأبيتم إلا الاحتيال للصليبية، وإثباتها، ونسبتم إلى الله ما نسبتم إلى أشرار الآدميين، من الحقد والغائلة، ونفيتم عنه ما يليق به عز وجل من العفو والصفح، وقلتم إنه انتصف من الإنسان، الذى هو إلـه مثله.

وفى الإنجيل الذى بين أيديكم : أن الصلوبية إنما لحقت جسم عيسى المتخذ من آدم، وأن النصف اللاهوتى لم تلحقه الصلوبية، ومخالفة ذلك كفر عندكم، فإذا كان هذا، فإلى الآن لم ينتقم الله، ولا انتصف من إلـه مثله كما قلتم وإنما انتصف وانتقم من إنسان من نسل آدم، فكيف ينبغى لله أن يظلم إنسانًا فيعاقبه بذنب جده؟ وكيف استجزتم أن تقولوا انتصف من إلـه مثله؟ ألا ما أبينَ، خلل هذه المقالة وأبدى ضلالها.

ثم أخبرونى أيها القساوسة : عن رجل أخطأ عليه عبده، فبقى بعد مدة

غاضبًا عليه بانيا على معاقبته، حتى ولد لنفسه ولدًا، فعمد إليه وقتله بذنب العبد الذى كان أذنب له، أترون، أن قتله ولده يشفى نفسه على ذلك العبد؟ أم يكون ذلك من أسباب كربه ودواعى حزنه؟ وهل يقع هذا من عاقل أو ممن لا عقل له؟

ثم أخبرونى عن موسى بن عمران: كيف استجاز الله أن يخلده فى الجحيم، بعد أن كلمه واصطفاه وفضله بهدايته ونبوءته، وأظهر على يديه توحيده، ولا جرم أنه لو كان ذنب آدم بقى فى أعناق أولاده، حتى يفدوا منه بدم إلـه، لنطقت به التوراة، ولصرحت به الأنبياء، لأنه أمر شنيع، ومصاب للعالم بشيع، ففى أى موضع من التوراة ذكر هذا؟ أو فى أى صحيفة من صحائف الأنبياء سطر؟ أم أنكم أتيتم على ذلك بشواهد من التوراة وكتب الأنبياء، تأويلكم فيها لا يخفى على العجائز ضعفه، ولا يستتر عن صغار الولدان سخفه؟

وأوضح دليل على صدق ما أقول لكم: ما جاء فى التوراة[٢٩] عن يعقوب بن إسحق عليهما السلام، أن ابنه يوسف جاء بابنيه منشا وأفراييم، ليبارك له عليهما، فجعل يوسف ابنه منشا وهو الكبير من ولده عن يساره كى يكون عن يمين يعقوب إذ أوقف به أمامه، وجعل أفراييم عن يمينه كى يكون عن يسار يعقوب، ثم قربهما إليه، فخالف يعقوب بذراعيه، وجعل يده اليمنى على رأس الأصغر، واليسرى على رأس الأكبر، ثم بارك على يوسف وعلى ولديه، فشق ذلك على يوسف، فأخذ بيده اليمنى، ورام رفعها عن رأس الصغير إلى رأس الكبير، وقال له لا يحسن هذا يا أبتاه، لأن هذا بكر ولدى، فاجعل يمينك على رأسه، فكره ذلك الشيخ، وقال: قد علمت ذلك يا بنى، وستكثر ذرية هذا، ولكن

---

(٢٩) سفر التكوين ٤٨/٩ و١٣ - ١٤ و١٧ - ١٩.

أخاه الأصغر يكون أكثر نسلاً وذرية منه، فتأولتم فى ذلك أن مخالفته بيديه إعلام بالصلوبية، وما يحتاج إلى تأويل ذلك بهذا الهذيان.

وفى نص التوراة سبب مخالفة بيديه، من فضل أفراييم على منشا.

فإذا كان لابد لكم، من تأويل مستدرك على نص التوراة، فَهَلُمَّ إلى تأويل أحسن موقعا فى النفوس من تأويلكم، ذلك أن مخالفة يعقوب بيديه عند البركة إعلام أن الله سيخالف بهذه البركة على ولد إسحق إذا أسخطوه بالعصيان، ويصيرها فى ولد إسماعيل، فذلك ما فعل الله بولد إسماعيل عليه السلام، إذ بعث منهم سيد النبيين والمرسلين، سيدنا محمد ﷺ.

كذلك تأويلكم قول داوود[٣٠] : (أَطْعَمونى فى مطعمى المرار وسَقَوْنى الخلّ) أن الله تكلم بذلك على لسانه مخبرًا عن الصلوبية، وقلتم إنه تبارك وتعالى حين ربط على الخشبة استسقى ماء من عند اليهود، فسقوه خلاً، وتأولتم فى كلام داود ما لم يرد تحايلا لإثبات صلوبية المسيح، وتأويل كلام داود معلوم، ومن كثير مما يجرى بين الناس مفهوم : مهما أسخطك المسخط بفعله تقول : أطعمتنى المرّ أوجرّعتنى السمّ والحنظل، وماأشبه ذلك مما يجرى فى الأمثال، وقد قال داود ذلك حين أسخطته اليهود بعصيان الله والحَيْدِ عن الهدى، ومخالفته فيما أمر به من المعروف ونهى عن المنكر.

أخبرونى أيها القساوسة : من كان الممسك للسموات والأرض حين كان الله مربوطًا فى خشبة الصليب؟ وهل بقيتا كما هما، أمْ كان استخلف على تدبيرهما غيره وهبط هو لربط نفسه فى خشبة الصليب؟ وليوجب اللّعنة على نفسه بما قد قال فى التوراة : (ملعون ملعون من تعلّق بالصليب؟

---

(٣٠) انظر يوحنا ١٩/٢٨ - ٢٩ - ٩.

عجبًا لكم، كيف يكون هو المنتقم والمنتقم منه؟ والحاقد والمحقود عليه؟ وكيف يكون ظالما بأخذه نفسا بذنب غيرها، وهو المظلوم لأنه صلب بذنب غيره؟.

بل عجبا لتفاوت غائلته وحقده، كيف لم يقنع من المعاقب - وليس هو عندكم غيره - حتى سمرت يداه ورجلاه، ولا قنع من آدم صاحب الذنب، حتى غرست الخشبة فى ظهره، لما كان قد سلم فى الجنة؟ أخبرونى ما الذى أوجب لآدم عليه السلام أن يكون موصوفا لديكم بهذه الشتائم، وهو أبو البشر، والله قد تاب عليه واجْتباه؟

ثم إنكم وصفتم فيما جئتم به من كذب الصلوبية وأحاديثها الفاجرة، أن قلتم[٣١] : قام بعد ثلاثة أيام من القبر، وتحدثتم عن مريم المجدلانية، ومريم أم يعقوب، أنهما اشترتا حنوطا وأقبلتا إلى القبر، وقالتا : من ينزع لنا الصخرة من علم فم القبر؟ فزالت الصخرة من ذاتها، فنظرتا إلى فتى قاعد فى الجانب الأيمن مغطى بثوب، وذلك يوم الأحد قبل بزوغ الشمس، فقال لهما ذلك المغطى بالثوب : أنزلا يا شوا النَّازرى، المصلوب قد قام ومضى إلى جلجال، قولا لتلاميذه ينهضون إليه. ثم إن يوحنا سمع صوتا من السماء : (وهذا ما يقول الأول والآخر، الإلـه الذى كان ميتا فحيا. .) مع جمل من الهذيان استغفر الله الغفور الرحيم عن ذكرها.

وقد كذبتم فى ذلك، ثم كتبتم أيضا فى الإنجيل الذى بأيديكم : إن الرب صعد فصار على يمين الرَبِّ فى أثر الصلوبية. فهل لكم أن تخبرونى وفيكم كبيركم، عن هذين الربين، من خلق منهما صاحبه؟ فالمخلوق منهما ضعيف عاجز ليس بإلـه، وإذا أرادَا أمْرًا فلمن يكون الحكم منهما؟ فإن كان أحدهما مضطرا إلى الآخر ومساعدته، كان المضطر عاجزا مقهورًا ولم

(٣١) قارن بلوقا ٢٤/٧ - ٣.

يكن إلـها قادرًا. وإن كان قادرا على مخالفتـه ومدافعتـه، فهو إذن إلـه مداهن، ويكون الآخر ضعيفًا عاجزًا مقدورًا عليه. أما أيّها الكهّان ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾..

﴿ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إلـه، إذًا لذهب كل إلـه بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون﴾.

ومن عجيب تناقضكم، اتفاقكم على أن التثليث أب وابن وروح قدس، وأن كل واحد من هذه الثلاثة لا يبصر، ولا يلحقه ما يلحق الخليقة، وأن عيسى كان يبصر، ويجوع ويشبع، ويأكل وينجو، وغير ذلك من صفات الخلق، ثم جعلتموه الابن من تلك الثلاثة. فأخبرونى كيف يكون واحدا من تلك الثلاثة، ويلحقه ما ليس يلحقها؟ فإن قلتم إن نصفه هو إله تام، والنصف الآخر ليس بإلـه. يلزمكمْ إذًا دعوتموه أن تقولوا له: يا نصف المسيح ارحمنا، وإذا قيل لكم من إلـهكم فقولوا: هو نصف المسيح، فيكون نصفه خالقًا، ونصفه معبودا لنصفه، وليس بإلـه تام، على أنكم لم تفعلوا شيئا من ذلك، بل بدنه لديكم معبود.

وكفى دليلاً على ذلك قولكم: لما لم يكن الله ينتقم من عبده العاصى لسقوط منزلة العبد، انتصف من الإنسان الذى هو إلـه مثله، وأن الانتصاف إنما كان من الجسم فهو المماثل، فإذا جعلتموه كله إلـها، فأنتم لا محالة تعبدون غير الله، ولا فرق عندكم بين الله وبين مخلوقاته.

وقلتم إن الابن إلـه تام، وأن الأب يستحق من الألوهية والقدم ما لا يستحق الابن، فإذا كان ذلك، فالابن إذا إلـه غير تام حين لا يستحق من الألوهية ما يستحقه الأب، وهذا من مكابرتكم العقول.

واليعقوبية من فرق ملّتكم تقول: إن الله نزل فدخل فى بطن مريم، فاتخذ من لحمها جسدًا، فكان الله مع ذلك الجسد نفسًا واحدة.

وتقول النسطورية من فرق ملّتكم : ليست النفس هى الله، وإنما هى نصفه، ومن كلام اليعقوبية أيضا : أن الله اتخذ ذلك اللحم والدم، فزادهما فى نفسه، فمصَار ذلك اللحم الله، ثم اتفقتم أن أقانيم الأب والابن والروح القدس غير مختلفة، بل هى أقنوم واحد. فإذا كان هذا، فالأب هو الإبن وهما معًا الروح القدس، الكل شىء واحد، وهذا توحيد، فلم خصصتم المسيح بالابن ولم تقولوا هو الأب، وقد قلتم إن الأب والابن والروح القدس شىء واحد، وهذا توحيد، فلم خصصتم المسيح بالابن ولم تقولوا هو الأب، وقد قلتم إن الأب والابن والروح القدس شىء واحد، ثم جعلتم جوهر البدن شيئًا معبودًا وليس من الثلاثة، فهؤلاء إذًا أربعة وقد بطل التثليث وصار تربيعا، فإن أبيتم إلاَّ ثلاثًا، فقد جعلتم نفى العدد وإثباته سواء وكابرتم العقول.

الإسلام المفترى عليه

وأما قولكم : إنكم ترون الحكم حكمين، حكم توراوى : (من لطمك فالطمه) وآخر إنجيلى (من لطم خدك الأيمن فانصب له خدك الأيسر) ولا ثالث لهما، فأخبرونى أولا : عن تفضيلكم الحكم الإنجيلى على الحكم التوراوى، كيف استجزتم ذلك؟ وأنتم قد نسبتم إلى الله عز وجل أنه أبى أن يغفر ذنب آدم، حين عصاه بأكل الشجرة التى نهاه عنها، وقلتم إن الله لم يزل غاضبًا عليه زمانًا، حتى انتصف منه بصلب المسيح، فلو كان العفو بحكم شريعتكم أفضل ما سبق الخالق إليه، فلتعلموا مقدار ما جئتم به من التناقض فى تفضيلكم حكما نسبتم ضده إلى الخالق سبحانه، ولا جرم أن العفو أفضل، وإنما جادلتكم بتناقش عقيدتكم.

ثم إنى أقول لكم : إن ذينك الحكمين اللذين أعدمتم ثالثهما،

ناقصان، لم تتم فيهما رحمة الله على عباده، ليكون فضل التمام للشريعة الإسلامية، وبيان نقص ذينك الحكمين، أن الناس قد ينزل بهم الخطب الذى لا يصلح فيه الاقتصاص والانتقام، فإن يكن الراعى لهم حينئذ يأخذهم بحكم التوراة، لم يكن ذلك صالحًا، وربما نزل بهم الخطب الذى يصلح فيه الاقتصاص والانتقام، فإن يكن حينئذ يأخذهم بحكم الإنجيل، أجرأهم ذلك على اجترام ذنب آخر، وهذا كله واضح فإن يكن الراعى مع أحد الخطبين يأخذ بما يخالفه، التماسا للتدين، فقد أفسد نظام السياسة، وإنى لسائلكم : ما فضل شريعة لا تصلح نظام أهلها؟ وإن هو أخذ بما يوافق السياسة، كان فى ذلك ما لا يخفى عليكم، وإنى لسائلكم إذن ما فضل شريعة لا يستطاع امتثالها؟

فهذان حكمان ناقصان عما فيه صلاح العوالم، كان لابد إذن من شريعة تكفل خير الدارين : شريعة تكمل على الناس بها النعمة، وتتم لهم بأحكامها الرحمة، فجاء القرآن، وحكم الله فيه وهو أحكم عادل، فى المسألة التى ناقشتها معكم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله﴾. . ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى : ﴿وإن تعفوا أقرب للتقوى﴾ فأى الحكمين أخذ به الحاكم مما يراه صالحا لهما، كان فيه موافقا للشريعة.

ثم إنكم قلتم إن كثيرًا من أساقفتكم ألفوا كثيرًا من الكتب فى الطعن على شريعة الإسلام وأنهم ذكروا صاحبها ووصفوه بأشياء فرأوا أنه ليس على الحق وأن الحق معكم. . وأنا أسألكم لم لم تذكروا هذه الأشياء التى ذكرتم، محمدا ووصفتموه بها؟ وهل لكم الآن فى ذكرها كلها أو حتى بعضها؟ أم أنكم قد أفسحتم لى أنا لأذكرها لكم قبل أن تنتهى هذه

المناقشة، فأقيم البرهان على ضلال وافتراء أساقفتكم؟ ذلك ما سوف أذكره لكم فى حينه إن شاء الله تعالى حتى يتبين لكم جميعا أين الحق من الباطل.

وأما طعنكم فى شريعة الإسلام، وتجردكم إلى خلق الأكاذيب عليها والنيل منها، فغير نكير على من كانت ديانتهم ما تقدم، من إيذاء الخالق، وتحقير عظمته، ووصفه تعالى بغير صفاته الحسنى، فخليق بمن دان بمثل هذا كله، أن يجرى على سنن مثله، من الطعن أيضا فى دين الله وكتابه الحكيم ورسوله الكريم، ومع هذا فإن من الأسباب التى دعتكم إلى ذلك، أن الله تبارك وتعالى، لما بعث سيد النبيين والمرسلين محمدًا ﷺ رحمة للعاملين، ومستنفرا لهم مما كانوا فيه من الضلال المبين، كانوا ما بين عابد وثنٍ، وغاوٍ مثلكم قد فتن، لما قد سبق فى الحكمة الأزلية أن يكون فضل التمام للشريعة الإسلامية.

تجدون عندكم مكتوبًا[٣٢] أن الله تعالى قال لهاجر أم إسماعيل: (إنى أجعله فى أمة عظيمة)، كما قال لإبراهيم حين دعا أيضًا فيه: (سمعتك فى إسماعيل هذا، وذا قد باركته وعظمته جدا جدا).. والمراد بهذا محمد ﷺ، ولكنه كنى عنه بجده إسماعيل، ومما يبين هذا أيضا، قوله فى إسماعيل: ويقاتل جميع الناس، ويقاتلونه، ويضع فسطاطه فى بلاد إخوته، ولا محالة أن هذه صفة محمد ﷺ، لا صفة جده إسماعيل.

ومثل هذه الكناية بالجد عن الحفيد فى الكتب كثيرة، من ذلك فى الزبور[٣٣] الذى بأيديكم قوله: سبحوا للرب تسبيحًا جديدًا، سبحوا الذى هيكله الصالحون، ليفرح إسرائيل بخالقه، فكيف يفرح إسرائيل،

(٣٢) سفر التكوين ١٧/٢٠ و١٦/١٢.
(٣٣) سفر المزامير ١٤٩/١ - ٢.

وكان قبل الزبور بخمسمائة سنة تقريبًا ؟ وإنما أراد : ليفرح بنو إسرائيل . كذلك فإن مثل هذه الكناية قوله : أقسم الرب لسفاهة يعقوب، أن لا يضيع عنهم أعمالهم إلى الانقراض، وإنما أراد كما هو واضح : لسفاهة بنى يعقوب.

ولما بعث الله نبيه ﷺ إلى كافة خلقه ﴿شاهدًا ومبشرًا ونـذيرًا وداعيـا إلى الله بـإذنه وسـراجًا منيـرًا﴾ فصـدع بمـاجـاء بـه من عنـد الله ، ودعـا العـالم إلى الله وحده، ﴿ولم يشرك بعبـادة ربه أحـدا﴾ ، وهداهم الحنيفيـة دين إبراهيم ، التى هى دين الله ودين أوليائه ، وبين لهم ما اختلفوا فيه ، بما أوحى الله إليه من كتابه المبين، الذى هو الآية الكبرى، المعلمة بنور البشر، الواردة بخير الدارين الأولى والأخرى، فكملت بنبوته على جميع المخلوقات الرحمة، واتسعت عليهم برسالته وظهور دينه النعمة ، وأنجز لهم ما قد وعدهم على ألسنة أنبيائه ورسله الأكرمين، وكان من اتقى الله من زعماء أهل الكتاب وعلمائهم، لما سمعوا بأمره، ساروا إليه باحثين عليه وعلى دينه، فظهر عليهم بساطع برهانه ، وأذهب كفرهم بإيمانه ، فلم يلبثوا حين عرفوا الحق من ربهم ، أن آمنوا به واتبعوه على دينه ، وفيهم أنزل الله تعالى فى القرآن : ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتْلى عليهم يخرون للأذقان سجدا، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾ .

ولا محالة أن البكاء دال على صحة العقل، وثبات اليقين، وإخلاص النية، وتبين الصدق، ومعرفة الحق، وقوله تعالى : ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ . وقوله تعالى : ﴿قل كفى بالله شهيدًا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ وقوله تعالى : ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون﴾ . وقوله تعالى : ﴿وإذا سمعوا

ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾.. وفاضت عينا الطبيب الشاب بالعبرات، التي تلألأت على وجنتيه، علامات على طهره، ودلائل صفائه، وبراهين نقائه، لكنه ملك زمام نفسه، واستطرد موجها حديثه للقساوسة:

عندئذ تزلزلت النصرانية، وسيقط ما بأيديهم من المحالات، وانتقضت عرى دياناتها، وهدت قواعدها، ودخل من هداهم الله منهم فى دين الله أفواجًا. لكنَّ الذين حسدوه منهم، وكفروا بما جاء به من بعد ما تبين لهم أنه الحق، وثبوا مسرعين، فلفقوا ما بأيديهم، وقفوه بأشياء كثيرة، استدركوها على استدراك قسطنطين، ثم لم تزل لهم كما تعلمون أيها القساوسة والرهبان محافل، يستدركون فيها على ما قدموا، وينشئون الكتب، ويصنفون الدواوين، فى خلق الأكاذيب على سيد المرسلين محمد ﷺ، وشتم عرضه على نحو ما فعلوا بالخالق، سبحانه وتعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا.

- ألا وإن من أكاذيبكم: قولكم إن محمدًا ﷺ كان يقول: لست أموت، ولكن أرفع إلى السماء، فلما مات تركوه يومين حتى نتن ثم دفنوه. كذلك من أكاذيبكم: نفيكم معجزاته، وعدم ذكركم منها إلاّ خبر أم معبد[٣٤] وخبر الذئب[٣٥]، وقولكم: إنا رأينا لمسيلمة صاحب اليمامة كتابًا تحدى به، لو رأته العرب وسائر المسلمين، لارتدوا عن الإسلام إعجابًا بنظمه. وكدفعكم فى حسن نظم القرآن وإعجازه، الذى لا يشك فيه آدمى، وكجحدكم ما فيه من الأخبار عن المعجزات وعن الغيوب، وكجحدكم بشارة الكتب والأنبياء من قبل محمد ﷺ، إلى غير ذلك من

(٣٤) انظر دلائل النبوة للبيهقى جـ١.

(٣٥) انظر صحيح مسلم جـ١٥ ص١٥٧ وصحيح البخارى ٢١٢/٤ - ٨.

الأكاذيب، التى لم تستحيوا فيها توقحا منكم على الله تبارك وتعالى، وجرأة عليه، كما وصفكم عوزريا الذى تنبأ فيكم عند بنى إسرائيل، فذكر وقاحة قلوبكم، وكلب طباعكم.

وأنا أذكر لكم الآن ما يوضح كذبكم على سيد الأولين والآخرين، وأكتفى بذكر القليل عن التطويل، وإنما أريد أن تتحققوا خلاف ما قلتموه، وتتبينوا كذبكم عليه وتوقحكم على الله تبارك وتعالى.

سيد الأنبياء ﷺ ومفتريات النصارى

قلتم عنه أنه قال: لا أموت. وفى القرآن مكتوب: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ وفيه أيضا: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا﴾. وفيه: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون؟﴾ وقال عليه السلام: (بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة).

وقال ﷺ (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

فمحمد ﷺ قد أبلغ الناس بموته وموتهم، ونهاهم أن يتخذوا قبره مسجدًا حتى لا يفتنهم ذلك به فيعبدونه من دون الله، كما فعلت النصارى فى عبادة عيسى ابن مريم، وكان ﷺ يستعيذ بالله من عذاب القبر، وبإجماع من أمته، أنه فاح منه ريح المسك حين مات، وكان على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق رضى الله عنهما يقولان:

بأبى أنت وأمى، طبت حيًا وميتًا.

فهذا أيها القساوسة بعض ما هو منصوص فى الكتب، مما نقلته عنه ثقات أمته، الذين عنوا بأخباره، وتقلدوها دينا، ورأوا وعاينوا إعلانًا وسرًا، وكثير مثل هذا نستغنى عن ذكره، فمن الذى نقل إليكم أنه قال لا يموت فيرفع؟ وإن كان الذى رفع إلى السماء أفضل من الذى فى الأرض فلم تفضلون موسى بن عمران على إدريس وعندكم أحدهما مرفوع والأفضل مقبور؟.

وأما قولكم إنكم رأيتم لمسيلمة صاحب اليمامة كتابًا تحدى به، لو رأته العرب لارتدت عن دينها، إعجابا بنظمه، فهذه مجاهرة عظيمة بالباطل وإسراف فى التوقح على الله، فأخبرونى كيف عرفتم أحوال مسيلمة باليمامة وجهلتها العرب، وكيف قرأتم كتابه على بعدكم، وعميت عنه العرب وإنا لنراكم جاهلين بأخبار أحوال المسيح وأمه، اللذين ادعيتم الانفراد بولائهما.

أما إنكم ذهبتم فى ذلك إلى التمويه على عوامكم بحسب ما جرت به عوائدكم، وإن كان اتصل بكم شىء من كلام مسيلمة، فمن أيدى المسلمين وما كتبوه فى تواريخهم، إذ لم يغادروا من حوادثهم صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها، لعلو هممهم وشرف نفوسهم.

أم لعلكم استحسنتم من كلام مسيلمة المنقول على الله عز وجل، قوله : يا ضفدع نقِّى ما تنقِّين، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدِّرين.

أم قوله : والمبذِّرات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والذَّاريات قمحًا، والطَّاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، فالثاردات ثردا، فاللاقمات لقمًا وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وماسبتكم أهل المدر، زينكم فامنعوه، والمقتر فأووه، والباغى فناوئوه.

أم قوله : تفكروا نعمة الله عليكم، أن جعل لكم الشمس سراجًا، وجعل لكم فى الأرض أنهارًا ودجاجًا، وكباشًا ونعاجًا، وفضة وزجاجًا، وذهبًا وديباجًا، وأخرج لكم رمانا وعنبًا، ورطبا وتمرا وأبًّا.

أم قوله لقد منَّ الله على الحبلى، إذ أخرج منها نسمة. تسعى، ما بين فرث وحشى، فمنهم من يموت ويدفن فى الثرى، ومنهم من يعيش ويبقى، إلى أجـل ومنتهى، والله يعلم السرّ وأخفى، ولا تخفى عليـه الآخـرة والأولى.

أم قوله : والشمس وضحاها، فى ضوبها ومتجلاّها، واللّيل إذا عداها، يطلبها ليغشاها، فأدركها حتى أتاها، وأطفى نورها ومحاها(٣٦).

فهذه نبذ من كلام مسيلمة كذاب اليمامـة، فأجـدربكم أن تتخذوه رسولا، وأن يكون كلامه عندكم معقولا. . وكيف يكون ذلك عنـدكم غريبا. . وقد ارتضيتم إلـهكم صليبًا؟

وأعجب الأشياء دفع مضليكم فى فصاحة القرآن، الذى هو حاضر فيه كذبهم، وقد كانت فصحاء العرب وشعراؤها وأئمة البيان فيها ورؤساؤها تمشى إلى استمـاعـه سـرًّا وجهـرًا، ولا تـدفـع فيـه أعـداؤه وخصمـاؤه والمستهلكون أنفسهم فى رده، ومحمد ومن اتبعه مستضعفون فى الأرض يومئذ، فبالغ فى إذايتهم.

وكان يقرأ عليهم : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا﴾ ثم قال :﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾. ثم رجع إلى سـورة واحدة فقـال : ﴿فأتـوا

---

(٣٦) قال له اعرابى : إن هذا ليشبه بعضه بعضا. ثم مر به الأعرابى وهو مصلوب فقال له : إنا أعطيناك العود، وأقعدناك على العمود، وأنا ضامن عنك ألا تعود. . (تهكمًا من الأعرابى على كلام مسيلمة كذابِ اليمامة).

بسورة من مثله﴾ ثم قال : ﴿ولن تفعلوا﴾. . فما أجابوه بحرف إذعانا إلى إعجازه، وإلقاء بأيديهم لديه، وإلا فما منعهم حين سمعوه قد قرأ عليهم ذلك أن يقولوا : هذا رجل قد تخطى رقابنا معشر العرب، على ما فينا من خطيب بليغ، وشاعر فصيح، وذى عقل وحكم، وعلم وتجربة، ونظر فى العواقب، ثم يتحدانا بسورة من مثله؟ وهو وحده ونحن كثير، والكلام كلامنا، وقد علمت جميع الأمم أنه فاض بياننا، وجاشت بالتصاوير والأخيلة صدورنا، وجرت البلاغة على ألسنتنا، فهلموا أيها البلغاء، من أهل الكلام والشعراء والحكماء، نغنى أنفسنا عن محاربته ومكابدته، بما هو أيسر علينا، فنؤلف سورة واحدة على مثل ما هو فى كتابه، فيكون كاذبا كما حكم على نفسه؟ أسألكم أيها القساوسة : لماذا لم يقع منهم ذلك لو كان فى استطاعتهم، حتى يكفوا أنفسهم محمدا؟.

ألا فلتعتبروا يا أولى الألباب، فإن قول الله سبحانه لهم على لسان نبيه (ولن تفعلوا) يحتمل أن يجرى على وجهين، لا محيص عنهما :

الأول : أن يكون القوم قد ميزوا عجزهم فستروا أنفسهم عن معارضته.

والثانى : أن يكونوا قدروا على ذلك ولكن منعهم الله بقدرته فهو الخالق القادر سبحانه.

وقد كانت العرب بالغت فى إيذاء النبى، بأقوالها وأفعالها، فما دفع أحدهم قط فى إعجاز كتابه، بل كان منهم من نسبه إلى السحر، ولكن أين السحر من القرآن، وإنما السحر خيالات وحيل، ثم يضمحل فيزول باطله، والقرآن لا يزداد مع الأيام إلا نضارة وعطاء، وقد كتبت أمته جميع ما أوذى به، من سب وهجو، وبغى وضرب، وحصر فى الشعاب، وغير

ذلك الكثير من أنواع وفنون الأذى، فما روى أحد منهم أو من غيرهم، أن أحدهم عارضه بسورة قط.

ولا يجوز أن يكون ذلك فيخفى، لما فى سجية الخلق من الولوع بنقل الأخبار، حتى لو كان عليهم فيه شيء، وأيضا فقد كتبوا هجوه ورووه وهو بالغ فى الإثم، ولقد قرأ عليهم قول الله (ولن تفعلوا) فهو قد تحداهم، فلو كانوا فعلوا، لكان ذلك سببًا فى تفرق القوم عنه وتكذيبه، حيث قال (ولن تفعلوا) بينما يكونون قد فعلوا!! فهل لديكم أيها القساوسة دليلاً على غير ما أقول؟

وقد كانوا قالوا للوليد بن المغيرة المخزومى: اختر لنا ما نقول عنه لجماعة العرب إذا قدموا الكعبة فى الموسم. ففكر وقال: ماذا تقولون أنتم؟.

قالوا: نقول هو كاهن.

قال: فإذا يكذبونكم. فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: هو شاعر.

قال: إذا يكذبونكم فقد رأينا الشعر كله، هزجه ورجزه وقريضه ومبسوطه، فما قوله بالشعر.

قالوا: هو ساحر.

قال: إذا يكذبونكم، لقد رأينا السحرة بسحرهم، فما هو بعقد السحر ولا نفثه.

قالوا: فهو مجنون.

قال: فإذا يكذبونكم، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته.

قالوا: فما تقول أنت؟.

فأطال فكرته، ثم دخل منزله وأغلق بابه، فصاحوا به وهموا برجمه،

فتطلع عليهم وقال لهم بعد فكرة طويلة :

قولوا : هو ساحر، يلقى إليه بسحر من نحو بابل، يفرق بين المرء وقلبه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا علم أنه باطل.

وفى الوليد وفكرته يقول الله عز وجل : (إنه فكّر وقدّر، فقتل كيف قدّر، ثم قتل كيف قدّر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر).

وكفى بحالهم : أيها القساوسة، شهيدًا على عجزهم أنهم كانوا إذا جاءهم محمد ﷺ قالوا : هو سحر ونحن لا نعلم السحر، فلما جاءهم بالقرآن عربيا. قيل لهم : كيف عَجْزكم بهذا لعلكم تقولون إنا لا نعلم البلاغة والخطابة ؟ فأراد الله خزيهم لأنهم كانوا يعلمون أن محمدًا لم يتعلم قط إلا ما تعلموا[٣٧]، ولا صاحب إلَّا من صحبوا، ولا فارقهم بمكة قط إلَّا بسفرة واحدة إلى الشام مشى فيها معهم قدمًا بقدم، لم يقم فيها إلا ما يقيم البائع لبضاعته، مثل ما يفعل المسافرون بالتجارة من بلد، فقد استبان أن العرب لم تدفع قط فى إعجاز كتابه فكيف وقد وضح ذلك، التفت للرد عليكم فيه، وأنتم من جعلوا مع الله إلـٰها آخر؟

وان من أعجب توقح أساقفتكم على الله، نفيهم معجزات رسوله ﷺ، فلم يثبتوا شيئًا منها، عدا خبر أم معبد وخبر الذئب، ثم قالوا : لو نقل قومه غير هاتين لنقلناها، . . . فكيف أسمع لمقالة قوم يفترون ويكذبون ؟ وهم يعلمون أن الله لم يعط نبيا آية، إلَّا أعطى محمدًا ﷺ أعجب منها أو مثلها. ولا محالة أن آية واحدة خارقة للعادة تدل على صدق نبوءة من جاءت على يديه إذا دعا إلى الله، إذ وقع الاتفاق على أن الله لا يؤيد بها كاذبًا عليه.

---

(٣٧) قال الأبوصيرى فى البردة : كفاكَ بالعلم فى الأمِّىّ معجزة. . فى الجاهلية والتأديب فى اليتم.

ثم إن أساقفتكم قالوا : لم تذكر فى القرآن آية له ولا إخبار عن غيب، وهأنذا على حداثة سنى وضحالة إطلاعى، أذكر لكم بعض ما نص فيه، ليتحقق كذبهم، وتوقحهم على الله تعالى : فمن ذلك ما نقله جميع الأسلاف، أنهم عاينوا محمدًا ﷺ وقد سألته قريش آية، فشق لهم القمر على نصفين، حتى كان جَبلُ أبى قبيس بين فلقتيه، وقرأ عليهم قرآنا باقيًا إلى اليوم قوله : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر﴾. وثابت فى الكتب كما تعلمون، أن انشقاق القمر أعجب من انشقاق البحر، وإنكم لتعلمون أن انشقاق البحر لموسى لم يكن شقًّا يقطع فى معظم البحر من إحدى ضفتيه المحيطتين به إلى الأخرى، وإنما كان قطع طريق من بحر القلزم إلى مفاوزشور.

وكذلك سقى محمد ﷺ أصحابه (فى غزوة تبوك) وهم عشرة آلاف من الرجال، ومن معهم من غيرهم، من قدح صغير فيه قدر ما يشرب إنسان، فوضع يده عليه، ونبع الماء من أصابعه كالعيون حتى شربوا، وفعل بهم مثل ذلك فى (غزوة الحديبية) وهم ألف وستمائة رجل، وانفجار الماء من اللحم أعجب من انفجاره من الحجر، فإن موسى حين فجر الماء من الحجر، قالت له بنو إسرائيل : لم تخص ذلك الحجر بعينه وإنما قال لهم : ائتونى بقدح، فانطلقوا حتى وجدوا قدحًا فجاءوه به، فوضع يده عليه وانفجر الماء، ولست أنكر ما جاء به موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام، فإن مثلة الإسلام تجعلنى وأمة محمد أولى بالأنبياء منكم، وإنما أقول إن من نسب شيئًا من آياتهم إلى السحر، لزمته الحجة على أن اقتصار موسى على حجر بعينه أقرب إلى التهمة، ومن استدعاء محمد قدحًا من الأقداح غير مخصوص.

وأيضا فى التوراة : أن السحرة فعلوا كل ما فعله موسى بمصر، إلا البعض، فإنهم لم يقدروا عليها، واسترجع محمد ﷺ الشمس ليدرك على بن أبي طالب الصلاة، فرجعت بمحضر أصحابه، ويوشع بن نون إنما استوقفها فوقفت، وفى بعض كتبكم أن يوشع إنما استوقف ضياءها بعدما غابت.

وقبض محمد ﷺ (يوم بدر) على تراب بكفه، ورمى به أوجه قريش وقال : شاهت الوجوه[٣٨]، فما منهم إلاّ من أصاب عينيه منه شيء، وانهزموا، وقرأ عليهم قرآنا باقيًا، قوله : ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ ثم ما عاينه جميع من حضر بدرا، مؤمنهم وكافرهم، من قتال الملائكة معه ذلك اليوم، حتى أن أبا داود المازنى رضى الله عنه قال[٣٩] : اتبعت مشركا يوم بدر لأقتله، فسقط رأسه بين يدى قبل أن أضربه، فعلمت أن غيرى قتله.

وأمطرهم محمد ﷺ فيه مطرًا أبدلهم الكثيب، لأنهم كانوا معه ذلك اليوم ثلاثمائة رجل أكثرهم على أقدامهم، وكان لأعدائه فى ذلك المطر ما لم يستطيعوا بسببه أن يحضروا إلى العدوة القصوى، على حين جازه النبى وأصحابه، ثم أنزل عليهم النعاس فى ذلك اليوم، فأزال عنهم الجزع لكثرة عدوهم، حتى لقد وقع السيف على يد أحدهم من كثرة ما غشيهم النعاس، والنعاس فى مثل هذا اليوم آية لأنه يوم يزول عمّن كان به.

وفيما فعل ﷺ من المعجزات (يوم بدر) من قتال الملائكة معه، والمطر والنعاس آيتان : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجزَ الشيطان،

---

(٣٨) سيرة ابن هشام ٢/٢٦٨ - ٩.
(٣٩) سيرة ابن هشام ٢/٢٧٤.

وليربط على قلوبكم، ويثبت به الأقدام، إذ يوحى ربك إلى الملائكة : أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾.

وقوله تعالى : ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين﴾.

ومن ذلك ما حدث فى السنة التى بعثه الله فيها، من رمى السماء بالشهب، بما فيه عبرة لمن عقل، وقرأ عليهم بذلك قرآنا باقيًا، قوله تعالى : ﴿وأنا لمسنا السماء، فوجدناها ملئت حرسا شديدًا وشهبًا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسّمع، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدًا. وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدًا﴾.

وقد كان بعض العرب قصدوه يومًا ليؤذوه ﷺ، وهو يصلى إلى جانب المسجد الحرام، وكانوا يسمعون قراءته ولا يرون شخصه، وقرأ بذلك قرآنًا باقيًا، قوله تعالى : ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾.

فإذا لم يكن ما ذكرته من معجزاته ﷺ يكفيكم أيها القساوسة، فهأنذا أقص عليكم ما فعل بأبى جهل بن هشام، حين عاهده قومه، ليجيئن بحجر ما يطيق حمله، يفضخ به رأسه ﷺ إذا صلى، والناس ينظرون إليه، فلما سجد النبىّ ﷺ وهمَّ أبو جهل بإلقاء الحجر عليه، رجع منهزمًا ويداه يا بستان على حجره، لا يقدر على إلقائه عنهما، حتى نبذته قريش من يديه.

وسألوه عن خبره، فقال: قمت لأفعل ما قلت لكم، فلما قربت منه عرض لى دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه فحل قط، فهمّ بى ليأكلنى، فقال النبى ﷺ: (ذلك جبريل لو دنا مِنِّى لأخذه) وقرأ بذلك قرآنا باقيا قوله تعالى: ﴿أرأيت الذى ينهى عبدًا إذا صلى، أرأيت إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى، أرأيت إن كذب وتولى، ألم يعلم بأن الله يرى، كلا لئن لم ينته لنسفعًا بالناصية، ناصية كاذبة خاطئة، فليدع ناديه، سندع الزبانية، كلا لا تطعه، واسجد واقترب﴾.

وأنتم أيها القساوسة تعلمون من معجزاته ﷺ، ما بلغ من شهرته ما يغنينى عن ذكره، فقد كلمته ذراع مسمومة[٤٠]، وحين دخل الغار مع صاحبه نسجت على بابه العنكبوت وفرخت القطاة، ولحقه قومه واتّهموا الغار، فقال أحدهم لو دخله لخرق هذا النسج ونفرت هذه القطاة، وقال له صاحبه: لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا فقال له محمد ﷺ (يا أبا بكر ما ظنّك باثنين الله ثالثهما). فبماذا تعللون هذا؟؟

وأصاب أصحابه جوع فى غزوهم، فسأل أبا هريرة، فذكر تمرات فى مزود، ثم استخرجهن إحدى وعشرين تمرة، فصبّها ﷺ فى ردائه، يقول فى كل واحدة منهن (بسم الله وبركته) ثم دعا فى العسكر إلى الغداء، وهم زهاء ثلاثة آلاف، فأكلوا حتى شبعوا، ورفع الرداء والتمر يتساقط عنه، فقال لأبى هريرة: (أعده إلى مزودك).

يقول أبو هريرة: فو الذى نفسى بيده لقد جهزت منه ستين وسقا فى سبيل الله، وأصبت باقية حتى يوم الحرة.

---

(٤٠) انظر سيرة ابن هشام ٣/٣٨٩ - ٣٩٠.

وقد أطعم محمد ﷺ (أهل الخندق)، وهم ثلاثة آلاف من تميرات ما ملأت كفه، جاءت بها أم عمرو بنت رواحة إلى أخيها عبد الله بن رواحة، فدعا النبى بها وصبها فى ردائه، فأكل الناس، وضمّ[41] رداءه على أكثر مما أخذ منها.

وأطعم أيضا (أهل الخندق) فى بيت جابر بن عبد الله، من قصعة فيها ثريد شعير، وأكل القوم حتى شبعوا، ثم بقى لجابر ابن عبد الله ما كفى أهله.

ورد النبى ﷺ عين قتادة بن النعمان الأنصارى، بعد ما فقئت (يوم أحد)، فكانت أحسن عينيه، وكانت الأخرى تمرض ولا تمرض هى، فلقب قتادة العينى.

وغير ما ذكرنا كثير وكثير من المعجزات التى تفوق معجزة كل نبى حتى أنطق العجماء وسبح فى كفه الحصى..

وأما ما فى القرآن من إخباره عما يكون، فقوله عز وجل: ﴿ألم. غلبت الروم[42] فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم، سيغلبون فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده﴾. ولقد نزلت الآية على النبى ﷺ، ثم لم تمض إلا بضع سنين حتى غلبت الروم كسرى ملك الفرس بالبحرين، فتبارك الله أصدق القائلين.

وقوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، محلقين رءوسكم ومقصرين، لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا﴾.

(٤١) ابن هشام ٣/٢٣٣ - ٦.
(٤٢) الروم ٣٠/١ - ٦ - ٤.

ففى ذلك آيتان من الغيب : دخولهم مكة والبيت الحرام كما وعدهم، والفتح القريب كان قبل دخول البيت الحرام بقليل وهو دخول خيبر.

والآيتان واقعتان محددتان فى التاريخ فهل فى ذلك مجال لناكر أو جاحد؟

وقوله تعالى : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا﴾.

وقوله تعالى : ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين، أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾.

وقوله تعالى : ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

فقوله فى الآفاق يعنى : الأمصار، وفى أنفسهم يعنى : فتح مكة.

وقوله تعالى : ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

وقوله تعالى : ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾. يعنى ما يستقبلون من فتح الأمصار.

وقوله تعالى : ﴿وأرضًا لم تطؤوها﴾. يعنى أرض الفرس.

وقوله تعالى عن اليهود : ﴿لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾.

فلما قاتلوه ولو الأدبار.

وقوله ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ فلما هاجروا أنزلهم المدينة وفتح عليهم ما لا يخفى.

وقوله تعالى : ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾.

وقوله تعالى : ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾.

وقوله تعالى : سيقول لكَ المخلفونِ من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا﴾. وقد قالوا . .

وقوله تعالى : ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا. . . .﴾.

ثم قال الطبيب الشاب : ترى هل فيما ذكرت لكم كفاية، أم لازال عندكم رغبة سماع برغم ما ترون من إعيائى وجهدى؟ قالوا : بل نمهلك إلى الغد فقد أرهقتنا بعصيانك. . لعل يسوع الإلـه يغفر لك ضلالك. . وموعدنا الغد لنرى هداية عيسى الرب لك.

* * *

ما لكم كيف تعقلون ؟ !

فلما كان الغد. . اجتمع القساوسة ومعهم كل قريب، وبدءوا بما قالوه بالأمس، فلما لم يقولوا جديدًا، قال الطبيب الشاب. . قد سمعت لكم فما سمعت جديدًا، ووعيت كلامكم فلم أجده سديدًا، وإن لى من مجادلتكم بالحسنى غرضا بعيدًا، ومازلت لم أرد على كثير مما سألتم عنه بالأمس. . وكنا قد انتهينا إلى الرد على إنكاركم لمعجزات محمد ﷺ وإخبار القرآن عن الغيب. . أما وقد بينت لكم صدقها، فاعلموا أيها القساوسة : أن من الأنبياء الذين أنتم بهم مؤمنون، من لم تكن له آية كداود لم تذكر له فى الزبور آية، وكحزقيال، الذى نص عندكم أنهم اجتمعوا إلى حزقيال يسألونه معجزة فقال :

إن الرب يقول (أقسم قسمًا باسمى أنى أنا الحى وأنى لا أجد جوابًا عما تريدون)، وكذلك اجتمعت قريش إلى محمد ﷺ وسألوه انشقاق القمر، فكان ذلك، فلما عاينوه تولوا عنه وعتوا عليه، ثم اجتمعوا إليه بعد مدة فسألوه أن يأتى إليهم بالله والملائكة قبيلاً، وسألوه أن يرد لهم أجدادهم الماضين، ويكون فيهم قصى بن كلاب ليسألوه أحق أتى به أم لا ؟ وسألوه أن يزحزح عنهم جبال مكة، ويفجر لهم فى بطائحها أنهارًا، وسألوه أن يسقط عليهم السماء كسفا، وأن يكون له بيت من زخرف، ويرقى فى السماء، ويأتيهم بكتاب مع ملائكة يشهدون له، إلى آخر ما ذكر فى الآيات ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣ من سورة الإسراء فى القرآن. فقال الله تعالى : ﴿قل سبحان ربّى، هل كنت إلاّ بشرًا رسولاً﴾ وقال تعالى : ﴿ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ يشير إلى تكذيبهم بانشقاق القمر قبل

ذلك، وتكذيب الأنبياء من قبله، ثم ذكر ناقة صالح وقال فى آخر الآية ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا﴾ ثم قال فى آخر الآية : ﴿ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرًا﴾ فقال : ﴿ونخوفهم﴾ أى نرسل لهم بالآيات فيكفرون، وقال تعالى : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند الله، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾ فأخبر تعالى أنه لو أرسل هذه الآيات التى طلبوا لعتوا وتمادوا على كفرهم كما فعلوا فى انشقاق القمر وغيره.

وتجدون فى الإنجيل[1] الذى بأيديكم عن المسيح، أن اليهود أتوه وسألوه معجزة فقذفهم وقال : (إن القبيلة الخبيثة الفاجرة تطلب آية ولا تعطى ذلك) وفيه أيضا أنه مر بشمعون الصياد وأخيه وهما يصيدان السمك فقال : (اتبعانى أجعلكما تصيدان الناس، فاتبعاه بلا آية).

ومن أعجب الأشياء أنكم تؤمنون[2] بنبوة مريم وحنا، وهما امرأتان بلا كتاب ولا معجزة ولا ذكر فى صحف الأنبياء، وتكفرون بسيد المرسلين محمد ﷺ، وله كتاب يعجز الإنس والجن، ومعجزات ليست لنبى قبله، وبشارات فى كتب الأنبياء عليهم السلام.

فأما إنكار المغضوب عليهم ذكره ﷺ فى الكتب، وبشارات الأنبياء به، فقد جروا فى ذلك على مثل ما جروا عليه فى التوقح على الله تعالى، وأنا أذكر لكم أيها الرهبان والقساوسة ما يبين كذبهم مما هو بين أيديكم فى إنجيلكم والتوراة والزبور والنبوءات، وأورد ذلك على نحو ما قصدت إليه معكم من الإيجاز والاكتفاء بالقليل، إذ به يستبين كذب أساقفة التضليل.

---

(١) قارن بمتى ١٢/٣٩ و١٦/٤ ومرقص ٨/١١ - ١٢ ولوقا ١١/٢٩.

(٢) لوقا ٢/٣٦ - ٥.

فمن ذلك فى سفر التثنية[٣] فى التوراة التى بأيديكم إلى اليوم : (قال الله لموسى بن عمران إنى أقيم لبنى إسرائيل من إخوتهم نبيًا مثلك، أجعل كلامى على فيه، فمن عصاه انتقمت منه، فإن قلت إن ذلك إنما هو يوشع بن نون، فقد قال الله تعالى فى آخر التوراة : إنه لا يخلف من بنى إسرائيل نبى مثل موسى)[٤].

فلا محالة أن الذى بشرت به التوراة لا يكون من بنى إسرائيل، لكن من إخوة بنى إسرائيل ولا محالة أنهم العرب والروم، فأما الروم فلم يكن منهم نبى سوى أيوب، الذى كان قبل موسى بزمان، فلا يجوز أن يكون هو الذى بشرت به التوراة، فلم يبق إلا العرب، فالذى بشرت به التوراة إذًا هو محمد ﷺ، وقد قال الله فى التوراة حين ذكر إسماعيل جد العرب : إنه يضع فسطاطه فى وسط بلاد إخوته[٥]، فكنى عن بنى إسرائيل بإخوة إسماعيل، كما كنى عن العرب بإخوة بنى إسرائيل، فى قوله : سأقيم لبنى إسرائيل من إخوتهم نبيًا مثلك.

فإذا قال قائل منكم إنه قال : سأقيم لبنى إسرائيل، ولم يكن محمد إلا إلى العرب. أقول لكم وله أنه ما على الأرض أحد يجهل أن محمدا قال : (بعثت إلى الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والحر والعبد والذكر والأنثى).

وهذا كتابه ينطق أنه مبعوث إلى الخلق كافة[٦]، فما ينكر ذلك أحد إلا فرقة من فرق اليهود يقال لها العيسوية تقول بنبوءة محمد ومعجزاته وتنكر أنه بعث إلى غير العرب.

(٣) سفر تثنية الاشتراع ١٨/١٥.
(٤) تثنية الاشتراع ٣٤/١٠.
(٥) تثنية الاشتراع الفقرة ٦٦/١٦.
(٦) انظر ونسنك : المعجم المفهرس للحديث النبوى.

وتجدون أيها القساوسة فى التوراة : (جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران، ومعه جماعة من الصالحين).

فمجيئه من جبل سيناء أن الله أنزل فيه التوراة وكلم عليه موسى، وإشراقه من جبل ساعير وهى جبال الروم من آذوم، واستعلانه من جبال فاران أن الله بعث محمدًا منها وأوحى إليه فيها. ولا اختلاف أن فاران هى مكة، وقد قال فى التوراة : إن الله أسكن هاجر وابنها إسماعيل فاران.

وفى التوراة التى بأيديكم أن الله قال لإبراهيم حين دعاه فى ابنه إسماعيل : قد أجبتك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته وعظمته جدا جدا، وقال : أجعله لأمة عظيمة، يريد بها أمة محمد ﷺ.

وقال فى التوراة أيضا لهاجر أم إسماعيل حين دعته[7] : (قد سمعت خشوعك فى إسماعيل وستكون يده فوق يد الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع).

ولا محالة أن إسماعيل وولده لم تكن أيديهم إلا تحت يد إسحاق وولده، لأن فى ولد اسحاق كانت النبوءة. فلما بعث الله محمدًا ﷺ جعل يد بنى إسماعيل فوق يد الجميع ورد النبوءة فيهم، وأنَّمَا هُمْ وعظَّمهم وبارك عليهم جدًّا جدًّا كما قال فى التوراة[8] : (أقبل السيد من سيناء، وأقبل من جبال فاران ومعه آلاف من الصالحين ومعه كتاب نارى وهو ختم الأجناس، وجميع الصالحين فى قبضته، ومن تدانى من قدميه يصيب من علمه). فاتبعوا قوله، واطرحوا الهوى تصيبوا إن شاء الله.

وفى الزبور[8] الذى بأيديكم : (سبحوا الرب تسبيحًا جديدًا، سبحوا

---

(٧) سفر التكوين ٢١/١٦ - ١٨.
(٨) تثنية الاشتراع ٣٣/٢.
(٩) المزمور ١٤٩/١ - ٨.

الذى هيكله الصالحون، ليفرح إسرائيل بخالقه، وبنات صهيون، من أجل أن اصطفى لهم أمة وأعطاهم النصر وسدد الصالحين منهم بالكرامة يسبحون الله على مضاجعهم ويكبرونه بأصوات مرتفعة، بأيديهم سيوف ذوات شفرتين، لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه، يوثقون ملوكهم بالقيود، وأشرافهم).

فلتخبرونى من هذه الأمم الذين لا يعبدونه؟ ومن المبعوث بالسيف من الأنبياء؟ ومن الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة فى الآذان؟؟.

وفى الزبور الذى بأيديكم فى صفة محمد ﷺ : (ويجوز من البحر إلى البحر، ومن منقطع الأنهار إلى منقطع الأنهار، وأنه يخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم، ويجلس أعداؤه بالتراب، ويأتيه ملوك بالقرابين، وتسجد له وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد لأنه يخلص المضطر البائس ممن أقوى منه، وينقذ الضعيف الذى لا ناصر له، ويرأف بالضعفاء والمساكين، وأنه يعطى من ذهب بلاد سبأ، ويصلى عليه فى كل وقت، ويدوم أمره إلى آخر الدهر).

وفى الزبور: أن الله (أظهر من صهيون إكليلاً محمودًا) فالإكليل ضرب مثلا للرئاسة، والمحمود هو محمد ﷺ.

وفى الزبور يقول الله تعالى لداود: (سيولد لك ولد أدعى له أبا ويدعى لى ابنا. فقال داود: اللهم ابعث جاعل السنة كى يعلم أنه بشر) فاعتبروا قول داود حين أفزعه ذلك وراعه فدعا إلى الله أن يبعث جاعل السنة كى يعلم الناس أن ذلك الولد إنما هو بشر، وكذلك لما دعوتم عيسى بن مريم ابنا لله ودعوتم الله أبا، بعث الله جاعل السنة كاشف الغمة الذى أعلم الناس أن عيسى بشر وليس بإله.

وكـذلك قـال المسيـح فى الإنجيـل الـذى بـأيـديكم : (اللهم ابعث الفارقليط[10] ليعلم الناس أن ابن الإنسان بشر).

وقال أيضا فى الإنجيـل الذى بـأيديكم : عن يـوحنا : (الفـار قليط لا يجيئكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه شيئًا، ولكنه مما يسمع يكلمكم ويسـوسكم بالحق ويخبـركم بالحوادث والغيوب)، إلى أن قال عنه : (وسيعظمنى. . .) وذكر كيف يقهر أصحاب الدنيا وتمادى على وصفه بكلام بين وقال : (هو يشهـد لى كما شهدت له، وأنا أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل).

وفى الإنجيل[11] الذى بـأيديكم أيضـا : عن يوحنـا أن المسيح قـال للحـواريين : (من أبغضنى فقـد أبغض الـرب، ولـولا أنى صنعت لهم بحضرتى صنائع لم يصنعها أحد لم يكن لهم ذنب، ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يغروننى، وأيضًا للرب، فلابد أن تتم الكلمة التى فى الناموس لأنهم أبغضونى مجانا فلقد جاء المنحمنا[12]، هو الذى يرسله الله إليكم من عند الرب، روح القسط فهو شهيد عـلى وأنتم أيضا لأنكم قـديمًا كنتم معى، هذا قولى لكم لكى لا تشكو إذا جاء).

يقال المنحمنا بلسان السريانية وتفسيره بالرومية الفار قليط وهو بالعربية محمد ﷺ.

وفى الإنـجيل[13] الذى بأيديكم أنه قال لليهود : (وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا لم تساعدهم على قتل الأنبياء، فأتموا كيد آبائكم باثعابين بنى الأفـاعى، كيف لكم والنجاة من عـذاب النـار، وسـأبعث لكم أنبيـاء وعلماء، وستقتلون منهم وتصلبون وتجلدون فى جماعتكم، وتطلبونهم من

---

(١٠) إشارة إلى اسم محمد ﷺ فى الإنجيل

(١١) إنجيل يوحنا ١٦/٧ - ١٥.

(١٢) من أسماء (محمد) فى الإنجيل.

(١٣) متى ٢٣/٣٠ - ٣٩.

مدينة إلى أخرى، لتتكامل عليكم دماء المؤمنين المهرقة على الأرض من دم هابيل الصالح إلى دم زكريا بن برخياء الذى قتلتموه عند المذبح آمين آمين، أقول إنه سيأتى جميع ما وصفت على هذه الأمة، يرشالم التى تقتل الأنبياء، وترجم من بعث إليك، قد أردت أن أجمع نبيك جمع الدجاجة فراريجها تحت جناحيها، وكرهت أنت ذلك، سأقفر عليكم بيتكم، وأنا أقول لكم لا ترونى الآن حتى يأتى من يقولون لكم، مبارك يأتى علم اسم الله).

فاعتبروا قوله هذا يا أولى الألباب، وآمنوا ببشارته بمحمد ﷺ، المنتقم بعده لدماء المسلمين.

وقوله : سأبعث أنبياء، فهذا تحريف منكم، وإنما قال : سيبعث الله أنبياء، فقد قدمنا فيما سبق أنه أنزل نفسه منزلة البشر لا منزلة الإله.

وأنتم تقولون أنه لا نبى بعد يحيى، وفى الإنجيل الذى بأيديكم : (إنما النبوءة والكتاب إلى يحيى ومن بعده يبشر بملك الله، ويؤخذ عنوة، فذهاب السماء والأرض أهون من إسقاط حرف من الكتاب) فانظروا قوله : **(ومن بعده يبشر بملك الله ويؤخذ عنوة)**، فهو إفصاح عن محمد ﷺ، وملك الله هو ملك رسوله ﷺ فى الأرض، الذى قهر الأجناس بالسيف، وقتل من قتل من اليهود وسائر الكفرة انتقامًا من الله إذا تكلمت عليهم دماء جميع أولئك المؤمنين.

وفى الإنجيل الذى بأيديكم عن متى[١٤] : أنه (لما حبس يحيى بن زكرياء بعث تلاميذه إلى المسيح، وقالوا له أنت إيل أو نتوقع غيرك؟ فأجابهم المسيح وقال : الحق اليقين أقول لكم، إنه لم يقم النساء على

---

(١٤) قارن بمتى ١١/٢ – ١٥ – ٦ وانظر سفر تثنية الاشتراع ٢/٣٣.

أفضل من يحيى بن زكرياء، وأن التوراة وكتب الأنبياء يتلو بعضها بعضا بالنبوءة حتى جاء يحيى، وأما الآن، فان شئتم فاقبلوا، **فان إيل مزمع أن يأتى)** فمن كانت له أذنان سامعتان فليسمع، فاعتبروا يا أيها القساوسة هذه البشارة فإن زعمتم أنه إنما بشر بإلياس النبى فهذا من مكابرتكم، لأن إلياس قد كان فى الدنيا وقد أرسله الله إلى قومه وكان من أمره ما كان، وصار إلى الله تعالى، وإنما قال المسيح إن إيل مزمع أن يأتى وإيل هو الله تعالى، فمجىء الله هو مجىء رسوله بكتابه، وأمره عما قال فى التوراة : جاء الله من سيناء، وكما قال : (وأقبل من فاران).

وفى الإنجيل[15] الذى بأيديكم عن المسيح أنه : (ضرب مثلا للدنيا فقال : مثل الدنيا كمثل رجل اغترس كرمًا وسيج حوله، وجعل فيه معصرة وشيد فيه قصرا ووكل به أعوانًا، وتغرب منه، فلما دنا أوان قطافه بعث عبيده إلى أعوانه الموكلين بالكرم، وضرب المسيح مثلاً للأنبياء ثم لنفسه فى كلام كثير (تعلمونه) ثم لمحمد ﷺ وجعله الموكل آخرا بالكرم، وأفصح عن أمة محمد ﷺ فقال : (أقول لكم أنه **سيزاح عنكم ملك الله وتعطاه الأمة المطيعة العاملة)**.

ثم ضرب مثلا صخرة وقال : (من سقط على هذه الصخرة سينكسر، ومن سقطت عليه يتهشم) يريد بذلك محمدا ﷺ، من ناوأه وحاربه أظهر الله محمدًا عليه.

وفى صحف أشعياء[16] النبى التى بأيديكم قال : **(ستمتلىء البادية والمدائن من قصور آل قيدار، يسبحون الله، ومن رءوس الجبال ينادون، هم الذين يجعلون لله الكرامة، ويبثون تسبيحه فى البر والبحر)**.

---

(١٥) انظر متى ٢١/٣٣ - ٣٤ ومرقس ١٢/١.
(١٦) قارن بأشعياء ٤٢/١١ - ١٢ - ٧.

وفى صحف حزقيال النبى يقول عن الله تعالى : (إنى مؤيد قيدار بالملائكة)، وقيدار ولد إسماعيل، فأى بادية أيها القساوسة هى البادية التى امتلأت من قصور آل قيدار؟ ومن هم أيها القساوسة الذين ينادون بالأذان والتلبية من رءوس الجبال، ويجعلون لله الكرامة بالصلاة والحج إلى بيت الله ؟

وقال أشعياء النبى عن الله[17] : (عبدى الذى سرت به نفسى، أنزل عليه وحيى فيظهر فى الأمم عدلى، يوصى الأمم بالوصايا، لا يضحك ولا يسمع صوته فى الأسواق، يفتح العيون والعور، ويسمع الآذان الصم، ويحيى القلوب الغلف، وما أعطيه لا أعطيه أحدًا غيره، أحمد يحمد الله حمدًا حديثًا يأتى من أقصى الأرض تفرح البرية وسكانها يهللون الله على كل شرف، ويكبرونه على كل رابية، لا يضعف ولا يغلب، ولا يميل إلى الهوى، ولا يسمع فى الأسواق صخبه ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة، بل يقوى الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذى لا يطفى ولا يخضع، حتى يثبت فى الأرض حجتى، وينقطع به العذر إلى توراته ينقاد للحق).

فهل تدبرتم أيها القساوسة هذا التصريح بمحمد ﷺ وبصفاته؟ ومن كم وجه يمتنع عليكم أن تدعوا فى هذا الكلام كله لغير محمد ﷺ؟ فمن وجه أنه يوصى الأمم. وقد كتب فى إنجيلكم الذى بين أيديكم أن المسيح قال : (إنى لم أبعث إلى الأجناس وإنما بعثت إلى الغنم الرابضة من نسل إسرائيل) فلا يجوز أن يكون أرسل للأمم جميعا غير محمد ﷺ.

وفى الإنجيل أيضًا أن المسيح قال للحواريين : (لا تسلكوا بى سبيل الأجناس ولكن اختصروا إلى الغنم الرابضة من نسل إسرائيل).

(١٧) قارن بنبوءة أشعياء ٤٢/١ - ٤.

ومن وجه ثان، قال أشعيا فى كلامه المتقدم أيضا: **(لا يضعف ولا يغلب)**. وأنتم تقولون: (إن المسيح غلب على نفسه وحمل خشبة وسمرت يداه فيها وقتل عليها)، فهل فى الضعف أكثر من هذا، وهل تنكرون أن الله قد فتح لمحمد ﷺ فتحًا مبينًا ونصره نصرًا عزيزًا وأظهره على كل عدو ومعاند، حتى أعطى دينه وأفشى توحيده؟

وفى صحف حيقون[18] نبىء التى بأيديكم: **(جاء الله من الجنوب، وتقدس من جبال فاران، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وتقديسه وملك الأرض بهيبته)**. وقال أيضا: **(تضىء لنوره الأرض وستنزع فى قسيك إغراقا، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء)**.

وفى صحف أشعياء النبىء[19]: (قيل لى قم ناظرًا فانظر فما ترى تخبر به، قلت أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار والآخر على جمل، يقول أحدهما لصاحبه سقطت بابل وأصنامها النخرة). فصاحب الجمل هو محمد ﷺ وصاحب الحمار باتفاق منى ومنكم هو عيسى عليه السلام، وإنما سقطت عبادة الأصنام ببابل من دون الله، وهدت أ ثانها بالنبى محمد ﷺ وأمته لا بعيسى ولا بغيره، فما زالت . ابل يعبدون الأوثان من لدن إبراهيم إلى زمان محمد ﷺ وأمته.

وفى صحف أشعيا أيضا[20]: **(لتفرح أرض البادية العطشى، ولتبتهج البرارى والفلوات لأنها ستعطى بأحمد محاسن اللسان، وكمثل حسن الدساكر والرياض)**، فاعتبروا أيها القساوسة من هذا الإفصاح باسمه ﷺ وصفة بلده.

وفى صحف أشعيا أيضا: **(أتت ام الافتقاد، أتت أيام الكمال)** ثم

---

(18) قارن بحبقوق ٣/٣.

(19) قارن بأشعيا ٦/٢١ - ٩ - ١٤

(20) قارن بأشعيا ١/٣٥ - ٢.

قال : (لتعلموا يا بنى إسرائيل الجاهلين أن الذى تسمونه ضالاً، هو صاحب النبوءة).

وفى صحف حزقيال[21] النبىء التى بأيديكم أيضا : يقول عن الله عز وجل بعد ما ذكر معاصى بنى إسرائيل وشبههم بكرمة غذاها وقال : (لم تلبث تلك الكرمة أن قلعت بالسخطة ورمى بها على الأرض، وأحرقت السمائم ثمارها، فعند ذلك غرس فى البدو وفى الأرض المهملة العظمى، وخرجت من أغصانها الفاضلة نار أكلت تلك، حتى لم يوجد فيها غصن قوى ولا قضيب).

فهل من بلد غير مكة كان أرضا مهملة بدوا عطشى من عهد إسماعيل؟ فاعتبروا يا أولى الأفهام.

وفى صحف دانيال النبىء : وقد نعت الكذابين وقال : (لا تمتد دعوتهم ولا يتم قربانهم وأقسم الرب بساعده ألا يظهر الباطل، ولا تقوم لداع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة).

فهل تعتبرون هذا الفضل؟ وهذه دعوة محمد ﷺ قائمة منذ مئين من السنين بل باقية إلى يوم القيامة؟.

وقال دانيال النبى[22] وقد سأله الملك بخت نصر عن منامة رآها وطلب أن يخبره بها ثم بتفسيرها فقال : (أيها الملك رأيت صنمًا بارع الجمال أعلاه من ذهب ووسطه من فضة وأسفله من نحاس، وساقاه من حديد ورجلاه من فخار، فبينما أنت تنظر إليه قد أعجبك، إذ دقه الله بحجر من السماء فضرب رأس الصنم فطحنه حتى اختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده

---

(٢١) انظر بنوءة حزقيال ١٩/١٠ - ١٤ - ٩.

(٢٢) قارن بدانيال ٢/٣١ - ٤٥ .

وفخاره ثم إن الحجر ربا وعظم حتى ملأ الأرض كلها. قال له بخت نصر: صدقت فأخبرنى بتأويلها.

فقال دانيال: أما الصنم فأمم مختلفة فى أول الزمان وفى وسطه وفى آخره، فالرأس من الذهب أنت أيها الملك، والفضة ابنك من بعدك، والنحاس الروم، والحديد الفرس، والفخار أمتان ضعيفتان تملكهما امرأتان باليمن والشام، والحجر دين نبىء، وملك أبدى يكون فى آخر **الزمان يغلب الأمم كلها ثم يعظم حتى يملك الأرض كلها كما ملأها ذلك الحجر).**

فأخبرونى ومعكم كبيركم: هل كان نبى غير محمد ﷺ، جمع الأجناس كلها على اختلافها واختلاف لغاتها ودياناتها وممالكها وبلادها، فجعلهم جنسًا واحدًا ولغة واحدة وأمة واحدة ومملكة واحدة ودينًا واحدًا؟ وهل عندكم من شك فى أن العرب والفرس والنبط والقبط والأكراد والترك والديلم والجيل والبربر ومن أسلم من الهند والسودان والروم وغيرهم على كثرتهم، كلهم ينطقون ويقرءون القرآن بلغة واحدة؟ أو عندكم من جدل حول أنهم أصبحوا بالإسلام أمة واحدة والحمد لله؟ فما لكم لا تنطقون؟ وهأنذا قد ذكرت لكم جملة من آيات سيد النبيين وخاتم المرسلين محمد ﷺ ومعجزاته، وكذا بشارات الأنبياء به، وما جبله الله عليه من الخلق العظيم والزهد فى الدنيا، والعلم والحكمة والبيان، والصفح والوفاء والسلام، ولين الخلق والرحمة والحلم، والتواضع لله والصبر والجود.

ثم هو ﷺ مكن الله له فى الأرض فملك الحجاز كلها، واليمن كلها، واليمامة كلها، وأقصى نجد إلى العراق، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى فيما أكل أهله.

وكان ﷺ بعد ما ملكه الله رقاب عباده، وأوطأ له فى الأرض، وأخضع

له الملوك، يؤاكل العبد واليتيم، ويحملهما كالأب الرحيم، ويركب دابته ويمشى فى الأسواق راكبًا وراجلاً، ويجلس على الأرض، ويأكل عليها، ويلبس العباءة، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ولم يشيد قصرًا ولا إيوانًا، وكان يجوع حتى يجعل الحجر على بطنه ويصلى الليل وطوله حتى تورمت قدماه، وإذا قام الليل فى الصلاة يسمع لصوته أزيز كأزيز المرجل من البكاء.

وكان أشد حياء من البكر، ولم يغضب قط، ولا أكل وحده، ولا ضرب عبده، ولا منع سائله رفده، ولا كشف بشرته، إلا ليقتص منه عكاشة بن محصن، وهو رجل من المسلمين طلب أن يقتص لنفسه من النبى ﷺ من شيء لم يتعمده، فلما كشف له الرسول صدره وبطنه ليأخذ منه حقه، ترامى عكاشة يحك خديه فى بطن النبى ﷺ وهو يبكى ويقول: والله ما أردت وأنا منصرف للجهاد إلاّ أن يكون آخر عهدى من الدنيا لمسى لجسد رسول الله ﷺ. وكان محمد يومئذ تهابه الملوك، وتروع منه الجبابرة، ولكنه لم يتأبى على أحد أن يقتص منه وكيف يتسع العمر لبيان فضله وكماله، وصدقه وخصاله، وهو سيد ولد آدم بما فيهم النبيين والمرسلين؟.

* * *

وانخرط الطبيب الشاب يبكى وهو يقول: أشهد ألاَّ إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله.. شهادة أنجو بها من عذاب النار يوم القيامة.. أما أنتم أيها الرهبان فإنى أدعوكم إلى الدخول فى هذا الدين الحق ﴿إن الدين عند الله الإسلام، ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾. صدق الله العظيم.

فلما رأى منه القساوسة ذلك تصايحوا بأنه مجنون مارق، خرج على دين

آبائه، وأنه لم يمنحهم فرصة لمجادلته بما لقنه المسلمون من حجج أفسدت عقيدته المسيحية، فضربوا الغد موعدًا لاجتماعهم فلا زال هناك مما طرحوه عليه قضايا لم يجبهم عنها.

وانصرفوا موطئين أعناقهم خاسرين.

اعتبروا أيها القساوسة

وفى صباح اليوم الثالث جاءوا، يسبقهم عزمهم على منافرته، وحماسهم لمجادلته، ومعاداته ومخاصمته، ورأى الطبيب الشاب منهم ذلك، فطلب منهم أن يبدءوا بطرح ما لديهم، فلما رأوا منه استعدادًا، أشفقوا أن يكون لديه كمينًا فكريًّا، ينزلقون إليه إن هم بدءوا، فقالوا فى صوت واحد :

بل لتبدأ أنت، فما زالت الأسئلة التى طرحناها عليك أول أمس غير تامة الإجابات . . . فاعتدل الطبيب الشاب فى جلسته، واستعان بالله عليهم واستعاذ به من الشيطان الرجيم. وقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم، وجَادِلْهم بالتى هى أحسن . . ثم قال :

– والآن أيها القساوسة والرهبان . . وقد ذكرنا بالأمس ما ذكرنا عن محمد ﷺ ومعجزاته وصفاته، فأخبرونى : إذا كفرتم به وبكتابه، وأنتم كذلك متخالفون مع اليهود فى أمر عيسى، فمن أين لكم ما قلتم به من فضائل ومعجزات لعيسى بن مريم؟ ومن نقل إليكم آياته ومعجزاته، وأنتم لم تخبروا عنها إلاّ بعد نيف على مائتين وعشرات من السنين؟ حين أخبرتم عن منامة رئيت، فأسرعتم إلى تصديقها، وأنتم لا تدرون هل كان موجودا فى العالم أو لم يكن، لا بتواتر ولا بغيره؟

فإذا أنكرتم القرآن، الذى حدثنا حديث الصدق من عند الله، عن عيسى وأمه ومعجزاته، فقد كان الأوْلى أن تنكروا ما جاء فيه، مما يخص مريم وابنها المسيح، وأن تنكروا وجود عيسى فى العالم، وإن ظهر لكم صواب قولكم بوجوده، وأنتم تكفرون بالقرآن، إذًا فلتقبلوا قول اليهود

فيه، لزعمكم أنهم كانوا رهطه، ولكونه منهم وفيهم، وأنتم تعلمون أيها القساوسة أن اليهود فيما بينهم متخالفون فى أمره، ثم أنتم مع اليهود أيضا متخالفون فى أمره . .

ولن أطيل فى شرح ما أنتم به عالمون حافظون، من أمر هذه الخلافات بينكم وبين بعضكم وبين اليهود بعضهم البعض، ثم بينكم وبين اليهود.

ولكنى أقول لكم : إنكم والحال كما ترون، إذا كفرتم بالقرآن فإنكم لا تحققون لعيسى بن مريم آية ولا فضيلة فإن أخباركم عنه وأخبار اليهود كما تعلمون لا تستحق أن يلتفت إليها، لعدم يقينكم جميعًا بجميع أموركم. واليهود أيضا كما تعلمون على كثرة تنازعهم فيه ليس منهم فرقة توافقكم فى شيء كذلك فإنكم على كثرة تنازعكم فيه، ليس فيكم فرقة توافقهم على شيء، فقد كان الأَوْلى بكم قبل التهجم على محمد وشريعته، وخلق الأكاذيب والافتراء عليه أن تتفكروا فى قول اليهود فى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، لتعلموا أن الشتائم والأكاذيب لا يرضى بها أحد من الناس إلا الأشرار، وأنها ليست من شيم الصلحاء والأخيار.

وشريعة الإسلام، عادلة الأحكام، صادقة الكلام، قد كشفت زيغكم وضلالكم وقول اليهود (ليست النصارى على شيء) وقولكم : (ليست اليهود على شيء)، فاستوجبتم لأنفسكم مع اليهود لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ذلك بأنكم حرفتم الكلم عن مواضعه، فيما تناقلتموه من التوراة والإنجيل والزبور وأخبار الأنبياء، إذ ظهر عتّوكم جميعًا، وكذبكم على الله وعلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فاستبان لكل ذى بصيرة سوء فعالكم.

فأنتم تقرون بتحريف التوراة إذ تقولون : إن التوراة إنما كانت طوال مدة ملك بنى إسرائيل عند الكاهن الأكبر الهارونى وحده، ولا ينكر ذلك

منكم ولا من اليهود أحد إلا من جاهر بباطل، واليهود أنفسهم يقرون أن السبعين كاهنًا اجتمعوا على اتفاق من جميعهم فى تبديل ثلاثة عشر حرفا من التوراة، وذلك بعد المسيح فى زمان القياصرة.

ومعلوم لكل ذى عقل أن من رضى تحريف موضع واحد من الكتاب المنزل من عند الله لا يؤمن منه الجرأة على تحريف كثير.

كذلك يقرون أن السامرية (فرقة منهم) حرفوا التوراة تحريفًا باقيًا، والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك من التحريف، وأنتم كذلك تدعون عليهم أنهم حرفوا التاريخ فى التوراة، فتزعمون أنهم أنقصوا من تاريخ آدم عليه السلام ألف سنة ونحو المائتين من السنين.

أما عن الإنجيل الذى هو بأيديكم، فإنما هو كتب (مواعظ) أربعة مختلفة، من تأليف أربعة رجال هم يوحنا بن زبدى، ومتى، ومرقس تلميذ بيطرة، ولوقا، فأمكن فى كل ذلك التبديل، وعلى ما فيها جميعها من اختلال وتحريف أشير لكم عساكم تنتبهوا إلى فحش ما فيها:

ففى التوراة (أن لوط النبىء عليه السلام خرج من سفره وسكن فى كهف الجبل ومعه ابنتاه فقالت الصغرى للكبرى: قد شاخ أبونا فارقدى بنا معه لتأخذ منه نسلاً، فرقدت معه الصغرى، ثم الكبرى، ثم فعلتا فى الليلة الثانية، وحملتا منه بولدين مواب وعمون).

فهل ترون حسنا أن يكون لوط نبيئا من الأنبياء ورسولاً، يوقعه الله فى مثل هذه الفاحشة النكراء؟

وفى التوراة أيضا: (لما سكن يعقوب بذلك الموضع مشى ابنه رأوبين، وهو أكبر أولاده فضاجع سرية أبيه يعقوب)، هذا لفظ التوراة، ثم قال فيها: (ولما علم بذلك يعقوب قال لابنه: سلكت على وجهك كالماء فلذلك لم أفضلك بالسهم الزائد حيث استهنت فراشى) وتفسير هذا كما

تعلمون أن سنة الميراث كانت عندهم أن يرث الولد الأكبر سهمين وسائر الأولاد سهمًا واحدًا فعاقب يعقوب ابنه رأوبين على فعله المذكور بأن لم يفضله فى الميراث.

وفى التوراة أيضا أن (يهوذا بن يعقوب زنى بكنته ثامارا امرأة ولديه، وقد هلكا عنها واحدًا بعد واحد، فردها يهوذا إلى بيت أبيها ووعدها بتزويج ولده الثالث المسمى شيلة إذا كبر، ثم إنها تصدت ليهوذا فى طريق غنمه، وتسترت جهدها، فظنها بغيًا، فعدل إليها ودعاها إلى نفسه، فسألته أجرًا فوعدها بجدى من غنمه، فطلبت منه رهنًا، فأعطاها خاتمه ومنديله وعصاه، وواقعها بزعم اليهود فحملت منه، ثم إن يهوذا أرسل بالجدى، ليطلب رهنه فلم توجد المرأة، فجاء إلى القرية وقال لأهلها: أين قحباؤكم المتطلّبة على الطريق؟ فقالوا: ما كان منا على الطريق قحباء. ثم إنه قيل له بعد حين إن كنتك ثامارا حبلى، فقال: تحرق بالنار، فأخرجت لتحرق، فقالت: أنا حبلى منه وهذا رهنه بيدى حين زنى بى ليفكه بجدى من غنمه، فلما رأى يهوذا الرهن، فكّر ثم قال: هى أصدق منى).

هذا كله فى التوراة التى بأيديكم اليوم.. فما قولكم فيه نفيًا أوْ إثْباتًا؟

وفى التوراة أيضًا عن (دنية بنت يعقوب أنها خرجت لأمر موصوف فيها فرآها شكيم بن حمور الحوى رئيس ذلك الموضع فاغتصبها)، هذا ما جاء فى التوراة وأنا أسألكم ما بال كتبكم تفوح منها رائحة الزنى فى كل سفر، وأى فائدة فى نزول هذا الحديث البشيع من السماء على موسى بالطور؟ وإنا لنرى دينة وإخوتها الأسباط وأباها يعقوب أكرم على الله من أن يجرى هذا عليهم، وهم أهل البيت الذين نزل القرآن بتطهيرهم؟

وفى التوراة أيضا عن إبراهيم عليه السلام: (أنه كان يومًا قاعدًا عند باب فسطاط له، وأبصر ثلاثة رجال واقفين منه على مقربة، فجرى إليهم

وقال : يا سادتى إن كنت راضيا عنى فلا تخلف عبدك حتى أسوق ماء، تغسلون به أرجلكم وتستريحون تحت هذه الشجرة، وأقدم إليكم كسرة تقوون بها قلوبكم، وبعد ذلك تذهبون).

فأخبرونى كيف يستجيز إبراهيم أن يقول على الله : يغسل رجليه ويقوى قلبه بكسرة، وهذا هو دليلكم على التثليث لمخاطبة الثلاثة مخاطبة رجل واحد، وقد أنبأنا القرآن الكريم الحكيم أن أضياف إبراهيم الذين أتوه تحت العفصة إنما كانوا ملائكة ؟

وفى التوراة : (إن موسى تجلى الله له فى سيناء وقال كلامًا كثيرًا إلى قوله : قال الله لموسى : أنا هو الذى أدخل يدك فى جيبك، وأخرجها مبروصة كالثلج).

فأى آية أيها القساوسة فى أن يخرجها مبروصة ؟ وتعالوا لننظر قوله تعالى فى كتابه الحكيم : ﴿أدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾. دلونى أى القولين أوْلَى أن يكون آية ؟

وفى التوراة عن اللوحين (أنهما منقوشان بأصبع الله)، والله تبارك وتعالى أخبرنا فى محكم كتابه فقال : ﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء﴾ فأىّ القولين أوْلى أن يكون كلام الله عز وجل ؟

وفى التوراة : (سخط الله على الأمة بسبب العجل الذى عمل لهم هارون)، فكيف ينبغى لهارون أن يكون الله قد بعثه وارتضاه نبيئا مُعينًا لأخيه موسى ثم يعمل لهم العجل بيده.

وفى التوراة (أن إسحق هو الذبيح) وإنما الذبيح إسماعيل، لكن عنادكم يرفض كل دليل.

وفى التوراة أيضا : (ورأى الله أن قد كثر فساد الآدميين فى الأرض فندم على خلقهم. وقال : سأذهب الآدمى الذى خلقت على الأرض والخشاش

وطيور السماء، إنى نادم على خلقها جدًّا)، هكذا فى سفر التكوين.

، وفى التـوراة : (أن الحنش أغوى حـواء فى أكل الشجـرة فقال الله : سأجعل العداوة بين نسلك ونسلها، وترصد أنت أبدًا عراقيبها، وترصد أبدًا رأسك لتفضحه) والله تبارك وتعـالى يذكـر فى القرآن معنى آخـر : ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾. فلتعتبروا . .

وفى التوراة : (أن موسى أمرهم بأخذ أموال جيرانهم من أهل مصر عن طريق الإعارة ثم قال لهم : يقول لكم الله : اهربوا لهم بها، ففعلوا وقالوا هى أجرة سخرتنا). والله تعالى يأمر محمدًا حين خـرج بالمهـاجرين من مكة : أن تؤدى كل أمانة إلى أهلها وأنزل فى كتابه :

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . . .﴾.

وفى التوراة أيضا : (لا ترب على أخيك ربًا بفضة، ولا ربًا بـطعام، ولا ربًا من جميع الأشياء كلها) ثم فيها بعد ذلك : (على الأجنبى فارب، على أخيك لا ترب لأجل أن يباركك الرب إلهك).

وبهذه الآيات استحلوا فى الأمم الربا والسرقة والكذب والفسق. . وهو ما يؤكده آخر السورة فى هذا القول : لا تسرقوا ولا تكذبوا ولا يفجر المرء (بأخيه)، وفسروا ذلك بأنه من حق اليهود وحدهم أما من عداهم من الأمم فمباح.

وفى التوراة أيضا : (**أن الله تصارع مع يعقوب فضرب به يعقوب**). **تعالى الله سبحانه عما يقولون، وفى التوراة (أن بنى إسرائيل يسكنون تلك الأرض إلى الانقراض)، لكننا رأيناهم يخرجون منها.**

وفى التوراة أيضا أن الله قال لهم : (اضربوا القرن فى عسكركم قليلاً حتى يلقوا عدوهم، فحينئذ ضربونه بأشد ما يقدرون عليه ليسمعهم الله

فيؤيدهم على عدوهم) وكأن الله تعالى لا يسمع إلا الأصوات العالية. والله تعالى يقول فى القرآن: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يسمع السر وأخفى﴾.

وفى التوراة أيضا: (إن الله كـالإنسان شخص وجـوارح، كشخصه وجوارحه)، وقد وصف الله سبحانه نفسه فى القرآن فقال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وقد تممت النصارى هذا القول المكتوب فى التوراة وزادت فيه كفرا على اليهود حيث تقرأ فى صلواتها عن يوحنا الحوارى، وكلامه عندهم كلام الله تعالى: فيقول بزعمهم (إنه حين عرج به إلى السماء رأى الله سبحانه وهو شيخ أبيض الرأس واللحية ورجلاه من لاطون، والأسواق بين يديه قائمة، والنداء على القمح والشعير والزيت والخبز، كذا كذا قفيزا بدينار، كذا وكذا قسطا بدينار).. تعالى الله عما تصفون.

وفى التوراة أيضا: (أن الله حين أمر بنى إسرائيل بالتوجه إلى الشام وعدهم أن يتوجه معهم وأمرهم أن يعملوا له قبة على صفة كذا، ينزل فيها فى سيره معهم، ثم إن موسى قال له يارب: إن هذه الأمة القاسية رقابها، لا تمضى لك إلى الشام حتى تمضى معها كما وعدتها فقال الله: نعم اعملوا لى القبة، فعمل موسى القبة وسماها قبة العهد، ونزل الله من عرشه وسار معهم داخل القبة ينزل بنزولهم، ويرحل برحيلهم).

فتأملوا معى أيها العقلاء هذه النصوص التى تؤمنون بها، وتكذبـون القرآن.

وعندهم أيضا من بقية هذا الخبر أنهم: (لما جمعوا المال لعمارة هذه القبة أجروا إنفاقه على يدى موسى عليه السلام، فلما أكمل عملها ادعوا عليه أن قد نقصهم من ذلك ألف رطل وسبعمائة رطل وخمسة وسبعين رطلا، وقالوا لموسى تَشْرِيقًا له: أين نقص هذا المال؟ وإنما جرى الإنفاق

على يديك، فسمعوا صوتًا من السماء يقول لهم، إن هذا العدد دخل فى رؤوس الأعمدة وفى التغشية، وحينئذ كفوا) . .

وفى التوراة أيضا عن نوح عليه السلام أنه رقد أولاده معه، فانكشفت عورته فضحك ابنه حام من ذلك، فجاء ابنه الآخر سام وألقى قفاه إلى جهة عورة أبيه، يمشى وراءه حتى غطاه، واستيقظ نوح ودعا على حام، وقال : سيسودّ لوْنك، وتكون أولادك عبيدًا لأخيك. إلى غير ذلك من أحاديث العورات مما يسر الصبيان والعجائز.

وفى التوراة أيضا عن موسى أنه قال لبنى إسرائيل فى الوصية التى وصاهم بها : (إن كفرت بربك وحدت عن سبيله وعبدت الآلهة الأجنبية يبتليك الله بدواهى مصر، ويضرب الجزء من جسدك الذى يصدر عنه الزبل بالجرب والحكاك الذى لا دواء له، وتزوج زوجا ويضاجعها غيرك). وكثير وكثير من هذه القبائح فى كتبكم مما تكذبون به على الله .

وفى سفر ملاخيم : (أن داود عليه السلام اطلع من قصره فرأى امرأة من نساء المؤمنين تغتسل فى دارها فعشقها، وبعث فيها وحبسها أياما حتى حملت منه، ثم ردها، وكان زوجها يسمى أوريا غائبا فى العسكر، ولما علمت المرأة بالحمل أرسلت به إلى داود، فبعث داود إلى مؤاب ابن صروفا قائده على ذلك العسكر، فأمره أن يبعث إليه بأوريا زوج المرأة فجاء وصنع له طعامًا وخمرًا حتى سكر، وأمره بالانصراف إلى أهله ليواقعها، فينسب الحمل إليه، ففهم الأمر أوريا وتخابث عليه، فلم يمش إلى أهله وقال حاشا لله أن يكون الملك هنا دون أهل وأمشى إلى أهلى، فلما يئس داود منه، رده إلى العسكر وكتب إلى القائد أن يصدر به القتال مستقتلا له، فقتل أوريا، وقتل معه من المؤمنين سبعة آلاف. وفزع القائد من داود لقتل ذلك العدد العظيم من المؤمنين، وقال للرسول : إذا أنت أخبرت الملك داود بقتل

الناس ورأيته قد غضب قل له سريعًا إن أوريا قتل فيهم، ففعل الرسول، وسكن داود بعد الغضب، وسر بموت أوريا، وهانت عليه من أجل موته دماء المؤمنين).

فاعتبروا أيها القساوسة بما أذكره لكم مما هو فى كتبكم من الترهات والبلاهات، وأخبرونى، هل توصف فروج المجوس وقلوب الشياطين بأبشع وأشنع مما وصف به داود عليه السلام؟

وفى هذا السفر أيضا: (أن أمنون بن داود عشق أخته تامار بنت داود، وتمارض فعاده أبوه فتمنى عليه طعامًا تطعمه أخته إياه، فبعث بها داود إليه، فلما قربت إليه الطعام وضع فيها يده وافتضها، فخرجت باكية فلقيها أخوها الآخر شقيقة أبشالوم، فأخبرته، فهون عليها ثم بعد أيام وثب على أمنون فقتله من أجل ذلك).

وكتبوا أيضًا فى سفر ملاخيم: (أن أبشالوم بن داود نافق على أبيه وأخرجه من قصره، ودخل إلى نسائه فوطئهن كلهن على أعين بنى إسرائيل استبلاغا فى الانتقام من أبيه). وفى هذا السفر أيضًا عن سليمان بن داود (أنه ختم عمره بعبادة الأصنام والسحر وسبت نساؤه دينه).

فمن الأشياء العجيبة أيها القساوسة أنكم تقولون بالتوراة التى بأيدى اليهود اليوم حرفا حرفا، وتدعون الإيمان بها، وتعيبوننى لمخالفتها، وقد خالفتموها فى كتابكم بصرف حلالها حرامًا، وسَبْتها أحدًا، وختانها تغطيسًا.

وإن من أعجب الأشياء تمويها: دعواكم الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام، مع أنهم موحدون وأنتم تشركون بالخالق إنسانًا، والأنبياء كانوا مختتنين وكذلك الحواريون الاثنى عشر، وسائر التلاميذ الذين صحبوه، لكنكم تركتم ذلك وتبعتم ما اختلقه قسطنطين بعد المسيح بنحو مائتى سنة

وثلاث وثلاثين سَنَة من أن يحيى بن زكريا سن التفطيس وغطس المسيح، وكتب ذلك فى أناجيلكم وجىء عليه من التحامل وغث الأقاويل بما يطول وصفه، فكيف يرغب يحيى والمسيح عن شريعة شرعها إبراهيم وسنة سنها فى نفسه وولده ثم أقرتها التوراة واقتفتها الأنبياء عليهم السلام ؟.

وإنه لعجيب، ادعائكم الإيمان بالتوراة التى بأيدى اليهود اليوم حرفًا حرفًا، ثم نرى فى كتب أساقفتكم من صب اللعنات عليها، ووصفها بأشنع الصفات، وأبشع النعوت، ما تتأذى له العيون والآذان، كوصف أحد بطاريقكم لها فى كتابه ينتقص موسى، باتخاذه المرأة السوداء، وذكر التوراة فقال عنها : العجوز القبطية المتمزقة، الفرج القحباء، التى أعارت فرجها لخلانها البلشتيم ذوى الفعلات الحمارية، ثم لا يذكر التوراة فى سطر من كتابه، إلا أعاد عليها هذه النعوت القبيحة، وذكر هذه المعاير والنقائص.

فإذا كان هذا حال توراتكم وأناجيلكم - كما سبق الحديث عنها - وسائر الصحف المنزلة عند اليهود، أئمتكم وعمد ملتكم، ولا محالة أن هذه الكتب قطب شرائعكم وأصل دياناتكم، فكيف حال سائر أحاديثكم مما تناقلتموه بينكم من الآثار؟ وكيف يلتفت إلى قولكم عن مريم أم المسيح أنها ابنة يعقيم، تضاهون بذلك قولكم فى ابنها، حين اختلفتم فيه وفى خطيب أمه يوسف، فبعضكم قال : يوسف بن إلى، وبعضكم قال : يوسف بن يعقوب، واليهود قالت : يوسف بن يهوذا، وبعضكم قال : يوسف النجار، ومثل هذا علمكم بمريم وابنها.

***

والآن أخبرونى أيها القساوسة :

من أين حصل لكم العلم بالمسيح وأمه؟ وإن قسطنطين بن هلانى

الذى تعبدكم به وذَكَره لكم، لم يكن يعلم ما معنى مسيح ولا ما هو، وإنما جعله فى ذلك نفرًا من أحبار اليهود كما تعلمون - وهم نفر لا خلاق لهم على ما سبق القول.

ثم فهمتم جهلاً، ونطقتم كفرًا، بتأويلكم آيات القرآن زورًا، فمن أين نسب إلينا اعتقاد أن أم المسيح أختًا لموسى وهارون، وما عندنا ريب فى أن أم المسيح إنما هى مريم ابنة عمران، بن ماتان، بن صادق، بن العازر، بن اليوت، بن سال، بن عازور، بن الليهيم، بن عيود، بن زريايل، بن يوحنا، بن يوشا، بن آنون، بن مشيا، بن حزقيال، بن أحريا، بن فارض، بن يهوذا، بن يعقوب، بن إسحاق، بن إبراهيم عليهم السلام.

ومن عجيب كذبهم ادعاؤهم أن خطيبها المذكور يوسف الذى اختلفوا فيه من قبل، يجتمع نسبه معها فى منتان وهذا باطل، إذ لا اجتماع لها به إلا فى يهوذا بن يعقوب.

وأما مريم الأخرى : التى هى أخت موسى وهارون فهى ابنة عمران بن ناهوت، بن لاوى، بن يعقوب، بن إسحاق عليهم السلام. وأم المسيح من سبط يهوذا، وهذه لم تدخل خط بيت المقدس، وإنما خرجت مع أخيها من مصر، وماتت بالشراة، وهى عند اليهود نبية بنص التوراة.

وأم المسيح عندهم ملومة مقذوفة بالسوء.. فهل أنتم واعون لما فيه تخلطون ؟؟

وأما ما سمعتموه فى كتابنا من قول اليهود لأم المسيح : **﴿يا أخت** هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيًّا﴾ فإن قولهم ذلك على وجه السب لها، لأن هارون هذا عنوا به رجلاً عاهرًا يستكثر من البغايا، عظيم الشهوة عندهم فى ذلك الزمان يسمى هارون، وأما أن يكون هارون

فى هذه الآية كما زعمتم علينا، فذلك غاية الجهل، لأن الذى بينهما من الزمان ألف سنة وستمائة سنة وزهاء أربعين سنة، فكيف يجوز أن يتوهم أحد هذا إلا جاهلاً؟

وأما استدلالكم على باطلنا بما فى (القرآن) من نكاح مثنى وثلاث ورباع، فحسبى هذا الاستدلال شهيدًا على تخلفكم عن الفهم.

فإن الذى أمرنا الله به فى النكاح، وسنه لنا فى الطلاق ليس لعاقل انتقاده، لأن قبولنا لذلك وما أشبهه، إنما هو بعد ثبوت الأصل، وإنما الأصل أن نتحقق نبوءة الشارع، ونتبين صدق رسالته بشواهد آياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة، فإذا أردتم النظر إلى هذه الفروع بانتقاد فهلمَّ أريكم عجبًا:

ألستم اتفقتم معنا أن نكاح الرجل عمته من سوء الأفعال.. فانظروا فى كتبكم تجدون يخابذ أم موسى كانت عمة والده عمران، وعمران من فضلاء المؤمنين،.. ثم ألستم اتفقتم معنا على أن الجمع بين الأختين شريعة قبيحة،، فانظروا فى كتبكم تجدون إسرائيل جمع بينهما.

فهل أنتم راضون عما فى كتابكم، من سوءات، ساخطين على ما فى كتب غيركم من تشريعات لها براهين وحسنات؟ ووالله إن حكمة تعدد الزوجات لم تقل بجمع بين أختين ولا نكاح العمات والخالات والجدات وغيرهن من المحرمات، ولكن عميت القلوب والأبصار.. كذلك فإن الطلاق فى شريعة محمد ليس سهلاً مباحًا، بل هو أبغض الحلال عند الله. ولكنكم تأولتم عن جهالة، ونقدتم عن ضلالة. فرأيتم القبيح محل الجميل وما أدركتم من حكمة شريعة محمد حتى أدنى القليل.

أما ما أوصيتمونى به منكرا فجهل قد استولى عليكم، والله يهديكم ويرشدكم، ولوكان الأمر كما رغبتم بالاقتداء بآدم فى تزوجه بامرأة

واحدة، فقد كان أولى بذلك إبراهيم الخليل الذى تزوج وتسرى معًا، ولـوط عليه السـلام الذى زعمتم أنـه فتك بـابنتيه فحملتـا منه بمـواب وعمون - أستغفر الله من قولكم.

ثم إسرائيل قد كان عنده عدة أزواج جمع فيها بين الأختين، وهذا كله منصوص عندكم فى التوراة، وكذلك من بعدهم من الأنبياء إلى داود، وسليمان قد علمتم مناكحهما، ولكنى أقول لكم إن آدم ما تـزوج امرأة واحدة إلا مع ضرورة العدم عند بدء البشر، وهى الضرورة التى جعلته يزوج ابنه ابنته، فإذا كنتم مقدرين آدم ومقتدين به فلماذا لا ينكح الرجل منكم أخته، وليتزوج الواحد أو الواحدة منكم بنت الأخ وبنت الأخت، فهما من حلال الشرائع التى جاءت فى كتبكم، التى تؤمنون بها حرفًا حرفًا. أم أنكم تأنفون من ذلك كما أنف أتباع شريعة محمد؟ فإذا كنتم كذلك، فلماذا لم تأنفوا الخنزير والدم والشحم، وهى من محرمات هذه الشرائع؟ أم أنكم لا تعملون العقل بقدر ما يعمل فيكم الهوى؟

وعجبى من تعجبكم إذ رأيتم فى القرآن فى آية القتال: ﴿وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن﴾. وقولكم: إن فى التوراة نقيض ذلك، فى قـولكم: (لا يكون قتـال بين بنى آدم، والقـاتل والمقتـول فى النـار) فأخبرونى إذًا: كيف استجاز موسى عليه السلام بعد ما أنـزل الله عليه هذا، أن يحارب أعداءه من أهل مـدين، والعماليق، بـل ويطلبهم فى ديارهم ويناوشهم فيها؟ وأنتم تعلمون أن مدين قد آوته مدة عندها، فهى تستحق منه الجزاء الجميل، بقياس البشر، لكن موسى نبىء الله لم يأت مطيعًا لربه داعيًا إليه، لا يمكنه خلافه، أما أنتم فقد جعلتموه عاص له غير مطيع لأمره.

ثم قلتم إن النسخ مقدمة من مقدمات شريعة الإسلام، وأنتم تعيبونه

منكرين للنسخ، وكأنه غير معروف فى سبل الأنبياء عليهم السلام، ولا معمول عليه فى محلها ولا منصوص فى التوراة وسائر الكتب التى فى أيديكم.

ففى التوراة التى بأيديكم وأيدى اليهود ما فيها من ذكر السبت وتحريم العمل فيه، والحروب وغير ذلك من الأشغال، والسبت أوكد فروض التوراة وأهم لوازمها، ثم جاء فى آخر التوراة لهارون: (فى يوم السبت تذبح كبشين اثنين ابنى سنة كاملة. ومكيالى سميد يعجن بالزيت). وهذا عمل طائل وشغل ممتد، من ذبح وسلخ وتفصيل، وعجن السميد، وتقريصه بعد اللت بالزيت.

وفى التوراة أيضًا: (يأمرهم بطاعة يوشع، ثم يأمر يوشع بمحاربة أريحا فى جميع الأيام المتصلة)، وأمره بتضعيف المحاربة يوم السبت، وأن يتسور فيه على أريحا مع الأئمة وسائر العسكر سبع مرات بأشد المحاربة، فقال فى نص التوراة: (ويحيطون بالمدينة للقتال يوم السبت، ويتسورون عليها مرة واحدة، يصنعون ذلك فى الستة أيام، ويحمل سبعة أئمة سبعة أبواق والشمع بين يدى الصندوق، وفى اليوم السابع يحيطون بالمدينة سبع مرات، والأئمة يضربون الأبواق..).

فهل لكم الآن أن تعتبروا ما فى التوراة من الناسخ والمنسوخ وهو أوضح من الصبح لكل ذى عينين؟

ثم أخبرونى: إن كان النسخ منكرًا قبل نزول القرآن، فكيف جاز لكم أن تصرفوا الختان تغطيسًا، والسبت أحدًا وهما من فروض التوراة؟ ولم حرمتم حلالها وأحللتم حرامها فيما تقدم حديثى عنه معكم؟ وبم يقول المسيح فى الإنجيل الذى بأيديكم معرضا بما قالت التوراة:

(أما علمتم أنه قيل للقدماء من قبلكم: من طلق امرأته فليكتب لها

كتاب طلاق، وأنا أقول لكم من طلق منكم امرأته إلا للزنى، فقد جعل لها سبيلا إلى الزنى، ومن تزوج مطلقة فهو فاسق، أما بلغكم أنه قيل للأولين كذا، وأنا أقول لكم كذا . .).

وذكر جملا من الأمر والنهى ينسخ فيها حكم التوراة.

فأخبرونى : كيف جاز لكم مع هذا أن تقولوا : إن شريعة الإنجيل ليست ناسخة لما شرعت التوراة، وإنما هى متممة لها؟ هذا تنكيس بالألفاظ عن موضوعها، أن تسموا التبديل تتميمًا وهل التتميم إلا استيفاء الشيء وإحكامه مع إقراره على ما كان عليه، وأما الإنجيل فأذهب حكم التوراة ونسخها كما نسخ القرمن ما قبله.

وأما قولكم لى أن فى ملتكم صالحين يظهرون براهين وقت الحاجة إليها. فنعم. هى براهين ساطعة قد علمتها سرًّا وجهرًا حين كنت واحدًا منكم، وأنا أذكر لكم الآن منها ما يسر إذ تسلسل لى القول إلى ذلك ولقد أربأ بنفسى عن ذكرها.

فمنها : ما وصف لى عن بعض مشاهدها المعظمة عندكم . . أن يد الله تخرج لكم فيها فى يوم واحد من السنة من وراء ستر ولا خفاء لديكم بهذا، فحكى من أثق قريحته : أن رجلاً من اليهود كان قد حظى عند بعض رؤسائكم بالأندلس بوصلة كانت بينهما يرعاها الرئيس له، فكان قدر أمه يومًا عن الخروج عن دين اليهودية إلى دينه، وقال له : ألا ترى هذه الأعجوبة . . ظهور يد الله لنا فى يوم معلوم من السنة؟ فقال له اليهودى : يا مولاى أنا قد رضيت فى هذا الأمر بشهادتك، وصدقتك عليه فابحث عنه، فإن كان ما يزعم هؤلاء القسيسون حقًّا، صبوت إلى دينك، فخالط الرئيس الشك، فلما دنا ذلك اليوم الذى تظهر فيه يد الله، سافر بجملته نحو المشهد، وقرب ما لا يهديه هناك، فبدر إليه الأساقفة، وقربوه لتقبيل

اليد، فلما ظهرت اليد له من وراء الستر، وضع يده فيها، فصاحوا بـه يقولون : اتق الله، الآن تخسف بك الأرض، والآن تقع عليك السماء، الآن ترسل عليك الصواعق. فقال : دعوا عنكم هذا كله، فإن هذه اليد لا أحل يدى عنها، حتى أعلم أحقًّا ما تصنعون فيها أم باطلا، فلما رأوا إلْحَاحه لم يبق منهم إلا اثنان أسرا إليه القول، وقالا : ما تبغى فى ذلك، أصبوت عن دين آبائك؟ قال : لا. قالا : أتريد أن تحل ربطًا ربط منذ ألف سنة أو نحوها؟ قال : لا. ومعاذ الله، ولكنى أريد أن أقف على سر هذه اليد. قالا : هى يد أسقف واقف خلف هذا الستر. قال : أحب أن أراه. قالا : أنت وذلك. فكشفا له عن قس مجرود الخدين، موقوف وراء ستر، فلما عاينه الرئيس أرسـل يده، وخـرج إلى عسكـره. فقـال لـه اليهودى : يا مولاى : ما تأمرنى به فى دينى؟ قال له : رأيك خرجت منه أو فلا خرجت. ففهم اليهودى وسكت.

وكذلك وصف لى عن صليب فى بعض مشاهدكم المعظمة عندكم يمشى إليـه الناس ليتعجبـوا منه وهـو واقف بين السـماء والأرض، وأن أحـد رؤسائكم سأل عن ذلك يهوديًّا كان كاتبا له، فأعلمه بعد ما استوثق منه أنها حيلة منه، فاستكشفه إياها فتفطن اليهودى أن ذلك الصليب تمسكه أحجار المغناطيس من جهاته الأربع، فأمر الرئيس أن يخلى له يوما ذلك المشهد فدخله وحده، وأمر بحفر جانب واحد من الحائط فاستخرج منه حجرا من المغناطيس موازيا للصليب، فمال إلى جهة واحدة واستخرج مثله من الجانب الثانى فاضطرب الصليب، وفهم الرئيس وانصرف عنه فما رؤى بعد ذلك.

وكذلك وصف لى عن كنيسة الغراب بغرب الأندلس، أنه كان فيها ثُرَيًّا تقف على نحو وقوف الصليب المتقدم ذكره، وينزل فيها نور يـوقد

ذبالها فى يوم من السنة، فذكر ذلك لأحد أمراء بنى أمية بالأندلس فعجب من ذلك وسأل عنه، فأخبره رجل من أهل إفريقية أنهم مدوا مع الحائط قصبة حديد، ضيق جوفها، وأبرزوا لها أنبوبا كسم الخياط موضعه موزون مع طرف زبال الثريا، ثم إنهم ذلك اليوم يرسلون نار النفط فى القصبة متراكمًا حتى يخرج فى غاية القوة إلى ذبال الثريا الذى هو فى زنة واحدة معه.. والباقى من القصة تعلمونه مثلما أعلمه.

وكمثل ما تصفون لنا عن نزول مريم من السماء على (دون أذفونش) المطران بجامع طليطلة، وكست رأسه بتحلية وجسمه بثياب مزينة، وذلك فى ليلة النصف من شهر أغشت، فتعظمون تلك الليلة تعظيمًا شنيعا إلى اليوم.

فأخبرونى إذًا عن نزولها الذى تصفون: هل كان بإذن من زوجها أو بغير إذنه؟

فإن قلتم بإذنه فكيف يجوز عليه أن يترك ملائكته وعبيده، فيمتهن زوجته وأم ولده كما تقولون بإرسالها؟ وإن كان نزولها باختيار منها، لا بإذن زوجها، فكيف ينبغى أن يكون الله قد اصطفاها، واختارها زوجة له وأم ولده، من بين نساء بنى آدم، فتخونه وتنزل بغير إذن زوجها إلى رجل من جنسها بكسوة وتحلية وثياب مزينة؟ إلا إذا كانت تعشقه. معاذ الله.

وكمثل ما تدعون فى زيتونة وادى أش، وتزعمون فى وادى بسطة، والنور الجديد فى عيدكم، والنور الذى ينزل ببيت المقدس، إلى غير ذلك من المخاريق، التى لا تجوز إلا عليكم ولا يتعبد بها سواكم، فالحمد لله الذى طهّر الإسلام من هذه النقائص.

ولكن تعالوا أيها القساوسة إلىّ أسألكم فأقول: وحتى على رغم صدقكم فى خرافاتكم فأين هى من عجيب الحقائق، وواضح الدقائق،

التى ضرب الله بها مثلا للهداية إليه، ومعرفة سبيله، وأنتم جميعًا تعلمون واقعة أبرهة الحبشى وجيشه وفيله، الذين استهدفوا هدم الكعبة أو نقلها، فأهلكهم الله بطير أبابيل، ونزل فى ذلك قرآنًا باقيًا: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ ألم يجعل كيدهم فى تضليل؟ وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾؟.

أخبرونى لم فعل الله ذلك وقد كان النجاشى وجيشه يومئذ نصارى على حين كان أهل مكة عبدة أوثان؟ بل لماذا حدث ذلك والكعبة يومئذ مقر الأوثان والأصنام؟ وهل كان ذلك إلا آية للوليد محمد ﷺ منَّ الله بها عليه وعلى آله؟ ولكعبة الله الحرام مقام إبراهيم؟ وما رأيكم فى تأكيد هذه المعانى بآيات مما تحفظون وتقرءون فى كتبكم:

يقول أشعياء: (أبشرى واهتزى أيتها العاقر التى لم تلد، وأنقى بالتسبيح وافرحى، إذ لم تحبلى، فإن أهلك سيكونون أكثر من أهلى)، فهو قد شبه مكة بالعاقر من النساء التى لم تلد نبيًا منذ زمان إسماعيل حتى بعث محمد ﷺ، وهو يقصد مكة لا بيت المقدس. لأن الأخيرة لم تكن عاقرًا بل كانت مقر الأنبياء، كما عنى بالأهل الذين سيكونون أكثر من أهله: أمة محمد التى ستكون أكثر من أمة بيت المقدس.

كذلك قال أشعياء فى صحفه التى بين أيديكم: (وأرفع علمًا لجميع الأمم من بعيد، فيصرفهم من أقاصى الأرض).

وقال أشعياء أيضًا: (سأبعث من الصبا قومًا، فيأتون من المشرق أفواجًا، كالصعيد كثرة، ومثل الطيان الذى يدوس برجله الطين) وأشعياء بذلك يصف إسراعهم من أقاصى الأرض إلى حج البيت، كما يصف هرولتهم.

وقال أشعياء عن الله أيضًا: (قد أقسمت بنفسى كقسم أيام نوح، أن

أغـرق الأرض بـالـطوفـان، كـذلـك أقسمت أن لا أسخط عليـك ولا أرفضـك، وأن الجبـال تـزول، والتـلاع تسخط، ورحمتى عليـك لا تزول)، ثم قال: (يا مسكينة يا مضطهدة ها أنا بان بالجص حجارتك، ومزينك بالجواهر، ومكلل باللؤلؤ سقفك، وبالزبرجد أبوابك، وتبعدين من الظلم فلا تخافى، ومن الضعف فلا تضعفى، وكل سلاح يصنعه صانع لا يعمـل فيك، وكـل لسان ذلق لا يقـوم معك بـالخصومـة، تفلحين، ويسميك الله إسمًا جديدًا، فقومى فأشرقى فإنه قد ورى زندك، ووقار الله عليك، انظرى بعينيك حولك فإنهم مجتمعين يأتوك، بنوك وبناتك عدوا فحينئذ تسرين وتزهرين، ويقرع عدوك ويتسع قلبك، فكل غنم قيدرا تجمع إليك، وسادات نباوث يخدمونك، وتفتح أبوابك دائمًا، الليل والنهار فلا تغلق، ويتخذونك قبلة، وتدعين بعد ذلك مدينة الرب).

ومعلوم أن قيدار ونباوث: من ولد إسماعيل. وأنها سميت بيت الله الحرام واتخذت قبلة ببعث محمد ﷺ.

فأخبرونى: متى كان ولد إسماعيل خدمة بيت المقدس؟ وهل اتخذت مكة قبلة إلا على عهد محمد ﷺ؟

وقال أشعياء أيضًا: (ارفعى إلى ما حولك بصرك فستبهجين وتفرحين، من أجل أنه تميل إليك عساكر الأمم، وتحج إليك عسـاكر الأمم حتى تغمرك قطر الإبل الموبلة، وتضيق أرضك على القطرات التى تجمع إليك، وتساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ، وتسير إليك أعلا قيدار، ويخدمك رجال نباوث بن إسماعيل).

وقال أشعياء عن الله أيضًا إثر ذلك: (وينشق فى البادية مياه، وسواق فى أرض الفلاة، وتكون الفيافى والأماكن العطاش منابع ومياها، وتصير هناك محجة، وطريق الحرم لا تمر به أنجاس الأمم، والجاهل لا يمر هناك،

ولا تكون به سباع ولا أسد، ويكون هناك ممر المخلصين).

وقال أشعياء عن الله تعالى فى مكة، ويذكر الحجر الأسود: (هأناذا مؤسس بصهيون، وهو بيت الله، حجرا مقره فى زاوية مكرمة، فمن كان مؤمنا فلا يستعجل).

وقال أشعياء عن الله أيضًا: (لتفرح البادية العطشى، ولتبتهج البرارى والفلوات، لأنها ستعطى بأحمد محاسن لبنان، وكمثل حسن الدساكر والرياض).

وقال أشعياء أيضًا فى وصفها: (إن الذئب والحمل يرتعان معا بها).

* * *

وأما اعتراضكم على أن فى الجنة أكلاً وشربًا ونكاحًا، وغير ذلك، فهو اعتراض بغير علم ولا برهان، فذلك عتوٌّ منكم على الله تعالى وعلى أنبيائه وكتبه، وسوف أبين لكم الآن بفضل الله تعالى خلل ما ذهبتم إليه، بمقتضى سنن الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

فأما التوراة التى بأيديكم لليهود إلى اليوم، فلا ذكر فيها للآخرة، ولا لبعث ولا لحشر الأجساد، ولا لشىء من أحوال القيامة، وفى كتبكم أن موسى لم يخبر بذلك مخافة أن يكذبه بنو إسرائيل جملة واحدة فيرجموه، لأنهم كانوا ينقضون أفعاله من المعجزات، ويتخيرون أقواله ويسيئون القبول لكل ما يأتيهم به عتوا منهم على الله سبحانه، إلا أن موسى بن عمران، ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام، كلهم أخبروا العالم أن الله خلق الأشياء وابتدعها مخترعًا لها، لا من شىء ولا أصل متقدم، وهذا مما اتفقنا جميعنا عليه، فإذًا لا شك فيه.

فالبعث والحشر للأجساد لا يتعذر، لكونه من قدرة الله تعالى، وبقى

أبدًا فى حكم الممكن لا فى حكم الممتنع، إلى أن أخبرنا الذين قامت البراهين الضرورية على صدقهم، وهم الأنبياء الذين أخبروا العالم من بعد موسى بالبعث وحشر الأجساد وأحوال القيامة، فتحققنا ذلك ضرورة، فإذًا لا شك فيه، فالتذاذ تلك الأجسام التى حشرت مع نفوسها الأولى، فى حد الممكن لا فى حد الممتنع، إلى أن أخبرنا به الذى قامت البراهين الضرورية على صدقه، وأن الله بعثه نبيًا من عنده، فتحققناه لأنه كان قبل أن يخبرنا به الصادق فى حد الممكن عندنا، وعند غيرنا، من أجل المقدمة الأولى، بل كان فى حدلواجب، لأن الله تعالى خلق أنفسنا، ورتب جواهرها وطبائعها الذاتية، رتبة لا تستحيل البتة على التلذاذ بالمطاعم والمشارب وسائر اللذات، على حسب موافقة ذلك الجوهر أنفسنا، وهذا ما لا مطعن فيه لأحد.

ولا شك فى أن النفوس هى الملتذة، بالمطاعم والمشارب والروائح الطيبة والمناظر الحسَنة والأصوات المطربة، وكذلك هى المتألمة أيضًا بضد ذلك من المكاره، وأن الحواس الجسدية هى المنافذ لوصول هذه الملاذ إلى النفوس، وأما الجسد فلا حس له البتة.

فإذا اجتمعنا باتفاق على أن الله سيجمع يوم القيامة فى عالم الجزاء بين أنفسنا وبين الأجساد المركبة لها، ويعيدهما كما كانا أول مرة، جوزيت هنالك من الملاذ والآلام بما تستدعيه طبائعها التى لم توجد قط إلا كذلك، إلا أنه كما أن تلك الأجساد أعيدت لغير فناء ولا فساد ولا استحالة بقدرة القادر كذلك، ذلك الطعام الذى هنالك لم يعان بتار ولا هو ذو فساد ولا استحالة إلى قذر إلى دم، ولا تغير ولا موت ولا شبه ذلك بقدرة القدير، كما أخبرنا الخالق سبحانه بقوله: ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾.

وكذلك تلك الثياب غير متخرقة بنسج ولا تفنى ولا تتغير.

وكما أن تلك الأجساد لا كدر فيها ولا خلط، ولا دم ولا أذى، وكما أن تلك النفوس لا رذيلة فيها من غل ولا حسد ولا حرص ولا غير ذلك من جبلات نفوس أهل هذه الدار الفانية، كما أخبرنا الخالق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ إخوانًا على سرر متقابلين﴾.

وفى التوراة التى بأيدى اليهود إلى اليوم، والتى تؤمنون بما فيها حرفا حرفا: النهى عن أكل آدم وزوجه من الشجرة التى فى الجنة، وأنهما طردا منها بسبب أكلهما منها.

ففى التوراة عن آدم: (إن الله نفاه من الجنة ليعمر الأرض التى خلق منها، فتلك الجنة لم تكن فى الأرض).

وفى الإنجيل الذى بأيديكم أن المسيح قال لتلاميذه، ليلة أكل معهم الفصح، وقد سقاهم كأسا من خمر وقال: (إنى لا أشربها معكم أبدًا حتى تشربوها معى فى الملكوت عن يمين الله).

وقال أيضا فى قصة الفقير الذى اسمه العيزار الذى كان مطروحا على باب الغنىّ والكلاب تلحس جراح قروحه، وأن ذلك الغنى نظر إليه فى الجنة متكئًا على حجر إبراهيم الخليل، فناداه الغنى وهو فى النار، (يا أبى إبراهيم إبعث العيزار إلى بشىء من ماء أبل به لسانى).

وفى الإنجيل أيضا أن الججماة قالت للمسيح بكفر ناحوم متى جئت إلى هاهنا يا معلم؟

فقال لهم: (آمين. آمين. أقول لكم إن أكلتم الخبز وليس لما رأيتهم من العجائب فارغبوا فى طعام لا يفنى، فى الحياة الدائمة).

وفى الإنجيل أيضا أنه قال لتلاميذه فى وصية وصاهم بها: (لتطعمن

ولتشربن على مائدتى فى ملك الله، وتجلسن على عروشى، حاكمين على اثنى عشر سبطا من بنى إسرائيل).

وقال أيضًا لليهود: (إن كان موسى أطعمكم خبزًا فى المفاوز، فأنا أطعمكم خبزًا سماويًا)، يريد نعيم الجنة.

وقال أشعياء: يا معشر العطاش: (توجهوا إلى الماء للورد، فمن له فضة فليذهب ليأكل ويشرب ويأخذ من اللبن والجبن بلا فضة ولا ثمن).

وهذا كله يبين لكم أيها لقساوسة ما كفرتموه ويوجب إيمانكم بما أنكرتموه.

* * *

وأما قولكم لى: إن دين الإسلام فشا بالسيف والقهر، ودين الصليب لم يفش بسيف! فإن كنتم قلتموه لتعيبوا به الإسلام، فذلك عيب كان فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد حاربوا الأمم، وسبوا الذرارى، وناوشوا الأعداء فى ديارهم، كما هو مكتوب فى التوراة وفى سائر الكتب لديكم - ولا خفاء أن سيد النبيين محمدًا ﷺ لم يكن قبل بعثته ملكا، فيقال حمل رعيته على دينه، ولا صاحب مال، فيقال بذل ماله مُصانعةً على دينه، وإنما أتى قومه بخلع الأوثان، وتحطيم الأصنام، وعبادة الله وحده، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وآيات ومعجزات خارقات للعوائد، دالات على صدق رسالته ونبوءته، ثم خصه الله بآية باقية، أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى يوم يبعثون: هى القرآن على حين ذهبت جميع آيات الأنبياء والمرسلين بذهابهم، لم يخصوا حتى ببقاء واحدة منها.. فما عليه وقد جاء بالحق، أن يقوم فى وجه دنيا الباطل، ممتشقًا رمحه، شاهرًا سيفه، مناديًا للإيمان؟ أم أنه كان عليه أن يخنع ويخضع ويوثق ويصلب حتى تؤمنوا

به وتصدقوه وهو الذى قال له الله تبارك وتعالى : ﴿وينصرك الله نصرًا عزيزًا﴾ ؟

ثم أصغوا إلىّ جيّدًا تفهمون : أنه لما بعثه الله ليدعو العالم إلى شريعته، اتبعه جماعة من الناس سبقوا إلى الخير، ورغبوا عن الشرك والشر، فعمد قومه إليه، وعتوا على من اتبعه وعليه، وآذوهم بالرجم والضرب، والنفى والعذاب، والفتنة عن دينهم، وما زال ﷺ كذلك زهاء عشر سنين يجهد نفسه فى إظهار أمر الله، صابرًا على أذى قومه، لا يخفى نفسه ولا يستتر ولا يجحد، ولقد عمد إليه يوما نفر منهم بالكعبة، ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فقالوا له : أنت الذى تسب آلهتنا وتسفه ديننا، ووضع أحدهم يده فى رداء النبى محمد ﷺ وضمه به، وتحاملوا جميعًا عليه، وهو رابط الجأش ثابت الإيمان، شجاعًا مقدامًا صادقًا، يقول لهم : نعم أنا الذى أقول ذلك، ويشفق صاحبه عليه منافحًا عنه يقول : (أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟).

فلم يكن ﷺ بالذى يضعف أو يجزع من شىء، حتى أفشى دين الله فى الأرض، وجعل أصحابه نجوم الهدى، ومصابيح الظلام، وأيدهم بالبراهين، وبلغت رحمة ربه عليهم أن كلمهم الموتى، وطويت لهم الأرض، وحماه الله من أعدائه الذين كانوا يظفرون به لو نظروا تحت أقدامهم، لكنه قال لصاحبه : (ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟) فعصمهما الله وكان لشريعته الغلبة والنصر، ولأعدائه الهزيمة والقهر.

ولكنكم بدلتم هذه المواقف الشجاعة الجليلة للأنبياء، واجترأتم فكتبتم فى الإنجيل عن المسيح أنه حين استشعر بوثوب اليهود عليه صاح : (جزعت نفسى الآن. فماذا أقول يا أبتاه؟ فسلمنى من هذا الوقت) وأنه حين أخذ بزعمكم كان القواد يقولون له : أنت يا شوا أنت المسيح ، فيقول

لهم : أنتم تقولون ذلك، وفيكم من يوافق اليهود فى قولهم، إنهم حين فتشوه أخفاه خمار فى جبته تحت وعاء الزبل، إلى آخر الحكاية الفاجرة الكاذبة.

وبعد أيها الرهبان والقساوسة :

إن بشارات الأنبياء فى كتبهم تنطق أن سيد النبيئين محمدًا ﷺ يأتى بالسيف فى جملة أوصافهم له، مما هو موجود فى الكتب القديمة، بل إن أشعياء أخبر عن هزيمة العرب وقتل أشرافهم، فى بدر وغيرها فقال : (يدوسون الأمم كدوس البيادر، وينزل البلاء بمشركى العرب، وينهزمون بين يدى سيوف مسلولة، وقس موتورة من شدة الملحمة).

وكذلك قال المسيح عليه السلام لتلاميذه فى الإنجيل : (إنى كنت أرسلتكم وليس معكم مزود ولا خف، فهل ضركم ذلك أو نقصكم شيئا؟ قالوا : لا. فقال : أما الآن فمن لم يكن له مزود فليشتر مزودًا، ومن لم يكن له سيف فليبع ثيابه، وليشتر له سيفًا).

فأمرهم بأن المخلصين منهم، سيكونون من حملة السيوف، من أتباع محمد ﷺ. ثم تعالوا أذكركم بما نسيتموه، من أن دين الصليب الذى أنتم عليه، إنما أفشاه قسطنطين بن هلانى بالقهر والرئاسة، أما الدين الذى جاء به المسيح عليه السلام، فإنه لم يلبث بعده سوى أربعين سنة مغمورًا، وأهله مستضعفون، ثم اختل كما سبق القول وهو مما تعلمون يقينًا.

ثم تعالوا أيها القساوسة لننظر معا إلى هاتين الصورتين :

سيد النبيين محمد ﷺ حين خلص المشركون إليه يوم أحد، أشرع أحدهم إليه رمحه، فجاء أحد أصحابه، فأدخل جسمه بين سنان الرمح وبين محمد ﷺ، يفتديه بنفسه، والمشركون يفوقون إليه سهامهم، وسماك بن خرشة قد ترامى عليه بجسده يقيه من السهام، وقد كتبتم فى

الإنجيل : إن أصحاب المسيح عليه السلام حين أحيط به - بزعمكم - جزعوا فتفرقوا عنه، وأن بيطرة الذى كان حلف ألا ينكره، أنكره قبل صراخ الديك ثلاثًا وحلف أنه ما يعرفه، وفعل ذلك سائر تلاميذه، ثم لم يكن إلا قليلاً أن هربوا عنه، وأسلموه لأعدائه، وهذا كلكم بزعمكم وفى كتابكم. فهل نظرتم للصورتين وتدبرتم ما فيهما من المعانى، وعلمتم ما فيهما من الحكمة ؟؟ فهل أنتم إذا منتهون عما أنتم فيه من ضلال أم على قلوبكم أقفالها ؟

ثم إنكم على كثرة أقوالكم فى المسيح وتنازعكم فيه فكلكم يقول : إنه إنسان تام حُمل به تسعة أشهر وُولد وخُتن ورَضع، وكان صغيرًا فكبر، وناقصًا فزاد، ونما ومشى، وأكل وشبع، وجاع وعطش، وغاط وبال، وصحا ونام، وطلب وهرب، وأخذ وربط، وصلب ودفن، وأنه أتى إلى شجرة من التين، فلم يجد فيها ما يأكل فدعا عليها، ولم يدر أيضًا أين قبر صديقه لازر، وقال : أين دفنتموه ؟ ولم يعلم متى هى القيامة، ولا قدر أن يجعل أولاد زبدى عن يمينه وشماله، وصرف ذلك إلى الله تعالى، إن شاء سبحانه أن يفعله.

وقلتم إن يحيى غطسه، وأنه صاح جزعا من الموت، وهذه كلها صفات إنسان مخلوق لا صفات إله خالق . .

* * *

فماذا أقول لكم ؟؟ وقد جئتم لتقولوا لى : فقلتم وقُلْتُ، وأضللتم، وأوضحت، وكذبتم وصدقت، ودعوتم علىّ، ودعوت لكم، وأهنتم محمدًا ﷺ، وعظمْت عيسى عليه السلام، وحاولتم طعن القرآن فما استطعتم، وحاولت ستر كتبكم فانكشفت، وأنهكتمونى عَلِّى أضلّ، وأنهكت نفسى علّكم تهتدون، وقد آذيتمونى بأيديكم، وتلطفت معكم

بكلامى، وهاهو اليوم الثالث ينقضى وقد اهتزت فى نفوسكم عقيدتكم، وثبتت فى نفسى عقيدة الإسلام وأنا أعلم مما علّمنى ربّى فى القرآن أنكم لن ترضون عنى حتى أتّبع ملّتكم ولكن كيف أبيع الهدى بالضلال، وأشترى الباطل بالحق.. ولكنكم أهلى وعشيرتى وقد أمرنى دينى الجديد أن أصحبكم فى الدنيا معروفًا فهلمّوا إلى دين الله لتربحوا، قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا..﴾ اسأل الله أن يكشف ما بكم من الضلالة وأن يتلقاكم بالهداية وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾. صدق الله العظيم.

وما كاد الطبيب الشاب يفرغ من تلاوة الآية حتى أدرك الجميع أنه قد خرج من حظيرة الكنيسة إلى غير عودة، فتدافعوا يفرطون فى إيذائه ولم ينتهوا عنه إلا حين علا صوت الكاهن الكبير وهو يعلن فيهم:

أن اللجنة قد أيقنت بأن (عبده إبراهيم عبد الملك).. بن (الخواجة إبراهيم أفندى عبد الملك).. من أسرة كذا... التابعة لكنيسة كذا... قد حلّت عليه اللعنة الأبدية وأنه مطرود من رحمة أبينا يسوع المسيح.. مخلّصنا وراعينا.. وأنه.. وأنه... إلى آخر ما لا يجوز إغفاله فى تصريح تاريخى كهذا، له عندهم لكثرة ما تكرر أصول وقواعد.

* * *

مطلوب زوجة مسلمة

وما كاد الكاهن الكبير يلقى بيانه، وقد تعلقت الأنفاس من رهبة الموقف، حتى حل الهرج والمرج محل السكون والوقار، وارتفع الصخب فجأة.. بأخلاط من الأصوات، فهذا نحيب، وذاك نواح، وهؤلاء رجال أفزعهم المصير الذى ينتظر فتى كان من خيرة شبابهم، الذين كانوا يباهون بهم المسلمين، وتلك نسوة تجمع بين البكاء وبين أقبح الأصوات.

وإذا بالطبيب الشاب يشهد للمرة الثانية موقفًا مزعجًا فى نفس المكان.. فقد كان فوجئ بقرار المحكمة قبل تمام المحاكمة، ولذلك بقى فى مكانه مشدوهًا، حال تلاوة البيان.

وإذا بدأ الهرج والتدافع بالأيدى والمناكب، تسلل من مجلسه إلى خارج الدار.. ثم إلى مسكنه المتواضع.. وقد تملكه شعور لم يكن يحس به من قبل.. فقد رأى لأول مرة رجال الدين الذين يتخذون من الهداية والإرشاد وسيلة لكسب المعاش، يتصرفون على نحو أذهله، فخالطه شعور بالعطف على عامة الناس الذين يلتمسون عندهم الرشاد.

* * *

قال الطبيب لصاحبيه: لقد احترمت هؤلاء الناس حين ثبتوا ودافعوا عن أمور خُيِّل إليهم أنها صواب، وكان ذلك فى أول لقاء لى معهم، ولكن حقيقة أمرهم تكشفت لى فى المجلس الثانى، حين باهلتهم ثلاثة أيام طوالاً، أقدم لهم الدليل تلو الدليل، وأقرعهم الحجة الهزيلة عندهم بالحجة القوية عندى، وقد كنت أظنهم بما يحملون من مناصب دينية

عالية، أهل حجة، وأصحاب عقل ونظر، لكننى فوجئت بهم يفرّون من الميدان، مخافة أن ينكشف ما هم عليه من جهل وصغار، وإنى لأعلم أنهم يأكلون السحت.. ويجعلون رزقهم أنهم يكذبون ألَا ساء ما يزرون. قال صاحباه: أو لم يكف ما لقيت من دعوتك الناس إلى الرشاد فجئت تخطب فينا.. قم الآن يا رجل إلى كتبك، فأقدامك لم تثبت بعد على الطريق.. وعليك أن تتوفر على ما بقى من مراحل للحصول على الإجازة العلمية.. ومن ثم الوظيفة التى ستقيم أودك بها.

وكان ما نصحاه به.. فانقطع لدروسه بضعة أشهر كدّ فيها واجتهد.. حتى تخرج طبيبًا يمارس المهنة الإنسانية.

ونظر الطبيب الشاب من حوله.. باحثًا عن مجتمع يعوضه عن أسرته التى لم تهتد، فإذا النصارى: يحيطونه بنظرات الحقد والمرارة، وإذا المسلمون: يترقبونه فى حيطة وحذر فرغب فى البعد عن الناس طلبًا للهدوء، ولمزيد من الاطلاع، فلم يجد خيرًا من أن تكون خدمته الوظيفية بالسجون. فبدأ حياته الوظيفية سنة ١٩٠٥، طبيبًا لبعض السجون بمديرية الجيزة، وتهيأ له بذلك البعد عن المجتمعات من جهة، وقربه من القاهرة من جهة أخرى.

كان يقضى ساعات العمل بمكتبة فى مستشفى السجن، وكانت له دار ملحقة بالمبنى ذاته، وحول هذه الدار حديقة صغيرة، فكان وقت الفراغ عنده موزعًا بين القراءة حينًا، ورعاية هذه الرقعة الصغيرة من الأرض حينًا آخر، وكثيرًا ما كانت هذه الرقعة الخضراء تبدو له أرحب من مدينة القاهرة وما حولها..

ولقد كان يجد فى سكون الليل، والجو المحيط بالسجن، ما لا يجده من علامات الحياة فى مدينة صاخبة، ولقد كان يتخذ من واعظ السجن

والمسجونين أصدقاء أصفياء ومحبين عديدين. . فلقد عاش أيامه بينهم، كإنسان يحس بآلام غيره من الأناسى.

قال محدثنا : ولعله كان فى وحشة شديدة فى دخيلة نفسه، ولذلك غلبه العطف على من ضاق بهم المجتمع وضاقوا به، وتحولت الوظيفة فى تقديره من معاش يطلبه، إلى رياضة نفسية وتأمل. ومضى عام وبعض عام، وهو لا يرى صاحبيه إلا نادرًا. . بل لا يرى الناس إلا فى حدود البيئة الموحشة التى احتوت ليله ونهاره فى نظام رتيب.

وفى غضون هذا العام الأول، أشار إلى زميله (صدقى) أنه يريد أن يستقر فى دارٍ وأسرة، فإن رزقه الله بزوجة صالحة، فإن حديقة السجن ستكون فى تقديره جنة نعيم.

قال له (صدقى) : أما هذا فمطلب عسير. . ولقد غاليْت كثيرًا فيما تمليه على من شروط فيمن تطلبها زوجة لك. . وإنى لأقلّب كفى عجبًا من طمع ولد آدم. . ولكأنى بك الآن فى الجنة ولم يبق إلاّ حُور العين!!

فكيف بالله يا أخى أوفّر لك ما طلبت بشروطك، وهى شروط لا تقبل حتى من مسلم أصيل؟

فكيف بك أنت، والناس لا تعرف من أمرك إلا ما تتسامع به المجالس؟

وإذ تكرر الطلب. . وتكرر التنبيه، فإن طالب الزواج لم يجد بدًّا من تفويض صاحبه على أن يتساهل فى بعض الشروط ليصبح ما يطلبه ممكنًا ومستطاعًا.

وكانت زوجة (صدقى) وهى سيدة فاضلة ذات دين، هى التى تتصل بالأسر، وتراعى ما هو مفضل من الأوصاف، وبعد طول بحث لها

وتقليب، عثرت على من تظنها تصلح للمهمة. وتمت الخطبة غيابيا، بناء على المعلومات والأوصاف التى ينقلها (صدقى) وزوجته لكل طرف، ولم يكن مجلس الخطبة يضم سوى الرجال وقد وافق (عبده) استنادًا إلى أوصاف مطربة حدثه بها زميله (صدقى) نقلاً عن زوجته، واتفق الجميع على موعد لعقد القران، يتم بعده تحديد موعد الزفاف.

حتى كان ذلك اليوم بعد الخطبة بزمن قصير، حيث كان الطبيب (عبده) فى زيارة زميله الطبيب (صدقى).. وكانا يجلسان فى (المنظرة) التى طالما سكنها (عبده)، وإذا بأصوات استغاثات تتعالى فجأة إلى عنان السماء، فتبدد سكون الحى، وتثير الفزع والرعب فى سكانه، وسأل صدقى وعبده عن الخبر، فقيل لهم: شاب حاول الانتحار بإلقاء نفسه من نافذة بيته، لأن رسب فى الامتحان لكنه يبدو أن الموت أخطأه، فهو ينزف بشدة، وإن كانت الأنفاس لا تزال تتردد فى صدره، وانطلقا معًا لإنقاذه، فلم يكن فى الحى من هو أولى منهما بهذه المهمة، فما بالك وهو جار قريب، وقد يساعد قربهما منه فى اللحاق به، قبل فوات الوقت اللازم للإنقاذ!! وساعدهما الله، فقاما بإسعافه، وصاحباه بعد ذلك إلى المستشفى، لكنهما لم يكونا وحدهما، ولكن كان معهما أهل الفتى، وبعض أهل الحى، وبين هؤلاء الجمع كانت فتاة بالذات تشكرهما على ما بذلاه من جهد، فى حرارة صادقة، وهمس (صدقى) فى أذن صاحبه أن: تفحّص هذه الفتاة جيدًا فهى شقيقة المصاب - وهى فى ذات الوقت خطيبتك - ونظر إليها (عبده).. وانقبضت عضلات وجهه فجأة، وبدا وكأنه حمل فجأة كل هموم الدنيا.. والتفت إلى زميله (صدقى) وهو يسأله:

أمتأكد أنت مما قلته الآن؟ قال (صدقى): نعم.. قال (عبده): أو كنت تعلم من أمر هذه الخطيبة، ومبالغتها فى التبرج والسفور، ما أخفيته

عني؟ أم أن زوجتك هى التى كانت تعلم هذه الحقيقة فلم تذكر عنها لك شيئًا؟

فإذا كنت تعلم عنها ما علمته أنا الآن وأخفيته عنى فتلك خدعة، وإذا كانت زوجتك تعلم وخدعتك، فتلك أدهى وأمرّ، واحتدّ نقاشهما وعلا صوتهما. . وضاق الدكتور (صدقى) بحدة صاحبه عليه، فافترقا على خلاف.

– لكن (عبده) عاد إلى صاحبه بعد يوم واحد (على غير عادته)، وأنذره بأن هذه الخطبة تعد مفسوخة، فقد بنيت على تدليس واضح، فهى فاسدة أساسًا لأنه خدع بما نقل إليه من أوصافها، لكن (صدقى) أصر على أن الأمر لم يكن فيه أى غش أو خداع، وكفاه هو وزوجه ما أرهقا نفسيهما به، من التفكير والسعى وتدبير الإجراءات واللقاءات حتى تم ما تم، وعاد ينصح صاحبه، بأن كل شيء سيكون وفق ما يريده هو بعد الزواج، فالفتاة صالحة لولا ما انخدعت به من بريق المدينة، لكنها بعد الزواج ستكون فى بيته، مطيعة لأمره، خاضعة لرأيه، وهل يليق الآن بعد أن اتفقوا مع الرجال من أهلها أن يتراجعوا فى اتفاقهم؟ وكيف وهم جيران العمر كله، والأسرتان صديقتان؟ وإذا كان لابد من فسخ الخطبة، فمن الذى سيقوم بهذه المهمة السخيفة؟

لكن (صدقى) برغم كل ما قاله، وغيره مما لم نذكره، لم ينجح فى إقناع صاحبه العنيد بقبول ما جرت به المقادير.

وفجأة تذكر (صدقى) أن صداقته لصاحبه لم تكن تعود عليه إلا بالمتاعب منذ تصادقا. وأنه قد تورط هو وزوجته بمساعدتها له على تحقيق مطلبه، ذلك على حين انصرف (عبده) من عند صاحبه، غاضبًا معلنًا سخطه، على غشه هو وزوجته له، وهو الذى أنابهما عنه، ووكل إليهما

أخطر أمور حياته، وأعلن صاحبه قبل أن ينصرف من عنده، أنه لن يقترب من هذه الدار التى دخلها خاطبًا بعد اليوم، وكان قرارًا رهيبا أسقط بسببه فى يد (صدقى) وزوجته.

***

ومرت الأيام.. و(عبده) لايظهر، وموعد عقد القرآن المحدد من قبل تقترب ساعاته، ولم يجد (صدقى) بدًّا من تكليف زوجته بنقل خبر فسخ الخطوبة على أيسر صورة مستطاعة لأهل الفتاة، وحتى لا تتراكم الأخطاء ويصعب الأمر على الحل.

وذهبت زوجة (صدقى) إلى أهل الفتاة.. وقالت لهم وهى تتميز غيظًا وترتجف أسفًا أمامهم: لقد صدرت الأوامر بنقل الطبيب (عبده) إلى الحدود، وهو مرشح بعد ذلك للسفر إلى السودان، وأنتم تعلمون أن ذلك أمر لا يستطيع تعديله أحد، وهو أمر يجعل (عبده) غير صالح للاقتران بالفتاة، وإلا فإنكم تكونون قد حكمتم عليها بالنفى إلى أجل يعلم الله مداه، وهو قد أدرك بإحساسه أنكم سترفضونه لو عرض عليكم سفرها معه.. لذلك فإنه تجنبًا لهذا الموقف، قد سافر بالفعل، وقد جئت لأخبركم بذلك لنلغى ترتيبات عقد القران.

وما أن فرغت الزوجة من كلامها، حتى قامت الدنيا ولم تقعد فى الحى الذى يعيش فيه (صدقى) ومن قبله أسرته من عشرات السنين، وتساءل الجميع لم حدث ما حدث؟ وكيف يفعل (صدقى) وزوجته ما فعل من عبث بسمعة جيرانهم؟ وزاد الطين بلة، أن أشاعت أسرة الخطيبة أنها قد اكتشفت أن (عبده) كافر متلاعب، وأن له زوجة وأولاد من دينه الأصلى، وقد اكتشفوا ذلك وغيره مما لا يجب التكلم عنه، وهم لذلك رفضوه وطردوه، وما كان يجب للدكتور (صدقى) وزوجته أن يتعرضا على نحو

ما فعلا لفتاة من أسرة كريمة كأسرتهم، بل ما كان يجب لزوجة (صدقى) أن تعمل خاطبة لمن هذه صفاته وتلك حقيقته، ولا يمكن أن يدعى (صدقى) ولايجوز له القول بأنه يجهل حقيقة هذا الـ(عبده) - لأنه زميله - فقد قدمه لرجال الأسرة على أنه من أصحابه المقربين منذ عشر سنوات، وهو لذلك يعرفه ويضمنه عندهم، فكيف يقول بعد ذلك : أنه خدع فيه؟ ومن الذى يصدق الآن (صدقى) فيما يقوله؟

وتناقلت الأسر فيما بينها هذه القصة، وكل من يسمعها يحكيها بأسلوب جديد غريب بعد أن يكون قد أضاف لها من عنده ما ينسبه إلى نفسه : من أنه رأى، وعاين، وتأكد، وكان أول من اكتشف بذكائه، إلى غير ذلك مما يظنه الرواة أنه يزيد القصة عجبًا وإثارة وحبكة.

ولما كانت الأقوال قد استفحلت، فقد كان على الطبيبين أن يتواريا عن الناس ما استطاعا، حتى تهدأ الشائعات، وتطفأ الأقاويل.. لكن شيئًا مؤكدًا كان قد حدث، ولا حيلة الآن فى تلافيه، ذلك أن الطبيب الشاب وصاحبه (الطبيب صدقى وزوجته) قد أصابهم جميعًا ضرر بالغ فى سمعتهم، وسقط احترام الأهل والجيران لهم، خاصة بعد أن تناهت الأخبار مشبوهة مزيفة، إلى شيوخ الحى وأفاضل سكانه.

وكان من هؤلاء الشيوخ البارزين، والرجال المعروفين : الشيخ عبد الحميد مصطفى، وكان الشيخ عبد الحميد مصطفى هذا قد درس العلم فى الأزهر الشريف حتى خيف على بصره، فتوقف عن الدراسة بأمر الأطباء.. واشتغل بمقاولات المبانى فلقى فى عمله توفيقًا، وقد اشتهر فى حياته الخاصة بين أهل الحى بكرمه وكرامته، وصدقه فى معاملاته، وحسن عشرته للناس وصلاته.. وكانت الأنباء قد انتهت إليه كما انتهت إلى غيره، مزيفة مشوهة، فاعتبرها عبثًا صغيرًا من شباب غير مسئول، وعدها

استهانة من (صدقى) بكرامة أسرة محافظة، تعرضت بسببها سمعة فتاة للقيل والقال، وأنه على الرغم من أن فسخ الخطوبة جاء من جانب أهل الفتاة، إلا أن الضرر قد وقع على كل حال، وأنه يجب أن يحاسب هذا المستهتر وصاحبه، على ما اقترفاه فى حق الفتاة وفى حق أسرتها، وحتى لا تهان أقدار الكرام من أهل الحى، فيكون فى كل يوم حكاية، وفى كل دار رواية.

وأقنع الشيخ عبد الحميد نفسه، بأنه مطالب بأن يتخذ إجراءً ما لتهدئة الخواطر الثائرة وإعادة الهيبة إلى بنات الحى وأهليهم - فأرسل الشيخ عبد الحميد فى طلب الطبيب (صدقى).. وكان (صدقى) عنده بمنزلة الابن لأنه كان زميلاً فى الدراسة لأبناء الشيخ، كذلك فإن بين أسرته وأسرة (صدقى) علاقات قديمة وثيقة تشفع له فى طلبه ومحاسبته.. لكنه رغم تكرار الطلب فإن (صدقى) غير موجود نهارًا.. وغير موجود ليلاً.. فقد كانت مقابلة شيوخ الحى وكبار رءوس الأسر فى ذلك الحين تثير فى نفوس الأبناء رهبة وتخوفًا.

وعلى الرغم من أن (صدقى) كان يمكنه المجاهرة بالحقيقة، ومصارحة الشيخ وغيره من العقلاء بها، إلا أن الشائعات التى انتشرت وتأصلت، باتت أقوى من كل حقيقة تقال.. و(صدقى) لا ينفى أنه وزوجته كانا الواسطة.. لكن هدفهما كان نبيلاً كما يعلم الله، وهما ليسا مسئولَيْن عن تدخل الحظ السيىء فى كل ما حدث.. لكن الشيخ عبد الحميد كان كلما أمعن (صدقى) فى تجنب مقابلته، ازداد هو تمسكًا بطلبه، وشكًّا فى نيَّته، وإحكامًا فى حصاره، حتى وقع (صدقى) بين يدى الشيخ، وهما فى الطريق العام، فلم يبق مفر من المواجهة والحساب.. وأمسك الشيخ بيد الطبيب (صدقى)، واقتاده إلى مكان معروف جلسا فيه معًا لتصفية

الحساب وبدأ الشيخ الحديث قائلاً :

- كيف سمحت لنفسك ولزوجكا (صدقى) أن تفعلا ما فعلتماه، وأنت الآن طبيب مسئول تؤتمن على خصائص الناس؟ بل إنك ربّما عرفت بحكم تخصصك من أسرار الناس ما لا يعرفه غيرك؟ أية بداية هذه يا بنى؟ وأى خطأ ارتكبته فى حق أهلك وجيرانك، من أجل صداقتك لهذا الكافر المارق؟

وصبر الطبيب الناشئ فى الحىّ على قسوة الشيخ وحِدَّته معه، فقد كانت للشيخ فى نفسه منزلة الوالد بحكم تقدم سنه، ومكانته الاجتماعية فى الحى، وصداقته لأسرة (صدقى) منذ زمن بعيد، لذلك صبر (صدقى)، حتى استراح الشيخ إلى أنه قد أثخن الطبيب بالجراح، وعاقبه جزاء فعلته الشنعاء، التى ألقت الجيرة كلّها فى أتون من الغضب. وأحس (صدقى) بذلك فقال :

- عفوًا سيدى الشيخ، فهلاَّ سمعت القصة كما وقعت، فشهدت لى بالبراءة مما أثاروه حولى وحول زوجتى.. وحول صاحبى؟ وحسبى عقابًا لى على وساطتى، ما وقع علىّ من ظلم فى شائعاتهم؟ قال الشيخ عبد الحميد : أجل.. أسمع منك.. على ألاّ تقول غير الحق ولا تنطق إلاّ بالصدق، وأنا أحذرك يا (صدقى) من محاولة خداعى، فلست بالخَبِّ، ولكن الخَبَّ لا يخدعنى.

- قال (صدقى) : بل أصدقك القول ياعم، وكل ما أرجوه منك أن توسع لى فى صدرك حتى أتمّ حديثى.. وبعدها سأرتضى حكمك علىَّ وعلى صاحبى.. فنحن لم نجرب منك إلاّ العدل.. ثم إن (صدقى) شرح الواقعة كلها فى وضوح وإيجاز، حتى إذا وصل به الحديث إلى أحداث الخطبة ثم العدول.. لم يتردد فى ذكر التفصيلات.. بل إنه

اعترف بأنه تحت إلحاح صديقه، وعلمه بحاجته إلى الاستقرار، فقد سمح لنفسه أن يهون من بعض الصفات التى رآها فى نفسه فروقا واهية، على حين رآها صاحبه فروقا جوهرية أصيلة.

والله وحده يعلم أنه ما قصد من تصرفه هذا إلاَّ أنْ يجد حلاً لمشكلة عويصة، إذ كان من العسير عليه أن يجد أسرة تقبل مصاهرة صاحبه وهو حديث عهد بالإسلام، أو ترضى به وهو غير صاحب ثروة وغنى.. فلما قبلت هذه الأسرة مصاهرة صاحبه، حاول من جانبه أن يزيد الأمر توثيقًا، فلم ير خطأ فى أن يتغاضى عن واحد من الشروط الكثيرة التى اشترطها صاحبه، خاصة أنه كان يضع الشروط ولا يقتصد..

ثم أردف (صدقى) قائلاً: فإذا علمت يا عم أن صاحبى لا يجد من يعاونه فى تحقيق ما طلب إلا خاصَّة أصدقائه، ولست أعرف منهم إلاَّ نفسى وصاحبى (برادة).. لالتمست لنا عذرًا.. وهذه هى جملة القول يا عم.. وما كتمت عنك منها شيئًا.. وأنا أكلمك الآن باسمى واسم زوجتى وصاحباى، ونحن جميعًا نجلّك ونحترمك كما تعلم، وأقسم لك أننا ما اجتمعنا وأصحابى يومًا إلاّ على الخير، ولا قصدنا إلى إيذاء أحد من الناس، فضلاً عن فتاة من حقها أن تجد رجلاً جديرًا بها.

وأن زميلى الطبيب (عبده) كفء لها وزيادة.. ولكنه ضاق بها إذ رآها كما حدثتك.. ولقد قامت بينى وبينه المشاحنات التى لم يتسامع بها الناس، وإنما تسامعوا بما أطلقته أسرة الفتاة من شائعات وأكاذيب، من حولى وحول صاحبى، ولقد كنا كرماء إذ التزمنا الصمت، حرصًا على كرامتهم وكرامة الفتاة، وحفظًا لحقوق الجيرة، وكنا كلما اشتد هجومهم علينا نقول: لعل فى تهجمهم ما يطفىء غضب نفوسهم، ويمهد لنسيان هذه القصة التى غلب عليها سوء الحظ وحسب.

- قال الشيخ : ولكنك تبدو مقتنعًا بكل ما تقول عن صاحبك، من وصف جميل وخصال كريمة، فلماذا لم تنشر على الناس هذا الرأى؟ ولماذا تركت نفسك لليأس يغلبك؟ ولم لم تحاول من جديد اختيار فتاة بها من الصفات ما اشترط عليك وقد أنابك عنه، وليس له من يختار سواك وصاحبك (برادة) كما ذكرت؟

- قال (صدقى) : كيف أكرر التجربة يا عم؟؟ وقد نالنى من الأذى ما علمته؟ وأى أسرة جريئة وكريمة تقدم على خطر قبوله صهرًا لها، بعد كل ما روجوا عنه من شائعات؟ ووالله إنك لتعلم أفراد أسرتى فردًا فردًا، ولو كان لى من أخواتى من بقيت بغير زواج، وكان فيها من الصفات ما يحب (عبده)، لما ترددت لحظة واحدة فى مصاهرته؟ ولكن أى حيلة لى الآن؟ وكيف ينجح مسعاى من جديد إذا كانت لدى الشجاعة لتكرار المحاولة؟

- قال الشيخ : ولكنك تذكره فى حديثك معى بكل الخلال الجميلة والخصال الكاملة كأنه ملك أو ولىّ، فكيف تعجز عن تقديمه للناس، وهذا تقديرك له؟

قال (صدقى) : إن تقديرى له يا عم يستند إلى أساس متين وصحبة طويلة، استمرت زهاء عشرة أعوام كاملة، رأيته فيها فى كل حال يكون عليها الشباب : من إقبال على الدرس أو انصراف إلى اللهو البرىء، وكنا نقضى معظم ساعات النهار والليل فى الاستذكار وفى البحث، من الدراسة الثانوية إلى مدرسة الطب، إلى وقتنا هذا، ولئن كان صديقنا (برادة) على الدرب ذاته.. وهو يشهد له بما أشهد له الآن به، إلا أن زمالة الطب ربطت بينى وبين (عبده)، فوق ما ربطت بين (عبده) وغيرى من الناس.. لذلك قلت لك إن تقديرى له يستند إلى أساس متين ومعرفة حقيقية.

وسكت الشيخ قليلاً . . ثم عاد يسأل (صدقى) : وما اسم صاحبك الآن ؟

قال (صدقى) : اسمه (عبده إبراهيم) وكفى .

قال الشيخ عبدالحميد : وماذا كان اسمه قبل أن يشهر إسلامه ؟

قال (صدقى) : عبده إبراهيم عبد الملك .

قال الشيخ : عجيب أمر صاحبك يا (صدقى). أفلا يتخذ له اسمًا جديدًا يدلّ على فضل الله عليه أن هداه للإسلام ؟

قال (صدقى) : هذه فعلاً واحدة من نظراته الخاصة إلى ما هو فيه من شأن جد خطير، ولقد نصحه بعض المحبين له وأنا معهم، أن يتخذ له اسمًا علمًا شاهدًا على إسلامه، فاعتذر لنا بأن الإيمان الحق إنما يستقر فى القلوب وتصدقه الأعمال، فهو لا يرى الإسلام أسماء ولافتات كعناوين الكتب والمتاجر، كما أنه ليس شعارات عالية الصوت جوفاء، وإنى لأربأ بما أنعم الله علىّ به من الهداية، أن أتدلى بها إلى مستوى شبيه بالدعاية وطلب الشهرة، فى أمر لا يغنى فيه إلا الصدق الصدوق.

وتفكر الشيخ قليلاً فى ما قاله (صدقى) على لسان صاحبه، ثم قال : اسمع يا (صدقى). . آتنى بصديقك هذا غدًا صباحًا. . وتعال معه . .

قال الشيخ هذه العبارة وقد سرى عنه ما كان فيه بدءا من غضب، وما بدأ به الحديث من تهديد ووعيد، فاطمأنت نفس (صدقى) إلى أنه كسب سندًا قويًا، وأنه لن يسهل بعد اليوم أن يهاجمه مهاجم.

وغمرت (صدقى) فرحة لم يحس لها مثيلاً من قبل، فقد أدرك أنه نجح فى إقناع الشيخ بالحقيقة، وأن الله قد وفقه إلى إصدار الشيخ بينه وبين نفسه حكمًا ببراءته وبراءة صاحبه، من كل ما ألصقه أهل الحى بهم،

فسعى فى الحال إلى صاحبه بغير أناة . . ونفض عنده ما حدث مع الشيخ ، وارتجاه أن يصحبه فى الميعاد المحدد لمقابلته. فهو أحد كبار الرءوس فى الحى إن لم يكن أكبرها جميعًا، ومساندته لنا تجعلنا الأقوياء مهما كانت شائعات الخصوم.

- وأشرقت الشمس بنور ربها. . وجاء موعد اللقاء - وسعى الطبيبان إلى الشيخ عبد الحميد مصطفى، وكان تعارف رائع أعقبته مقابلات. . وكان الشيخ عبد الحميد فى كل مرة يسأل. . وكان الطبيب الشاب (عبده إبراهيم) فى كل مرة يجيب. .

وكم من لقاء تشعبت فيه الأبحاث، وتنوعت فيه الأحاديث، وتعددت فيه الأساليب، وفى كل مرة كان الطبيب الشاب يظهر علامة جديدة على صدق إيمانه، وثمين معدنه، خاصة حين أفاض فى سرد الأدلة التى ملكت عليه كل المدارك حين تقدم فى دراسة الطب، ورأى فى جسم الإنسان آيات وآيات على قدرة الخالق جل وعلا . .

وسرت أخبار هذه اللقاءات فى الحى كله، وتسامع بها الناس، فسكت كل متخرص، وانتهى كل مرّوج للشائعات. . أما (صدقى) وصاحبه (عبده) فقد رأيا ألا يطمعا فى أكثر ممّا وصلا إليه من تلطّف الشيخ معهما. . وحسبهما الآن أنهما وجدا فيه حكمًا منصفًا لهما.

- ومضت الأيام. . وكل واحد منهم فى مشاغله. . حتى كان يوم، أرسل الشيخ فيه رسولاً من عنده يدعو الطبيب (صدقى) لمقابلته، وحين حضر (صدقى) سأله الشيخ : أين أنت أيها الطبيب؟ ولماذا تباعد اللقاء بيننا؟

قال الطبيب (صدقى) : بحسبنا ما أخذنا وصاحبى من وقتكم يا عم. . فقد كرمتمونا بما لقيناه من عطفكم. .

قال الشيخ عبد الحميد مصطفى : كفى كفى يا رجل، فما أحسنت تقدير نفسك وتقدير صاحبك عندى، والله يعلم أنى قد أنست لحديثك وحديث صاحبك، وإنى لأراكما على سنة الأولين، فالحق أنك وصاحبك قد كسبتما إعجابى بكما وتقديرى لكما.

وكان إطراء طيبًا من الشيخ، فما وسع (صدقى) إلا أن يشكره عليه، وأن يعده بوصل ما كان قد انقطع من زياراته وصاحبه له.

ولم يبطىء (صدقى) فى اللقاء بصاحبه (عبده)، وحين التقيا قال له (صدقى) :

إننى لا أكاد أصدق ما أرى وأسمع من الشيخ عبد الحميد مصطفى، إننى فى حيرة ودهشة مما يحدثنى به، ولكن لعل الله يريد أن يحدث بعد ذلك أمرًا ؟؟ قال صاحبه : وما وراءك (يا صدقى) ؟ قال : إنه الشيخ يا (عبده).. إنه الشيخ.. لقد كسبنا مودته وإعجابه.. إلى حد أنه طلب منى ألا ننقطع أنا وأنت عن زيارته..

ثم شرد (صدقى) بنظراته، كأنه مأخوذ بأمر خطير، وظل صامتًا برهة حتى ارتاب صاحبه فى حاله المتقلبة تلك.. فسأله ماذا دهاك يا (صدقى) ؟ أتراك بالغت (كعادتك) فى وصف ما لقيته من لطف مقابلة عمّنا الشيخ لك ؟

قال : لا يا (عبده) بل الأمر أجلُّ فيما أظنّ - والعلم عند الله - ولكنى أرجوك ألا تخذلنى فى تكرار المقابلات مع الشيخ.. ووعده (عبده) أن يكون دائمًا معه..

- وتكررت لقاءاتهما مع الشيخ، وفى كل مرة كان العالم الجليل يزيد فى تلطفه معهما، وإكرامه لهما، ويشجعهما بعد أن أنسا إليه على المزيد من البحث فى قصة الإيمان عن يقين.. بل إنه أمدهما بكثير مما لديه من

المراجع الدينية القيمة ذات الفائدة الرفيعة. .

وبدا لـ (صدقى) مرة أن يصارح صاحبه (عبده) بما يدور فى ذهنه منذ أيام. . فقال له حين خلا إليه : اسمع يا (عبده). . إن هذا الرجل على ما رأيت من ارتفاع المكانة وعلو المقام، وقد لمست بنفسك ما يحيطك به من مودة وأنت فى مجلسه، على حين كان ساخطًا علىّ من أجلك قبل لقائك به، حتى أنه كان لا يطيق أن يسمع بأنك تظهر فى هذا الحى كعابر سبيل، من فرط ما سمعه مما نسب إلينا جميعًا. . ثم صمت (صدقى) وهو يفكر. .

قال (عبده) : وبعد. . ماذا تريد أن تقول؟. . تردد صدقى بعض الوقت قبل أن يفتح فاه. . لكنه عاد يقول : إنى أراك قادرًا على كسب ثقة الشيخ ومحبّته كواحد من أولاده، ولئن كنت وصلت إلى الحد من وده، فإنى لأرى مشكلتك الكبرى تجد لها أحسن الحلول.

- ضاق عبده بهذه الإشارات البعيدة. . فقال لصاحبه : ترى كم من الوقت أضعنا فى تأملاتك وفى الفروض والاحتمالات التى أراها تشغلك؟ فأرجوك أن تفصح عما تريد أن تقوله؟

- قال (صدقى) : إن للشيخ ابنة فى سن الزواج. . وهى كالتى طلبت فى شروطك. . ولئن قدر لك أن تحافظ على مودته واحترامه لك، على نحو ما أرى فى لقاءاتنا الأخيرة، فإنه لا يرفضك خاطبًا فيما أظن.

- قال (عبده) : يا صاحبى. . ما أراك إلا جننت!! أى أمل هذا الذى يراودك؟ وعلى أى أساس يجوز لى أن أفاتح رجلًا فاضلًا كهذا فى أمر مصاهرتى له؟؟ ونحن كما تعلم حديثو عهد بالتعارف. والرجل على ما تعلم من القدر والفضل. . ونحن على ما تعلم من التاريخ الحافل فى

الحيّ، خاصة بعد مأساة الخطبة الأولى وفسخها. . فأى منزلق تريدنا أن ننزلق ؟؟

لا يا صديقى تعقّل أرجوك ولا تجرفنى مع أحلامك وأوهامك. . فأنا لم أعد أفكّر فى مثل هذا الأمر. . وقد كفانا ما كان. . لكن (صدقى) عاد يناقشه ويناوشه، حتى صارا يقلبان الآراء، فاتفقا على أن يشركا معهما ثالثهما القديم (برادة). . وكان من رأيه ألّا يبدأ (عبده) أى خطوة من جانبه بنفسه. . ولكن على برادة وصدقى أن يقومَاهُمَا باستكشاف استجابة الشيخ أو فتوره تجاه اقتراح كهذا. . وكانت لقاءات مع الشيخ. . غاب عنها (عبده). . ثم عاد يظهر من جديد. . ثم تقدم خاطبا فأجيب. . وبدأتْ فى حياته وحياة الشيخ صعاب ما كانت عندهم لها حساب.

* * *

الابن الأول
عيسى (عبده)

تسامع الناس بأن (القبطى) الذى سخر من أسرة (. . .)، قد أوقع الشيخ عبد الحميد مصطفى فى حبائل سحره هذه المرة، فحصل منه على وعد بالمصاهرة، وكان لرب الأسرة فى هذا العهد هيبة عالية. . لكن زوجة الشيخ رغم هيبته، ثارت عليه ثورة عارمة. . وتركت له البيت وانطلقت إلى أهلها غاضبة.

واجتمعت الأسرة بأصولها وفروعها. . وألحّ الجميع على الشيخ أن يراجع نفسه فيما صدر عنه من وعد بالقبول. . وبدأت الشائعات تسرى من جديد. . وتوافد الخاطبون ومعهم الشفعاء، لإنقاذ الموقف بتعطيل هذه المصاهرة غير المتكافئة. . وضاق الشيخ ذرعًا بما تكرر من جرأة على مكانته من أسرته، فعجّل بعقد القران وبالزفاف جميعًا. . وتم ذلك فى ليلة أحاط بها الغموض والترقب، من جانب المستريبين فى أمر هذا الطبيب الشاب، وساعد على فتور المناسبة ومفارقتها للمألوف، أن الزوج حضر منفردًا إلا من صاحبيه، كذلك قاطعت زوجة الشيخ الحفل وهى أم العروس، وجاملها أهلها فلم يحضر منهم أحد، والشيخ حازم فيما قرره، ماض فيما عزم عليه، واتهم الناس الشيخ فى عقله، إذ كيف يسقط هذه السقطة وهو من هو من رجحان العقل ونور البصيرة؟؟ لكن الهدوء المشوب بالقلق ما لبث أن عاد للحى، بعدما تبيّن للنّاس أن الشيخ قد أنفذ وعده. . ووفى بعهده، وزوّج ابنته للطبيب الشاب (عبده إبراهيم). . بل إن الناس كادوا

ينسون ما حدث بعد سفر الزوجين إلى مقرّ عمل الطبيب حيث مسكنهما الملحق بسجن (طره) (من أعمال مديرية الجيزة فى ذلك الوقت عام ١٩٠٦م).

ومضى عام.. وكانت عادة الناس فى ذلك الوقت أن تعود العروس لتضع وليدها فى بيت أبيها، ولتكون فى رعاية أمها وأهلها فى تلك المناسبة الهامة.. وكما كان الناس يفعلون.. فقد أحضر (عبده) عروسه إلى بيت أبيها حيث وضعت وليدها الأول فى ١٩٠٧/٧/٢٧.

وما كاد اليوم الثانى ينتصف، حتى حضر الطبيب الشاب، وأقبل على زوجته يهنئها بسلامتها، وقد جلب لها من الهدايا كل جميل.. ولمولوده من اللعب والملابس كل نفيس رائع، ومضى ليسجل فى سجلات الحكومة واقعة ميلاد ولده الأول.. ثم ما لبث أن عاد وفى يده شهادة ميلاد ابنه (عيسى).. وأقبل على زوجته يرشدها إلى ما ينبغى عليها عمله من احتياطات.. ثم استأذنها بعد أن اطمأن عليها وعلى ولده وقبلها قبل أن ينصرف إلى عمله فى طرة.

وجاء الشيخ ليطمئن على ابنته وولده.. فأخبرته بحضور (عبده) ثم انصرافه بعد ما أثبت اسم الوليد بالسجلات وسألها أبوها فى فرحة: فماذا اختار لابنه من الأسماء؟؟ وأجابته ابنته دون وعى: عيسى.. لكنها رأت من أمر أبيها عجبًا، إذ ما لبث حين سمع الاسم أن ضرب كفًّا بكف، وقد تغير لونه وتقطب جبينه وظهر الغضب الشديد عليه وهو يقول:

- عيسى!! عيسى!! واعجبًا لهذا الرجل.. أو لم يجد فى كل الأسماء التى خلقها الله اسما جديرًا بهذا المخلوق إلاّ هذا الاسم؟؟ استغفر الله العظيم.. استغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم.. وانصرف من عند ابنته وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.. وأحست ابنته أن أمرًا عظيمًا

قد حدث. . وأن خطأ لا يمكن إصلاحه قد وقع. . فما هكذا رأت أباها على طول ما عاشت ورأت!! وباتت فريسة لأفكارها وهواجسها. .

أما الشيخ، فقد اعتكف فى داره أيامًا لا يرى فيها أحدًا، وأما زوجته فقد كانت تغالب دموعها، فقد تحقق للجميع أخيرًا ظنها البصير بهذا الطبيب وألاعيبه. . وكانت إذا همَّت بالدخول على ابنتها كفكفت دموعها، حتى لا تفجع ابنتها بما أسلمها أبوها له من مصير، وما جناه عليها بعناده وغفلته، وانخداعه بأساليب هذا الطبيب الذى سحره. .

وفى اليوم السابع. . اضيئت الشموع ذرًّا للرماد فى العيون، وتمويهًا على الأم البائسة التى ارتبطت بزوج قيل بأنه أسلم، بل وحسن إسلامه، فإذا به يعلن فى غير حياء ولا مواربة أنه مازال مخلصًا لماضيه، ولدينه القديم، وإلا فبماذا نفسر اختياره اسم (عيسى) لولده؟

ولم يكد اليوم السابع هذا ينقضى، حتى غرقت أسرة الشيخ فى موجة من الهم والحزن - فوق الذى كان قد تجمع لها من قبل - ذلك أن بشيرا من أسرة الطبيب (عبده)، جاء من حى (الظاهر) يهنىء زوجة أخيه بمولودها الأول (عيسى)، ولم يكن بين أسرة الشيخ وأسرة (الظاهر) من قبل سابق ودّ ولا اتّصال. . فكانت لهذه التهنئه منهم معانٍ غير خافية عليه، لكن الشيخ تماسك واصطنع الثبات اصطناعًا. . حتى كان الغد، فخرج من الفجر ليلحق بالطبيب (عبده) فى داره قبل أن يغادرها إلى العمل. . فإن له معه لشأنا.

وحين فتح الطبيب باب داره للشيخ. . فوجىء به يغلق الباب فى عنف خلفه، وهو يمسك بتلابيبه، ويقول له: ما هذا الذى فعلت بابنتى أيها الزنديق. . والله لا أفلتك من يدى حتى أعلم حقيقتك، لقد سكتنا على التزامك اسمك رغم اعتناقك الإسلام!! وكان يجب أن تغيره إلى ما يدل

على إسلامك. ولقد أحسنًا الظنَّ بك وبما سقته من حجج كانت تبدو لنا صادقة يوم نطقت بها، أما وقد انكشف أمرك الآن بتسمية ولدك (عيسى).. فاعلم أن اختيارك لولدك هذا الاسم له من المعانى ما لا يخفى على أحد؟ ولقد كنت أعالج نفسى بالتصبر حتى ألقاك، إلى أن جاءنا بشير من عند أبيك يحمل التهانى التى تنطوى على سخرية أبيك بعقولنا، وشماتته بمصير ابنتى المسكينة، التى جنيت عليها حين قبلت زواجك بها، فتكلم بالحق وإلا قتلتك شر قتلة.

ورأى الطبيب أن الشيخ يهدر غاضبًا، والدماء تندفع من صدره إلى جبينه حمراء قانية، والشرر يتطاير من عينيه يشير إلى ما بداخله من غليان براكين الثورة، فبقى بين يدى الشيخ هادئًا ساكنًا، حتى تمر العاصفة، لكن حالة الشيخ كانت تنبىء بأنه قد انتوى أمرًا خطيرًا، وأنه قد يرتكب جرمًا وحشيًّا تحت وطأة إحساسه بخيبة الرجاء، إذ كان يبدو عليه أنه استنفد من الجهد ما أضناه.. وأنه سيتصرف مع الطبيب تصرف اليائس منه.. فبادره الطبيب قائلاً:

- يا عم.. أقسم لك أن الأمر كما علمته من حسن إسلامى، ولقد أكرمتنى بإحسانك إلىَّ إذ قبلت مصاهرتى لك، فكيف تصورت فى نفسك ما نطق به لسانك الآن؟؟ وهل تظن أن ما جرى لى بسبب إسلامى، وملاحقة أهلى لى بالتهديد والويلات والأذى، وطردهم لى من دار أبى، وهجرى لأهلى، ولجوئى إلى الحق والهدى، كان كله تمثيلاً وعبثًا؟؟ وهل قدمت لى منذ عرفتك إلا الخير والعون والحب؟؟ فكيف تظننى أسىء إليك أو أجنى على ابنتك؟؟ وإذا كان ذلك مما كان يجوز لى وأنا على غير الحق، فكيف أستجيزه لنفسى وقد عرفت الله والرسول والقرآن؟؟ يا عم.. إن كنت أردت بعد ما قلته لك - والله على ما أقول شهيد - أن تزيدنى

إيلامًا . . فهأنذا بين يديك، ما تغيرت عن الإسلام ولا استبدلت، فأنت صهرى وعمى، وأبى وأهلى، وليس لى الآن من الناس بعد ولدى من هو أقرب إلى منك، وستجدنى طوع أمرك فيما تظنه صوابًا، وسأقبل حكمك أيًّا كان . . فهلا منحتنى بعض ما قد يكون بقى عندك من صبر . . لعلى أحدثك بما عندى من حكمة اختيار اسم عيسى لولدى؟؟

كانت لهجة الطبيب هادئة، رغم ما صبّه عليه صهره من لوم وتقريع . . ورغم شناعة الصورة التى رسمها صهره، من فزع أحاط الأسرة، وأحداث جسام توشك أن تعصف بالجميع . . فلا الطبيب ناج بفعلته هذه، ولا أصهاره سعداء بما يمكن أن ينزلوه به من انتقام لسمعتهم، التى ألحق بها خزيا ما بعده خزى.

هكذا كانت الصورة التى ارتسمت فى جو من المصارحة التى تهيأت للشيخ وقد انفرد بصهره . . ومع كل هذا القتام ظل الطبيب هادئًا ثابتًا، وظلت لهجته فى إطار من التوقير الواجب للشيخ، وإن قسى عليه الشيخ فى حملته . . فسادت فترة من الصمت . . قال بعدها الشيخ وقد تمالك بعض زمام نفسه الثائرة:

- تكلم وقل ما عندك!! ولا تخفى عنى شيئًا . . ولتعلم أنك قد ألقيتنى فى الجحيم جزاء صنيعى المعروف معك.

فابتسم الطبيب وهو يقول: كأنك لا تريدنى يا عم أن أتكلم!!

قال الشيخ: بل هأنذا مصغٍ إليك، واعٍ لما ستقول، . . والله وحده يعيننى على ما أنا فيه.

- قال الطبيب الناشىء: إن بينى وبين ربى عهدًا لا يعلمه إلا هو . . وإنى أسير على الدرب لا أحيد . . وما وجدت من ربى إلا الفضل يتلوه الفضل . . وفى ظنى (والعلم عند الله جل شأنه)، أن هذا الحادث الذى

أفزعكم حتى آذيتمونى، هو أكبر نعمة من بها الله علىَّ بعد نعمة الإسلام.

تمتم الشيخ فى صوت حزين: أكبر نعمة؟؟ تقول: أكبر نعمة؟ اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام، اللهم أفرغ علينا صبرًا من عندك.. فلا حول ولا قوة إلا بك.

- عاد الطبيب يقول: نعم.. قد يكون هذا التتابع فى الأحداث بشيرًا لى، بأن الله قد سمع لدعائى فاستجاب، فله الحمد فى الأولى والآخرة..

ثم استطرد ليقول: إننى يا سيدى حين تمسكت لنفسى بعد إسلامى بالاسم الذى كان قد اختاره لى أبى وهو كما تعلم (عبده)، تعلق رجائى بأن يمتد بى الأجل، حتى أكون كفئًا لزوجة صالحة من بيت طيب، وأن أرزق منها مولودًا يكون أول أبنائى، وأن أدعوه (عيسى)، وها قد تحقق الرجاء بفضل من الله ونعمة.

وقاطعه الشيخ محتدًا: وأىّ فضل تريدنى أن أراه فيما ذكرت؟

فارتفع صوت الطبيب الشاب فى نبرة تشبه الغضب وقال: يا سيدى صبرًا.. فما أتممت كلامى بعد!!

واستطرد يقول: إلى هنا وأنت ترى أن الأمور التى وقعت لا تستوقف نظرك، ولا تثير فيك عجبًا، أما أنا فقد رأيت هذه الأمور قبل أن تقع آمالاً ترتفع يداى فى كل لحظة بسببها إلى السماء بالدعاء، آمالا سهرت من أجلها الليالى الحالكة، التى أحاطت بى لبضع سنوات مضت، وإن الله الذى أنعم علىّ بهذا كله.. لأكرم من أن يرد ما بقى لى من رجاء عنده..

قال الشيخ: وما هذا الرجاء؟؟

قال الطبيب: إنه إن شئت رجاء، وإنه إن شئت عهد وميثاق إذا نحن أنعمنا النظر، فلقد كنت عاهدت ربى إن هو رزقنى بِصَبِىّ، لأحرصن على

تنشئته نشأة صالحة، ولأدعوَّن له بطول العمر، وبالتوفيق إلى ما فيه رضاء الله . . وبأن يكون له فى حياته . . ومن بعد مماته أحسن الذكر على ألسنة العباد . .

- ضاق الشيخ ذرعا باستطراد هذا الطبيب الحدث فى سرد أحلامه . . فقاطعة قائلاً : وأى والدٍ لا يرجو لولده مثل ما رجوت وأمَّلت؟ وأية صلة بين هذا الرّجاء وذلك الميثاق، وبين اختيار اسم المسيح (عيسى) بن مريم ليكون علمًا على ولدك الذى تريد له الخير فيما تقول؟؟

قال : يا عم : إننى لا أحصى ثناءً على رَبِّى، ولا أقدر على حمده كفاء ما أنعم به علىّ . . ولذلك جعلت من وجود هذا الولد . . شهادة تنبض بالحياة ما بَقِيَتْ له الحياة بأن : (عيسى) (عبده) . . وما هو بولده ولا هو الإلـه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا . فكلما ذكره الـذاكرون غـائبًا أو حاضرًا . . حيًّا أو ميتًا . . كان ذكرهم هذا شهادة منى بين يدى الله عز وجل بأن (عيسى) (عبده) . .

ولقد استجاب ربى لأول الدعاء، وها هو المخلوق الصغير حقيقة ماثلة بين يدى . . وشهادة منى بما آمنت به، وإن الذى أسبغ علىّ هذه النعمة الكبرى لقادر على أن يمد فى أجله، وأن يهديه سواء السبيل، حتى يكون أهلاً لحمل هذه الشهادة، التى فرقت فى حياتى الخاصة بين ضلال كنت فيه وهداية أرجو أن تزيد.

- ظل الشيخ صامتًا . . مطرقًا . . وكأنما يقلب النظر فى قولٍ، ما مرَّ بخاطره أنه سيسمع شيئًا منه، فاستطرد الطبيب حديثه بلهجة المطمئن الواثق . . قال : يا عم . . إن الغيب من ضنائن الرحمـٰن . . وإنا لا ندرى أيكون هذا الصبى صالحًا أم غير صالح . . ولا ندرى هـل كتب له من العمر ما يـطول أم كانت الأخـرى، ولكنى أعلم من الله أنه مـا خذلنى

ولا أسلمنى لأمر لا أحبه . . منذ سرت فى أطرافى هذه الشوق إلى الوضوء أول مرة، وأنا بعد صبى لا أميز بين عقيدة وأخرى، وإن قلبى يحدثنى بأن الله قد استجاب لكل ما دعوت، وسيكون من حياة الصبى وذكره بين الناس نور يفيض علىَّ فى قبرى، ويقضى عنى بعض حق الله علىّ. . حق الحمد والثناء عليه، فى حياتى ومن بعدها لأجيال تجىء وفى كل جيل يتكاثر القول الحق بأن (عيسى) (عبده)، فهذا ما آمنت به وصدقت. . هذا ما أريد له أن يجرى على ألسنة الخلق من بعدى. . ما بقى لهذا الصبى ولذريته ذكر بين الناس. .

قال هذا، وسكت. . لعل الشيخ يخرج من صمته، ولكنه كان سابحًا فى ملكوت الله، فعاد الطبيب يقول: ثم إنى دعوت الله أن يرزقنى ولدًا ثانيًا. . ولا حرج على فضل الله. . ولئن استجاب بمنِّه وكرمه فسيكون ولدى الثانى «محمدًا».

خرج الشيخ من صمته فجأة، وهو يكرر مقالة صهره، ثم حمد الله. . وأثنى عليه، وصلى على المبعوث رحمة للعالمين، وكأنما سرى عنه بما سمع آخرًا، فتبدلت حاله من الهم والقلق، إلى كثير من الرجاء أن تكون أحداث الأيام الأخيرة وهمًا، تجسّم وتفاقم فى جوّ من القيل والقال، ولكنه ظل صامتًا، وعاد إلى إطراقه، فقال الطبيب الشاب: يا عم: إذا فرغت من الشهادة التى أرجو أن تكون شفيعى عند الواحد الأحد، على نحو ما عاهدت عليه ربى، فأى الأسماء بعد ذلك يتمم الشهادة؟ وهل هناك من اسم يذكر بعد شهادة أن لا إله إلا الله[1] سوى محمد رسول الله. . لذلك فإنى أرجو الله العلى القدير أن يكون حفيدك الثانى (محمد عبده) ثم ضحك قائلاً: إن زوجتى الولود الودود والحمد لله. . وإن غدًا لناظره قريب. .

---

(١) يشير إلى أنه اختار اسم ابنه (عيسى. . . عبده) دلالة على وحدانية الله سبحانه وتعالى. .

ولئن كانت آمالى فيها دعوت بـه لولـدى الأول رهينة بحجب الغيب فى عشرات السنين، أو تزيد، فإن تسمية الولد الثانى. . احتمال إن شاء الله قريب.

- قام الشيخ عن المجلس ليخلو إلى نفسه طويلاً بين صلاة وتسبيح . . وقال لصهره : قم لعملك يرعاك الله. . وسوف أراك إن شاء الله تعالى إذا انصرفت.

- وفى طريق الشيخ إلى القطار. . أمضى لحظات مع صهره فى مكتبه وحدثه هامسًا. . قال: يا بنى. . إنى عائد إلى حى السيدة زينب، والله يعلم ما أنا فيه، إنك تعيش فى جو من الصفاء لا تعيش فيه كثرة الناس، وإن أعمالك وأقوالك لا يفهمها إلا من أنار الله بصيرته وحاط بدين الله من كل جوانبه، وما أقل هؤلاء فى زماننا. . ثم سكت لحظة وعاد يقول :

ولكنـك يا عبـده قد أتعبتنى منـذ عرفتـك. . ولا أخالـك إلا هكـذا ما حييت. . عفا الله عنك يا بنى، ثم شدّ الشيخ على يد صهره مودّعا، وهو يقول : على أنى لا أضيق بيومٍ التقينا فيه، ولا أتمنى الآن غير الذى جرت به المقادير. ثم انصرف.

وصاحبهما فى الدنيا معروفا

عاد الشيخ إلى داره، وأقبل على ابنته وحفيده، إقبالا غير مرتقب، وطفق يبالغ فى الإكرام والتدليل. . حتى ظنت الأسرة أنه يعمد إلى تغطية ما كان من هزة عنيفة بالأمس القريب، حين وصلت التهانى بالمولود (عيسى) من حى (الظاهر). . وظنت الأسرة أن الشيخ يخاف على ابنته ويريد أن يوهمها بأنه راض.

ولكن صهره الطبيب جاء بعد ذلك زائرًا، وأحاطه الشيخ بالرعاية مرة بعد أخرى، حتى جاء اليوم الذى اصطحب فيه أسرته إلى داره فى (طُرَه)، وإذا بها قد تمت. . فقد قرر الشيخ أن تكون (سيدة) الخادمة المفضلة فى الدار عضوًا فى أسرة الطبيب من يومها هذا لا تفارق الصغير ولا يفارقها. . ولا تُكلَّف بعملٍ إلاّ رعايته، وخلع عليها الشيخ خلعة فى هذه المناسبة. جرت هذه الأحداث سراعًا. . وأسرة الشيخ لا تدرى كيف تبدلت الحال، ومرت الأيام والشهور. . ولا جديد حتى نسيت العاصفة التى هبت من قدوم الولد الأول.

وفى شهر يناير سنة ١٩٠٩، أقام الشيخ حفلاً جامعًا للأسرة وللأصدقاء، تكريمًا لحفيده (محمد عبده). .

قال محدثنا : بأنه سمع من (الخواجة) إبراهيم عبد الملك. . بأنه ما رأى فى حياته يومًا أشد هولاً عليه من يوم الأحد، الذى أعلن فيه رجال الكنيسة طرد ولده الأكبر من رحمة يسوع، وبقيت صورته حاضرة أمام ناظريه وهو يهرول مسرعًا إلى خارج الدار، والهيئة المقدسة تعلن أنه مفقود مفقود. . والجميع يلاحقونه باللعنات والتهديدات والتوعدات.

قال (الخواجه) (إبراهيم) : إن هذا اليوم كان أكثر الأيام حلكة كسواد الليـل البهيم. . ولقد كـانت هذه الصـورة لا تفارقنى لأنها كـانت أسوأ مـا رأيت. . حتى جاءنى الخبـر بأن ولـدى عبده قـد سمى ولـده الثـانى (محمدًا)، فكانت القاضية على ما كان باقيًا عندى من أمل ورجاء.

ومضت شهـور فيها يشبـه الاستقرار، سكنت أسـرة الشيخ عن نشر مخاوفها وإشاعة الشكـوك. . ، ويئست أسرة (الخـواجة) (إبـراهيم) من السراب الذى توهموه بسبب اسم الولد الأول، وانصرف كل إلى شـأنه الخاص، بعد طول اهتمام بالطبيب الشاب وقصته. .

حتى كان صيف عام ١٩٠٩ والأسرة الصغيرة فى حياتها الوادعة على مقربة من سجن طرة، والوقت بعد الظهيرة، والحر قائظ، والطبيب قد أنهى عمله وعاد إلى داره، وإذا بواحد من مساعديه يصعد الدرج مسرعا ويقترب منه. . ويهمس فى أذنه كلامًا هامًّا. .

وبدا على وجه الطبيب أنه لا يصدق ما سمع. . ورفع الطبيب صوته متسائلًا : وأين هو الآن ؟.

قال مساعده : إنه يقف بباب الدار. . ونزل الطبيب الشاب مسرعًا من فوره. . وعاد ومعه ضيف من القاهرة.

- كان هذا الضيف هو (الخواجـة) (إبراهيم) والـد الطبيب. . وقـد وصل فجأة بعد قطيعة تامة ومتصلة، مذ كان ولده فى فترة الامتياز بالقصر العينى، فانسحبت الزوجـة والمربيـة والطفـلان إلى داخل الـدار، وبقى الطبيب ووالده لا يجدان عندهما ما يقال. . بعد أن كانا قد تبادلا التحية والمجاملة فى اقتضاب.

- قال الطبيب : كيف أنت يا أبى ؟؟ وكيف حال أمى وإخوتى ؟

– وإذ همّ الوالد بالجواب. . احتبست الألفاظ فى صدره. . واعتمد رأسه بين يديه لحظة، ثم انهارت بقية المقاومة التى كان يعانيها منذ وقت طويل مضى، فانفجر ينتحب كالثاكلات، ولم يحاول ابنه أن يمنعه، بل تركه برهة وأخلى له المكان حتى يفرج عن نفسه همومه.

وأقبل الطبيب على أبيه حين عاوده الهدوء، وقال: ماذا بك يا أبى؟ وكيف أمى وإخوتى؟

قال الطبيب: إنهم بخير نحمد الرب. . ولكن أباك هو الذى على حافة الهاوية!!

قال الولد: هوّن عليك. . وأشركنى فيما يئودك حمله، لعلى أكون فى عونك!!

قال الوالد: لهذا جئت إليك. ولا أخفى عنك أننى ما سعيت إليك إلا بعد أن انسدّت الدنيا كلها فى وجهى. . وكادت الفضيحة أن تحطم حياتى.

ثم سكت لحظة عاد بعدها يقول وقد تهدج صوته من جديد، يا (عبده): إن البيت الذى ولدت فيه ونشأت حتى أتممت معظم دراسة الطب، هذا البيت الذى يؤوينا ويتسع لأسرتنا كلها، سيباع فى غد بأبخس الأثمان، أمام دائرة البيوع بالمحكمة المختلطة، وفاء لدين استحق للبنك، كان الدَّيْن صغيرًا. . ولكن الفوايظ ومصاريف التقاضى ضاعفته. . ولله الأمر.

ظل الطبيب ساكنًا يتأمل هذا الحديث المفاجىء. . وعاد والده يقول: وأختك يا (عبده). . أختك (ماريجوه) ابنتى الكبرى. . سيكون إكليلها بعد أسبوع واحد. . ولا أعلم كيف أوارى فضيحتى المالية وطردى من بيتى عن أصهارى الذين يحسنون بى الظن، ومن أجل ذلك جاءوا للمصاهرة؟

وأى مصير سيواجه شقيقاتك الأخريات إذا خاب زواج الأولى بسبب إعلان إفلاسى؟

وإذ ذكر الأب ابنته الكبرى، وفرحتها المهددة دون أن تدرى، وإذ ذكر بقية البنات والأولاد وما هم معرضون له جميعًا من مصير غامض.. أظلمت الدنيا فى وجه الرجل، وخانته قواه، فعاد يبكى وينتحب، فى مرارة شديدة، حتى رجاه ابنه أن يتجلد حتى يتم الحديث.

وسأل الطبيب أباه: وكم تبلغ القيمة؟

- قال الوالد: ثمانمائة جنيه.. والبيت كما تعلم يساوى أضعاف هذه القيمة!! ولكن جلسات البيع يسودها جو من المناورات والاحتكار البشع.. وإن موظفى البنك أنفسهم يحيطون مثل هذه البيوع بإجراءات جهنمية، تكفل لهم توجيه البيوع على هواهم.

- قال الطبيب: .. إن هذا عجيب!! أو ليست المحاكم تقوم من أجل الحق والعدل؟؟ فبكى الوالد فى مرارة وقال: يا بنى، إنك تعيش فى برجك العاجى، بعيدًا عما يدور فى الأسواق من ظلم وفساد.. إن الدَّيْن الصغير يا بنى يكفى للإطاحة بثروة كبيرة.. وبخاصة إذا وصل الأمر إلى دائرة البيوع، حيث يُدفعُ المبلغ المحكوم به كاملاً، نقدًا وعدًّا فى الجلسة العلنية.. ومن حول هذه الجلسة الثابتة المواعيد زبانية عتاة، يتسمعون الأخبار ويتعرفون على كل وافد للمزاد، حتى ينسحب، أو يخضع لتنظيم جائر يحصر البيوع فى عدد من المحترفين.

وهؤلاء بطول الممارسة.. كونوا ثروات كبيرة، وأموالهم الحاضرة فى جيوبهم تكفى فى كل جلسة لتوجيه البيوع لصالحهم.. وكما ذكرت لك فإنهم يتصلون بموظفى البنوك ويعلمون من أسرار الناس ما ينتفعون به فى الإجهاز على من يقع فى أيديهم.. فى أنسب الأوقات.

– قال الطبيب : لماذا لا تدفع جانبا من الدَّيْن، ثم تتدبر فى أمر التسوية الشاملة. . فى فسحة من الوقت؟

وكأنما شعر الوالد أن ولده لا يريد أن يمد له يد المساعدة، فقال بشىء من نفاذ الصبر : يا بنى يا (عبده) : قلت لك إن هذا كله قد فات أوانه، إننى أواجه حكمًا بنزع الملكية وفاء لدَيْنٍ مقداره (. . . .) وإن قلم الكتاب يحصى الأصل والفايظ والمصاريف وما من رقيب، وإن سماسرة السوء والكسب الحرام وسادتهم من المرابين يملكون الجلسة، وكأنها عمل خاصّ بهم، والقضاء لا يستطيع أن يحسم الداء الذى بدأ ينتشر فى الآونة الأخيرة، وما هذا البيت الذى يحزننى فقده إلا شيئًا تافهًا بين يدى هؤلاء الدهاة، ولكنه مأوانا وملاذنا منذ نصف قرن مضى. . ثم سكت فيما يشبه اليأس، وعاد بعد لحظات يقول : عفوًا يا بنى. . لقد أفسدت عليك وقت الراحة، والجو شديد الحرارة، ولكن عذرى واضح لك، ولى معك كلمة أخيرة أقولها وأنا واثق من أن جميع إخوتك يؤيدونها راضين. . وأنت يا (عبده) أوْلى من الغريب، فتعال معى فى جلسة البيوع، واشتر أنت البيت قبل جلسة المزاد لقاء دفع قيمة الحكم كاملة. . فلا يضع الغريب يده على دارنا، ويسىء إلى أبيك وسائر أفراد أسرتك.

قال الطبيب لأبيه : وهذا ظنك بى يا أبى؟ أن أستفيد مما أنت فيه من ضيق؟؟

– قال الوالد : ما قصدت شيئًا من ذلك أبدا. وإنما أقول أنت أوْلى من الغريب، ثم إنك لن تلقى بأهلك إلى الطريق العام إن قصّروا فى دفع الإيجار، ثم إن لك أسرة خاصة الآن. . ولأولادك حق على مالك، وهذا ما قصدته حين قلت لك أنت أوْلى من الغريب، فلا تزدنى ألمًا، وبحسبى ما أنا فيه.

- قال الطبيب : لا عليك. . اصبر يا والدى وأذن لى بتركك برهة قصيرة.

ودخل إلى حجرته الخاصة. . ثم عاد يحمل شيئًا فى يده كأكياس الصيارفة ودفعه إلى أبيه. . وقال : هذه ثمانمائة جنيه ذهبًا. . هى لك يا أبى فتصرف فيها كيف تشاء. .

دهش الوالد من هذا التحول من الجدال إلى الفعل الناجز، وسأل فى تكرار : والدار، متى تحضر لاتخاذ إجراءات نقل ملكيتها إليك؟

قال الطبيب : لا حاجة لى بها. . إلا أن تبقى دارًا لك أنت، فأنت والد الجميع، ومن مركزك فى الظاهر وفى الجمالية. تستمد الأسرة كلها تقدير الناس، وإنى ليسرنى أن تبقى محل ثقة الناس واحترامهم.

- وضع الوالد كيس المال بجواره على الأريكة، وأطرق وهو يقلّب عصاه بين يديه. .

ويقول فى صوت خافت تتجاوب فيه أصداء من الشعور بالخجل وبالصَّغار. . (ماذا صنعت بك وأنا قادر عليك. . وماذا صنعت معى وأنت قادر علىَّ) وتساقط الدمع من عينيه فى صمت ذليل. . حتى رقَّ له قلب ولده فبكى لبكائه. .

- وانصرف (الخواجة) (إبراهيم) بالمال، ونجا من ضائقة كادت تعصف به. . وعاد الطبيب إلى داره بعد فترة قصيرة قضاها فى وداع أبيه إلى أن تحرك القطار.

كان الطبيب منهكًا وهو يعود إلى بيته، وفى الطريق كان يُمنِّى نفسه بساعة من النوم العميق. . ولكنه أخطأ الحساب وأسرف فى الأمل. فما أن دخل داره التى تركها من برهة قصيرة، وغادرها وهى هادئة ساكنة، حتى صارت مسرحا لأحداث غريبة تجرى سراعًا.

فها هو يرى (سيدة) المربية عاكفة على (صرة) ضخمة من لوازم الدار، وملابس الصغار والكبار، تنسق شيئًا من فوق أشياء.. وإلى جوارها (صرة) أخرى فرغت من شد وثاقها..، والصغيران قد وضعا فى ثياب الزينة والزيارات، وزوجته تذهب وتجىء من ركن فى الدار إلى درج يؤدى للسطح، وهى فى عدوّها ورواحها تنقل الأشياء، وترفع بعضها وتضع بعضا آخر، لا تلتفت إلى هذا القادم إلى داره يريد شيئًا من الراحة بعد ما كان بين الظهيرة وعصر ذلك اليوم من أحداث مفاجئة.

ظل الطبيب يرقب هذه الحركة الناشطة، وسكت عن السؤال بعد أن وضح له أن أهل الدار قد صاموا عن الكلام، وأنهم قد اعتزموا أمرًا.. ظل يرقب ويرقب.. حتى رفعت الزوجة أصغر الولدين على ذراعها الأيسر وأسندته إلى كتفها.. وأمسكت بيد الولد الأكبر.. ورفعت المربية (صرة) بعد أخرى.. وكان مزاج العصر فى الطبقة الوسطى أن تكون لكل دار مجموعة فاخرة أو متواضعة من (الصُرَّات) لنقل الملابس والحاجيات الصغيرة فيها من مكان إلى مكان.. فقد كانت حقائب السفر لم تنتشر بعد..

واستعد الركب للرحيل.. وتقدمت الزوجة نحو الباب وهى ثابتة على صمتها، وفى عينيها أثر واضح لدمع تغالبه، وجاءت المربية من خلف سيدتها.. والطبيب الذى أجهده عمله طول اليوم ومن بعده لقاؤه المثير بأبيه، ساكن فى ضيق وصبر.. فإن الوقت لم يكن مناسبًا لإعلان الغضب عليه، بل إن أبسط قواعد الرحمة به كانت تكفل إمهاله حتى يريح جسده ويستعيد من طاقاته ما تبدد.. ولكن هكذا وجد الحال فور عودته، فماذا يفعل؟

– تقدم الطبيب خطوة إلى مدخل الدار، واعترض سبيل زوجته وهى

توشك أن تنصرف، فتوقفت.. قال: إلى أين؟.. ولا جواب..

والصغير على كتفها.. والمربية تحمل (الصرات) والزوج لا يتحول عن مدخل الدار ولا يسمح لزوجته بالخروج.. وهذه حال لا يطول الصبر عليها.. فهبطت الأحمال التي على رأس (سيدة) إلى أرض الصالة.

وتقدمت الزوجة من زوجها قائلة: ابتعد ولا تعترض طريقى.

قال: حتى أعرف إلى أين؟

قالت: كنت واهمة كما أنت واهم الآن تمامًا.

قال: كيف؟

قالت: إن ما بيننا قد انتهى.

قال: وما الأسباب؟

قالت: ما من سبب ولا غضب.. يكفى أن تعلم بأنك مجنون.. وأنا لا أعاشر المجانين!!

- لم يكن الطبيب قد سمع من زوجته الوديعة المهذبة كلاما كهذا فى أشد الأيام التى مرت بهما.. وبدا له أنها فى حالة من الثورة النفسية التى لا يؤمن معها نقاش أو جدال.. لذلك لجأ إلى الحكمة، وخلى بينها وبين مدخل الدار.. وقبع فى زاوية من الأريكة يرقب التطورات.

- انفجرت براكين الغضب الكامن فى أعماق الزوجة.. وأغراها سكوت الطبيب.. فسألته فى حدة؛ أعرفك لماذا أنت مجنون؟؟ إنك تصبح وتمسى ولا تذكر إلا الموت.. ولا حديث لك إلا عنه، وأنه قريب من الآدمى.. وكلما خلوت بى أوصيتنى بولديك خيرًا إذا سبقت المنية إليك.. فكيف يا ترى تحقق وصيتك فيهم، إن كنت تتلف المال بهذه الطريقة؟ أما علمت أن هذا المال هو حصاد تدبيرى طوال سنوات انقضت

من عمرك فى الوظيفة والمهنة جميعًا؟ ثم سكتت تغالب دمعها حتى ملكها الغضب من جديد، فقالت : وإلى من دفعت المال؟ إلى من يحترم أصهارك ويحب ولديك؟ إلى من يؤتمن على تربيتهما من بعدك؟ إذا وافاك الأجل صغيرا كما تقول؟

ثم أقبلت على زوجها، وجلست فى مواجهته، وعلا صوتها وهى تقول : لقد نظرت فى خزانتنا فما وجدت إلا حفنة من الدراهم، وكل ما عندنا من مال للزمن ذهب به أبوك. . فمن أبوك هذا؟ ولماذا لم يتذكرك إلا حين أظلمت فى عينيه الدنيا وسدت فى وجهه أبواب الخلاص؟

أو ليس أبوك هذا هو الذى طردك من الدار ليلًا كما تقول؟

أو ليس هو الذى أغرى بك الأهل والكنيسة ليطاردونك ويلاحقونك بالأذى وسوء السمعة؟

أو ليس هو الذى قاطعك خمس سنوات أو يزيد. . ولا يعنى بشىء من أمرك، إلا أن يكون شامتًا فيك أو ساخرًا منك ومن أبى الذى آواك وزوجك من ابنته؟

واستمرت الزوجة تكيل له شديد التقريع والتأنيب، فى غضبة جامحة. . والطبيب يتذرع بالصبر ويلوذ بالصمت.

وعلى حين كانت الزوجة لا تزال ترميه بحمم الغضب، كان هو يتفكر فى اللقاء الذى تم بينه وبين أبيه، وقد شعر بأن حق الوالد كان مرعيًا فى هذا اللقاء.

ولكن ترى ما حال الحقوق الأخرى التى لزوجته وأولاده عليه؟ وتأمل الطبيب الموقف من جديد وهو يسائل نفسه : ترى هل أصبت فى التصرف؟؟ أم أننى قد أصبت فى شىء واحد على حين غابت عنى أشياء؟

وتطلعت إليه الزوجة فوجدته غارقًا فى تفكيره، فلم تجد بدّاً من المضىّ فيما أعلنته من هجر داره إلى دار أبيها. . وصمتت تلتقط أنفاسها، بعد أن أفرغت كل ما عندها من عبارات اللوم والتسفيه، ثم حملت ولديها وأمرت (سيدة) أن تسبقها متجهة إلى محطة القطار. . وهكذا انصرف الجمع الصاخب الغضوب، وهدأت الدار بعد الضجيج.

واتجه الطبيب إلى حجرته الخاصة، وقد بلغ منه الإجهاد كل مبلغ، فرمى بنفسه على فراشه. .

– وفى الصباح الباكر من ثالث أيام مغادرة زوجته ومن معها لبيته. . إذا بصهره يدخل عليه. . ومعه الأسرة الصغيرة. . و(سيدة) تحمل فى العودة أضعاف ما حملته عند مغادرة الدار، ودلفت الزوجة وهى تحمل ولدها الصغير وتمسك بيد الكبير إلى حجرة النوم، فى صمت وخجل، وهى تتجنب النظر إليه، وتختصر فى رد المقال عليه، وانسحب النساء والصغار بعد ذلك إلى الداخل، وبقى الشيخ والطبيب يتجاذبان أطراف الحديث فى هدوء يسوده الكثير من الوئام والرضا. .

– قال الشيخ: ما عرفت على ابنتى أنها كاذبة أبدًا. . وإنى لأحمد الله على ذلك حمدًا كثيرًا. . ولقد قصّت علىّ كل ما جرى بينكما فى الأيام الأخيرة، وذكرت لى ما وجهته إليك من أقوال وأفعال ونعوت وكذا تصرفك معها، ورأت بعد أن سكت عنها الغضب أنها أخطأت من الألف إلى الياء.

– ضحك الطبيب الشاب وهو يقول: ما أظنها جرأت يا عم على أن تنقل إليك ما ألقت به فى وجهى من قصائد المديح والثناء!!

– قال الشيخ: إننى لا أستبعد برغم صدقها أن تكون قد اقتصدت فى هذا الأمر، حياء مِنِى حين أحست بخطئها، ولكن على أية حال. . فلقد

كان القدر الذى ذكرته لى، واعترفت به أمامى، كافيًا لإدانتها والحكم ببراءتك، وما بك الآن من حاجة إلى إحصاء المزيد من الحيثيات ثم إن الشيخ ترك هذا التبسط فى القول.. فانتقل بالحديث إلى الموازنة بين واجبات الزوج نحو أسرته الصغيرة الناشئة وما يواجهها فى الحياة من أدوار تتطلب الاستعداد لها، من جهة، وبين واجباته نحو أهله بوجه عام، ووالديه بوجه خاص.

وكان الشيخ يمهد بهذه المقدمة لإبداء رأيه فيما وقع على ابنته وولديها من غبن واضح فى مال أبيهم، لذلك ما لبث أن استأنف الحديث بعبارة أكثر صراحة فقال: وفى حالتك يا دكتور (عبده)، فأنت أدرى الناس بما حدث.. ثم إن والدك هذا قاطعك سنوات طويلة.. ولم يظهر فجأة فى حياتك وحياة أولادك، إلا ليستدر عطفك عليه وهو فى محنة تمس البيت كله، فبأى حق يطلب منك النجدة؟ ولماذا جاء الآن فقط يرجوك أن تنقذ بيته ومستقبل ابنته، وهو يعلم أن الدين قد فرق بينه وبينك؟ وأنك لن ترثه هو ولا أمك ولا أحدًا من سائر قرابتك.. كما أنهم ليس لهم حق الإرث فى مالك!!

كان الطبيب مطرقًا برأسه وهو يستمع، ثم رفع رأسه وهو يجيب على هذا التساؤل.. وقال: لقد أحسنت إلى أبى يا عم بحق الوصية التى فرضها له الملك الديَّان، وبحق القرآن الذى آمنت به وجعلته سبيلى إلى طاعة خالقى الذى هدانى.. أوَليس قد جاء فى القرآن قوله تعالى: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حملته أمّه وهنًا على وهنٍ وفصالُه فى عامين، أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا، واتّبع سبيل من أناب إلىَّ، ثم إلىَّ مرجعكُمْ فَأُنبِّئكم بما كنتم تعملون﴾؟

قال الشيخ : بلى . . وصدق الله العظيم .

قال الطبيب : أوليس قد جاء فى كتاب الله الكريم المحكم قوله تعالى : ﴿ووصَّينا الإنسان بوالديه حسنًا، وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما، إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ ؟ .

قال الشيخ : بلى . . وصدق الله العظيم .

وساد الصمت بينهما برهة . . تدبر كل من الرجلين خلالها معانى الآيات الكريمة وأهدافها النبيلة . . ثم ما لبث الطبيب أن قال : إن هذه الآيات يتلوها كل مسلم . . ويؤمن بها كل مهتد . . وما فى ذلك من ريب . . ولكن حدّثنى بربّك يا عمّ فأنت رجل علم وتجربة : ألست ترى معى أن هذه الآيات تأخذ بناصيتى وبناصية كل عبد هداه الله، من بين فئة كبيرة على ضلال ؟

لكن الشيخ ظل ساكنا لا يبدىء ولا يعيد، على حين تذكر الطبيب فجأة الوقائع التى مرت به تباعًا فى السنوات العشر الماضية مذ كان لا يزال طالبًا بالمرحلة الثانوية . . وما تلا ذلك من أحداث . . فاستطرد قائلاً :

لقد جاهدانى . . وأشهد الله . . ولعل أبى كان أشد قسوة . . لكن أمى كانت تراقبنى، وتمهد لمن يراقبنى وتغرى بى أبى وأخوالى وإخوتى، ظنًا منها بأن فى هذه الملاحقة الخير لى . . وقد ربط الله برحمته على قلبى فما أطعتهما . . وضربت الأيام بيننا حجابًا من مشاغل الحياة، ومن ضيق النفوس بالقيل والقال .

وما أظننى على صواب فيما كان من قطيعة . . لأن الله جلَّ وعلا يقول :

﴿وصاحبهما فى الدنيا معروفا﴾ فأى معروف هذا وأنا لم أصاحبهما، بل كنت وكانوا يصرون على قطع ما بينى وبينهما، وأى صنيع سيىء أكون قد

صنعت لو أننى تركت أبى يعود من زيارتى ولم أنقذه، على حين ظلّ المال راكدًا فى خزانتى ؟؟

أتظن يا عم أن المال هو الذى يصلح من شأن العيال بعد فقد عائلهم ؟ أعتقد أنك تعلم أن الأمر على خلاف ذلك. . أمّا الحق فهو ما أنبأنا به القرآن حيث يقول سبحانه من سورة الكهف : ﴿. . . وكان أبوهما صالحًا﴾.

ظل الشيخ صامتًا مطرقًا. . وعاد الطبيب يقول فيما يشبه الاستفهام : أو لا ترى معى يا عم أن مجيء أبى إلى دارى خاصة بعد ما سمع بمولد محمد، قد كان من جانبه كَرِكُوب أشدّ الأهوال وأقساها؟ أو لا ترى أن مجيئه إلى بيت ولده الذى عرف حقيقة أمره هو نصر لى من عند الله ؟

إننى لا أنكر أن التصرف الذى صدر عنى قد مس حقوق ولداى وزوجتى. . ولكن المبادرة كانت قضاء لا فكاك منه.

ومع ذلك يا عم. . فإننا إن يكتب الله لنا عمرًا فسننظر فيما تأتى به المقادير إن شاء الله تعالى.

قال الطبيب ذلك وقد اعتزم فى نفسه أمرًا.

* * *

نهض الشيخ يريد الانصراف بعد ما سمع دفاع صهره الطبيب الشاب، وإذا بابنته تعترضه وتتشبث به لتطيل بقاءه، ورفع الشيخ عصاه فى وجه ابنته. . لكن الزوج كان قد أسرع إليه. . وقال : ما هكذا يا عم علمتنا أن يكون الإقناع. .

قال الشيخ لابنته : اسمعى يا هذه. . إنك هوجاء لا تعقلين. . إنك لا تعرفين قدر هذا الرجل الذى معه تعيشين. . فاحمدى الله أن رزقك

بمثله . . ولتحذرى بعد اليوم أىَّ إساءَةٍ له . . أوسوء فهم لراشد تصرفاته .

وكان هذا الموقف فاصلاً بين عهد لا يخلو من قلق وارتياب . . وعهد جديد ساده الاطمنان إلى حسن إسلام الطبيب وصدق إيمانه . . وزاد الطبيب اقترابا من الأسرة ومن الناس . . واتجه إلى الخروج من عزلته التى كان قد ضربها على نفسه وارتاح لها فى خدمة السجون . . فالتحق بوزارة الصحة وأنجب ولدين آخرين هما (محمود) و(إبراهيم)، حين كان طبيب مركز (السنبلاوين) نحو أربعة أعوام، ثم حملت زوجته من جديد فقال هو : علىٌّ أوْ هِىَ عَلِيَّةٌ . . فكانت علية التى توفى عنها أبوها وهى طفلة عمرها شهرين حين كان طبيبًا لمركز (ههيا) . وكانت جيوش الحلفاء الكبرى تنتقل فى بعض مواقع محافظة الشرقية . . وكان قد انتشر بين الجنود وباء التيفوس . . فانتقلت العدوى إليه أثناء عمله فى المخيمات التى يعزل فيها المرضى، وأحس الطبيب الشاب بدنو الأجل، فقد كان رحمه الله صالحًا شفاف البصيرة، وكأنما خاف على زوجته وأولاده مما سيلاقونه لو وافته المنية بعيدًا عن الأهل . . فحزم حقائبه وأغلق داره وعيادته واصطحب زوجته وخادمته وأولاده، وشغل ديوانًا مستقلا بالقطار حتى لا تنتقل العدوى منه إلى غيره من الركاب، حتى وصل إلى منزل صهره الفاضل المرحوم الشيخ عبدالحميد مصطفى .

لكن إخلاص صهره . . وسهر زوجته . . وصغر سن أولاده . . ومهارة معالجيه من الأطباء، لم تفلح جميعها فى تأخير لحظة النهاية . . فوافاه أجله المحتوم بعد ستة أيام فقط من مرضه . . وكان ذلك بعد مغرب شمس يوم ١٨ يونية سنة ١٩١٨ . . بعد أن ضرب للبشر مثلاً سامِيًا فى إصراره وشجاعته وحسن إسلامه وصدق إيمانه .

وقد منح رحمه الله للبشرية أبناء نافعين مؤمنين، عاش منهم حتى خلّد

اسمه وذكره الدكتور (عيسى عبده) العالم الاقتصادى الإسلامى المعروف والدكتور مهندس (محمد عبده) أستاذ الهندسة بجامعات سويسرا. . ومن بعدهما أولادهما نفع الله بهم وطنهم وأمة المسلمين. . ورحم الله صاحب هذه القصة ومن أحبه وآواه ونصره. . ومن خلف من نسله ونسل أبنائه. .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٤ - لماذا أسلم
ألفونس إينين دينيه (الفرنسى)
وسمى نفسه ناصر الدين؟؟

بطل هذه القصة فنان مرهف الحس، رفاف الشعور، رقيق الطبع، قوى العاطفة، ولد فى باريس ١٨٦١ ميلادية، وعاش فيها متنازعًا بين عشقه لفنه الذى وهبه خلاصة حياته وبين طبيعته المتدينة، وفطرته السوية وضميره المتيقظ، ولقد استولت قضية الفن وقضية الدين على فكره استيلاء جعله دائم التأمل فى نفسه وفى الكون من حوله، فعاش يتوق إلى معرفة الحقيقة ولو عن طريق كشف الحجب وظهور المستور. وقد انصهرت فى داخله كل هذه النوازع والميول والأفكار فخلقت منه ذلك الفنان الملهم الذى عرفه العالم بعد ذلك فى عديد من اللوحات الصادقة الخالدة التى عرضت فى طول وعرض المعمورة.

وحين ولد ألفونس بين أبوين مسيحيين فى باريس، أخذ أبواه يعلمانه أصول العقيدة المسيحية نظريًا، ثم ذهبا به إلى الكنيسة لتعميده ككل مسيحى فمارس المسيحية عمليًا، وشب وترعرع على عقيدة التثليث والصلب، وفداء المسيح لكل البشر ليخلصهم من ذنوبهم.

وقد التقت ميوله الفنية وفطرته المتدينة عند فكرة الخلود، ذلك أن كل فنان إنما يجد ويجتهد ويبدع ويجدد لتنبض ريشته بما تجيش به أحاسيسه وما يدور فى وجدانه، وما يشغل فكره من أخيلة ومعانى، ليصوغ فى النهاية لوحة تحيا مع الحياة معبرة عنها دالة عليها، داعية إلى حبها فيكون لمن

رسمها بما تركه من أثر فى الناس - الخلود.

كذلك فإن أصحاب الطبيعة المتديّنة إنما يرمون من وراء كل عمل فى دنياهم إلى جزاء أخروى يجعلهم من الخالدين فى النعيم الفردوسى الأعلى.. ولقد سار تفكير ألفونس فى فنّه ومصيره فى خطين متلازمين، فعلى حين كان يسعى جهده ليبلغ ذروة فنه، فقد كان يعمل جاهدًا لإزالة الظلمة المتكاثفة على عقله فى دائرة اللانهاية.. وها هو أخيرًا قد وجد الرضا عن فنه بعد أن عثر على الصيغة التى طالما عاش ينشدها.. لكن ما العلاج لطبيعته الدينية القلقة؟

وعاد ألفونس يسترجع فى ذاكرته ما مضى من عمره، وما لقنه له أهله عن دينه فى الكنيسة، وبحث وأطال التأمل والنظر، وعاود التفكير فى الكون، وفى النصوص المقدسة، وفى الكنيسة، وفى البابا المعصوم، وفى عقيدة التثليث والصلب والفداء.

قالوا له: إن المسيح ابن الله،.. وهو الله.. وهو بشر. وهو إله،.. الأب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم. أقنوم واحد.. وأنه صُلب ليطهّر بنى البشر من اللعنة التى حلت بهم بسبب خطيئة آدم!! أجل صلب ليفتدى البشر.

ودار رأس ألفونس، ولم ير فيها فكر فيه بارقة أمل فى أن يهتدى بشىء منه إلى نور الحق وسأل نفسه: هل فيما علموه لى حق أهتدى إليه؟ وهل فى الظلمة من نور؟؟ ولم يشأ أن ينطق بالإجابة..

لكن ألفونس لم ييأس، بل أعاد قراءة الأناجيل من جديد محاولاً جهده أن يمسك فيها بشرارة تضىء له، أو بارقة أمل علّه يجد على الأمل هدى، فإن وجدها فسيجد راحته فى أن يؤمن بابن الله، وبالكاثوليكية.

ولكن ما هذا الذى يحدث له؟ إنه بدلا من أن يجد اليقين والراحة

بتكرار قراءته للأناجيل وتدبر ما فيها، فقد رأى فيها ما يتنافى مع الصورة المثلى للإنسان الكامل فضلاً عن الصورة التى تريد المسيحية أن توحى بها.

فقد ذكرت الأناجيل[1] على لسان المسيح قولاً فيه حطة واحتقار لأمه العذراء.. من ذلك ما صدر منه فى عرس (قانا):

«وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل، وكانت أم يسوع هناك، ودعا أيضا يسوع تلاميذه إلى العرس، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر، قال: يسوع: **مالى ومالك يا امرأة**».

ولم يُرْضِ ألفونس هذا الذى قاله المسيح فى صلته بأمه، فرجع إلى القرآن يسأله؟ ومن عجب أن يجد فى القرآن.. ﴿فأشارت إليه، قالوا: كيف نكلم من كان فى المهد صبيا؟ قال: إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا وجعلنى مباركًا أينما كنت، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا، **وبرًا بوالدتى** ولم يجعلنى جبّارًا شقيًا، والسلام علىّ يوم ولدت، ويوم أموت ويوم أبعث حيًا﴾.

وعاد ثانية إلى الأناجيل يسألها: فوجد من أقوال المسيح التى تحمل فى طياتها اللعنة على شجرة تين لم تحمل ثمرها، لأنه لم يكن موسم تين: (فنظر شجرة تين من بعيد، عليها ورق، وجاء لعله يجد فيها شيئًا، فلما جاء إليها لم يجد شيئًا إلا ورقا، لأنه لم يكن وقت التين. فأجاب يسوع وقال لها: **لا يأكل أحد منك ثمرًا بعد إلى الأبد**. وكان تلاميذه يسمعون[2].

كذلك من أقواله الدالة على كره الغريب: (... وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمنى يا سيد يابن داود، ابنتى مجنونة جدًا فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين:

---

(1) إنجيل يوحنا، الإصحاح الثانى عشر.

(2) إنجيل مرقص. الإصحاح الحادى عشر.

اصرفها لأنها تصيح وراءنا فأجاب وقال : (لم أرسل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة)[٣] ومن أقواله التى توجب كراهية الأقرباء : (. . إن كان أحد يأتى إلىّ ولا يبغض أباه وأمه، وامراته وأولاده، وإخوته فأخواته، حتى نفسه أيضا، فلا يقدر أن يكون لى تلميذًا)[٤].

ومن أقواله التى فيها اعتراف بالجهل : (. . . وأما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين فى السماء، ولا الابن إلا الأب)[٥].

يقول الفونس : (وهذه نصوص بعثت الشك فى نفسى فى صحة الأناجيل التى بأيدينا)[٦] وقد أدى هذا الشك بألفونس إلى البحث فى صحة الأناجيل وفى قيمتها من الناحية التاريخية، وكانت نتيجة بحثه أنه لا شك أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه، ولا شك أيضًا أن هذا الإنجيل قد ضاع وأندثر، ولم يبق له أثر، أو أنه قد أبيد[٧]، ولهذا فقد جعلوا مكانه توليفات أربعة مشكوكا فى صحتها وفى نسبتها التاريخية، كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية، وهى لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية (التى هى لغة سامية) لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود، ورأى فى النهاية بوضوح :

(أن الديانة الكاثوليكية لا تتحمل البحث والمناقشة، فقد أظهرت الأدلة العديدة سواء أكانت أخلاقية أو تاريخية أو عملية أو لغوية، أو سيكولوجية أو دينية . . أن الكاثوليكية ملأى بالأغلاط الواضحة).

---

(٣) إنجيل متى : الإصحاح الخامس عشر. (٤) إنجيل لوقا : الإصحاح الرابع عشر.

(٥) إنجيل مرقص : الإصحاح الثالث عشر.

(٦) عن (أشعة خاصة بنور الإسلام) . . الفونس ايتين دينيه : ترجمة راشد رستم.

(٧) عن (أشعة خاصة بنور الإسلام).

ولم يمكنه أن يقول ما قال القديس أوغسطين مما يعتبر شعار كل مسيحى : (إننى أومن بذلك : لأن ذلك غير معقول).

لذلك فقد ثار شعور ألفونس الدينى على هذه الأوضاع المبهمة، والألفاظ - الغامضة، والمشاكل التى لا تحل، فانتهى به المطاف بعد البحث والجدل والمناظرات والتأملات إلى رفض المسيحية، وبلغت حيرته حينئذ أشدها، ولكن اليأس لم يتطرق إلى نفسه قط.

لكن ألفونس عاد يحاول من جديد وهو يقول لنفسه : (إذا كنت لم أجد الهداية فى المسيحية فليس معنى ذلك أننى لن أجدها مطلقًا. . حقا إنها عزيزة المنال ولكنها موجودة. . وكل ما يجب علىّ الآن هو البحث عنها).

وبدأ ألفونس مشواره بخطوات عازمة، ورأى أن يتجه إلى العقل، يستمد منه الهداية إلى الطريق المستقيم، لكنه انتهى إلى أن العقل عاجز فى ميدان ما وراء الطبيعة.

وفى الواقع : (يسعى كثير من ذوى العقول المستنيرة - بعد أن أفاقت من غفلتها، وبعد أن عرفت إخفاق مذهب استقلال العقل بالمعرفة - لتعرف طريق الهداية، وأن مذهب الحدس الذى يتهافتون عليه خلف حامل لوائه المسيو (برجسون) الشهير، هو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة، أو هو - وهو الأصح - رد فعل لعجز هذا المذهب.

فقد جدد هذا المفكر فى قلوب الناس الحنين إلى الإيمان آمالا، كان يظهر أنها ضاعت ضياعًا نهائيًا، فهو يأذن لهم بأن يأملوا فى خلود الروح ويقول لهم : إن الدنيا ليست مشتبكا عظيمًا لقوى عمياء، وإن العقل ليس هو الطريقة الوحيدة للمعرفة)[8].

(٨) ناصر الدين : محمد رسول الله.

أخفقت المسيحية فى إرضاء ضمير ألفونس الدينى، ثم ها هو العقل أيضا قد أخفق فى قيادته إلى النور.. فإلام يتجه إذن؟

وتلفت ألفونس حوله، ونظر فيمن شكوا فى المسيحية، وشكوا فى العقل أمثاله عله يجد عندهم الدواء الذى يصيب به لنفسه الشفاء، فرأى: (أن نفرًا من النصارى فى مختلف الأقطار الأوروبية دانوا بالإسلام، فى الأعوام الأخيرة،.. وأن عددهم يكثر على مر الأيام، وأن فى لندن وليفربول جماعات إسلامية ذات شأن حقيقى، وأن منهم عددًا من أعيان الانجليز)[9].

وتأكد لألفونس أن (الذين يعتنقون الإسلام فى وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم، إنما هم من الخاصة، سواء كانوا فى الهيئات الاجتماعية الأوروبية أو.. الأمريكية، كما أن إخلاصهم فى ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكون عن الأغراض المادية)[10].

وتبين له (أنه يوجد فى جميع أنحاء أوربا وأمريكا من اعتنقوا الإسلام، وإذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية إذا نظرنا إلى قلة عدد المعتنقين، وإن كان عددهم لا بأس به، فإنه ذو أهمية كبرى، نظرًا لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة ومنهم على سبيل المثال: (اللورد هيدلى) الإنكليزى، و(كرسيتان سرفيس) أحد تلاميذ (أوجست كومت)، وأديبا من أدباء فرنسا المعدودين، وفيلسوفا من فلاسفتها المشهورين.

وعاد ألفونس بعد الملاحظة يسأل نفسه: ترى ما الذى يدعو أمثال هؤلاء، وهم على ما نرى من تميزهم - إلى اعتناق الإسلام؟؟

---

(٩) الشرق فى نظر الغرب: تأليف ناصر الدين.

(١٠) أشعة خاصة بنور الإسلام.

وما هى الميزات والخصائص التى تجعل الإنسان يمنح الإسلام من الثقة ما لا يمنحه للمسيحية؟

لكن الله كان قد أذن له بالهدى.. إذ وقعت فى يده نسخة من مجلة إنجليزية فإذا به يجد فيها الجواب عما أخذ يعتمل فى ذهنه من أسئلة:

لماذا صار بعض الإنكليز وغيرهم من الأوروبيين مسلمين؟

ذلك لأنهم أولاً: كانوا يتلمسون عقيدة سهلة معقولة عملية فى جوهرها - (لأننا معاشر الإنجليز نتبجّح بأننا أكثر أهل الأرض تشبثًا بالعمل) - عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم، عقيدة دينية صحيحة، يقف بها المخلوق أمام الخالق، بدون أن يكون بينهما وسيط). (شلدراك).

أحق هذا؟؟ سأل ألفونس نفسه.. وألفونس لا يأخذ الأشياء قضية مسلمة، وإذا كان العقل يعجز عن اختراق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة فإنه مع ذلك، هو الأداة التى ترشدنا إلى وجه الحق فيما يعرض لنا من أمور.. فأخذ يزن الأمور... وأخذ يبحث.. أحق إن الإسلام عقيدة دينية صحيحة؟؟

وبقى السؤال قائمًا فى ذهنه، حتى سافر إلى الجزائر، وتنقل فى بلاد المغرب فخالط المسلمين وعاشرهم وسمع منهم، وسألهم وناقشهم، وفكر وتأمل، فرأى كما يذكر فى رسالته (أشعة خاصة بنور الإسلام): «أن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل التفكير، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفى الوقت نفسه حر التفكير».

وكما أن الإسلام قد صلح، منذ نشأته، لجميع الشعوب والأجناس، فهو - صالح كذلك لكل أنواع العقليات، وجميع درجات المدنيات، وأن تعاليم المعتزلة ذات القرابة المستترة، والصلة الخفية بتعاليم الصوفية، تجد

مكانًا رحبًا وقبولاً حسنًا ورضاء سهلاً عند العالم الأوربى أو عند الزنجى الأفريقى، وهو الذى يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ومن معبوداته وأصنامه.

وبينما نجد الإسلام يهيج من نفس الرجل العملى فى أسواق لندن، حيث مبدأ القوم: (الوقت من ذهب).. إذ هو يأخذ بلب الفيلسوف الرومانى.

وكما يتقبله عن رضا، ذلك الشرقى ذو التأملات ورب الخيال، يهواه ذلك الغربى الذى أفناه الفن وتملكه الشعر»[11].

لقد وقرت هذه الفكرة فى رأس ألفونس حتى أنه ليرددها فى الكثير من كتبه فيما بعد، فهو يقول فى آخر كتبه: (الحج إلى بيت الله الحرام):

«لو كان الإسلام الحقيقى معروفًا فى أوروبا لكان من المحتمل أن ينال - أكثر من أى دين آخر - من العطف والتأييد من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى، فإنه والحق يقال، يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم، فهو ببساطته المتناهية، كما يذهب إليه المعتزلة، وباشتماله على روح التصوف، كما يذهب إليه الصوفية، يهدى علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم، ويجدون فيه تعزية وسلوى، من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة فى آرائهم وأفكارهم.

كما أنه تعزية وهدى لزنوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية.. ويرقى بروح ذلك التاجر الإنكليزى: رجل العمل الذى يعتبر الوقت من ذهب، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين، ويسمو بنفس الغربى الشغوف بالفن والشعر، بل هو يسحر لب الطبيب العصرى

---

(١١) عن أشعة خاصة بنور الإسلام.. مرجع سابق.. ترجمة الأستاذ/ راشد رستم.

بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم، وما فى الصلاة من حركات منتظمة، تفيد الجسم والروح معًا، (وفى وسع حر الفكر وهو ليس ملحدًا حتمًا - أن.. يعتبر الوحى الإسلامى عملاً من أعمال تلك القوة الخفية التى نسميها (الإلهام) وأن يعتقد به من غير أية صعوبة، بما أنه لا يحتوى على أسرار خفية لا يسيغها العقل).

ويردد الفكرة نفسها فى كتابه عن حياة سيدنا محمد، لقد رسخت هذه الفكرة فى نفسه من أول وهلة واستمرت معه إلى نهاية حياته، فقد وقر فى ذهنه أن الإسلام دين عام خالد.

لكن ألفونس أراد أن يتبين الفروق الجوهرية بين الإسلام والمسيحية فى وضوح وأن يصل إلى الحد الأسمى فيما يتعلق بالإخلاص لضميره الدينى، لذلك أخذ يوازن موازنة بين قيمة الإسلام والمسيحية.. وقد لفت نظره أن الفروق واضحة جلية فى عديد من المسائل لا فى مسألة واحدة وأن من الفروق على سبيل المثال ما يتعلق بمسألة الإله، وما يتعلق بالصلاة والنظافة، وما يتعلق بالتسامح، والعلم، والفروسية والعبقريات العلمية وغيرها، **ففيما يتعلق بمسألة الإله**: فقد رأى أتينيه أن «الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشريًا، وما إلى ذلك من الأشكال، أما فى المسيحية فإن لفظ (الله) تحيطه تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن فى السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال، فمن تجاعيد بالوجه غائرة، إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء ونسمع القوم يصيحون: (ليحيا الله) فلا نرى للغرابة محلاً، ولا نعجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة، وقد تمثل أمامهم شيخًا هرمًا، قد بلغ أرذل العمر، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء؟ وكيف لا يطلبون له الحياة؟؟

كذلك (يا هو) الذى يمثلون طهارة التوحيد اليهودى، فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهالكة، وكذلك تراه فى متحف (الفاتيكان) وفى نسخ الأناجيل المصورة القديمة.

أما الله فى دين الإسلام الذى تحدث عنه القرآن: فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته، أو ينحته أزميله، ذلك لأن الله لم يخلق الخلق على صورته. وتعالى سبحانه فلم تكن له صورة، ولا حدود محصورة، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يكن له كفوا أحد[١٢].

أما فيما يتعلق بالصلاة والنظافة:

(إن الحركات والإشارات فى الصلاة الإسلامية ذات بساطة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثيل فى صلاة غيرها كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف ولا العيون بالشخوص إلى السماء، واستنزال الدموع التى تذكرنا بالدموع الجليسرنيه التى يصطنعها ممثلو (السينما) فى عصرنا الناضر، حقا إن الصورة الإسلامية خالية من تلك الأمور التى خص بها المسيحيون الصلاة المسيحية، مما جعلها فى غير جمال ولا جلال ولا وقار[١٣]، والأقوال والحركات التى فى الصلاة الإسلامية هى ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان، وهى خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع، والتظاهر بذلك مما هو غير فى العبادات، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما فى الصدور وهو الغنى الحميد.

ثم إن من الأمور الغريبة تخصيص وجود الإله فى السماء عند دعوته، وهذه الحال تحمل فى طياتها إلحادًا، إذ تجعل السماء منفى الإله، وتنفى

(١٢) أشعة خاصة بنور الإسلام.

(١٣) المراد: الصلاة المسيحية.

بذلك عنه صفة الوجود فى كل مكان.

وحركات الصلاة الإسلامية فوق تعبيرها التام عما تحمل النفوس المؤمنة للمسلمين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم، تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية فهى مفروضة الأداء خمس مرات فى اليوم الواحد، وكم من شيخ كبير، وبدين سمين يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشقة، مما لا يستطيعه المسيحى فى مثل هذه السن، أو فى مثل هذه الحال، ما لم يكن قد تريض على ذلك من قبل، أضف إلى ذلك حكمة الوضوء الذى يسبق كل صلاة، ففيه للبدن انتعاش وصحة ونظافة، والنظافة من الإيمان.

أما فيما يتعلق بالتسامح :

فقد استرعى نظر ألفونس أتيين دينيه : ما قاله القس ميشون فى كتابه (سياحة دينية فى الشرق) : وإنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم).

كذلك فى العلم :

لاحظ أيتين دينيه أن النبى محمدًا ﷺ قد رفع قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب وجعله من أول واجبات المسلم، وفى ذلك يقول : (اطلبوا العلم ولو بالصين).

يقول فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين : (نهض الإسلام بالعقول من وهدة الخمول، وأذن لها أن تبحث فى كل علم وتذهب فى البحث كل مذهب، فوجدت الأمم من العرب وغير العرب فى هذه السماحة ما أثار نشاطهم للبحث فى كل ناحية عن نواحى العلم، فلم يلبثوا أن جمعوا

القرآن الكريم فى مصحف، ودونوا الحديث النبوى بعد أن كان محفوظًا فى الصدور، وكتبوا فى تفسير القرآن، وشرح السنة النبوية وحققوا النظر فى تقرير أصول الدين، وأصول الفقه، وحرروا وجوه استنباط الأحكام العملية، ووضعوا إزاءها العلوم العربية، من النحو، والصرف، والبيان، وفقه اللغة.

ودرسوا العلوم النظرية المعربة عن الكتب اليونانية وغيرها، فأصبحت بلاد الإسلام ولا سيما عواصم المماليك كبغداد وقرطبة، والقاهرة، ودمشق، وتونس، وموارد العلوم الإسلامية والأدبية والكونية، ومن هذه الموارد استحدثت الأمم الأوروبية معارفها وفنونها، وقد اعترف بهذا كثير من علماء أوروبا المنصفين».

ويقول الأستاذ بريفوت الإنجليزى (فى كتابه تكوين الإنسانية) : (Pr. Fout's Making of Humanity) (فى القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام). وقال أيضا :

(إن رئيس ديركلونى يأسف على أنه رأى أثناء إقامته بالأندلس الطلبة من فرنسا وألمانيا وإنكلترا يردون أفواجًا أفواجًا إلى المراكز العلمية العربية). وقال. . : (فالعلم هبة عظيمة الشأن جاءت بها الحضارة العربية على العالم المتحضر). ولم يكن فضل الإسلام على أوروبا من ناحية العلم فقط، بل كان له الفضل فى نهضتها المدنية، وقال الأستاذ بريفوت فى كتابه المذكور: (لم تكن إيطاليا مهدًا لحياة أوروبا الجديدة، بل أسبانيا (الأندلس) لأن أوروبا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد والظلمة، بينما العالم العربى - بغداد - والقاهرة وقرطبة وطليطلة - كان مركز الحضارة والنشاط العقلى ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التى نمت فى شكل ارتقاء إنسانى جديد)، وخلاصة القول أن دعوة خاتم النبيين ﷺ - قد

أتت العالم بضروب خطيرة من الإصلاح لم تأته بها دعوة سبقتها أو تأخرت عنها، فما يوجد فى العالم من هداية صادقة أو علوم نافعة أو مدينة فاضلة، إنما يرجع الفضل فيه لدعوة هذا الدين القويم.

فليرفع الفتى المسلم رأسه معتزًا بدين رفع الإنسانية من حضيض الجهل إلى أوج العلم وهداها سبل السعادة الباقية والمدنية المهذبة.

ويقول : (يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء) ويقول أيضا : (شرار العلماء الذين يأتون الأمراء، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء). . و (فضل العلم خير من فضل العبادة)(١٤).

وقد نظر المسيو كازانوفا : أحد كبار أساتذة الكوليج دى فرانس بباريس فى هذه الكلمات الغاليات، وكيف يقولها أحد أصحاب الديانات فعلّق على ذلك بقوله :

(يعتقد الكثير منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا. . يعتقدون ذلك وينسون أن نبى الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة! فأى رئيس دينى كبير، أو أى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوى الفاضل المتين؟! هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة. . نعم إن هذا هو مبدؤنا اليوم، ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار؟!

كما أنه سوف يقال : إن أوضح مبادىء الحرية الفكرية قد كسفت أمثال (لوثير) و (كالفين) وعاد الفضل فيهما إلى رجل عربى من رجال القرن السابع. ذلك هو صاحب شريعة الإسلام(١٥).

---

(١٤) الجزء الأول من كتاب الإحياء للغزالى.

(١٥) عن كتاب (تعليم اللغة العربية) نقلا عن (أشعة خاصة بنور الإسلام).

وأما عن الفروسية :

ينظر المسيحيون إلى سان لويس على أنه النموذج الأعلى للثمرة المسيحية الناضجة، غير أن الوثائق التاريخية تثبت، فى وضوح وسهولة، أن خصمه صلاح الدين الأيوبى كان أرفع منه قدرًا فى الحضارة وفى الشجاعة، وفى معاملة الخصوم.

وفى العبقريات العلمية :

رأى ألفونس أنهم يفخرون بالعالم (باستور) الفرنسى ويجعلونه درة فى تاج الحضارات الحديثة، ولكن فاتهم أن (جابر) و(الرازى) يفوقانه فى مرتبة العلماء وامفكرين، فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء بما كشفاه من طرق التقطير ومن الكحول، ومن حمض النتريك، وحمض الكبريتيك.... الخ.

وقد استمر ألفونس ينظر ويتدبر ويقارن ويتفكر ويناقش نفسه حتى اهتدى.

* * *

أسلم أينين دينيه، واختار اسم (ناصر الدين).. ولعل هذا الاختيار هو الذى حدد اتجاهه بعد ذلك خير تحديد.

ناصر الدين : أجل.. فقد خصص حياته لنصرة الدين الإسلامى.. ورأى أنه يجب أن ينصر دينه عن طريقين :

(أ) نصرته سياسيًّا.

(ب) نصرته دينيًّا.

كان ناصر الدين يعلم أن عنصرين من عناصر الشر يتألبان على

الإسلام ويهاجمانه فى عرينه، وهما رجال السياسة الاستعماريون، ورجال الدين المتعصبون، وأنه لابد لتكون نصرة الإسلام كاملة من أن يتجه الدفاع نحو الهدفين، وتطلع ناصر الدين نحو الغاية التى يريد أن يسعى إليها، فها له الأمر، وكتب معبرًا عن الواقع يقول :

(إن أهل السوء من أهل الكتاب لا ينفكون يهاجموننا نحن المسلمين بالأباطيل ويحاربوننا بالمفتريات. . وإذا نحن شئنا أن نحصى أكاذيبهم علينا، كانت فيها صفحة هى أسْود الصفحات خزيًا فى سجل التعصب، يشترك فى تسويدها أعداء الإسلام قديمهم وحديثهم، سواء منهم العلماء والرواد والقساوسة ورجال الحكومات، والكتاب، أمثال بيرون وبلجراف وجلادستون ومرجليوث، وقسيس كانتربرى والأب لامنس، والكاتب لوى بورتران سرفييه، وغيرهم. . وغيرهم.

الانتصار للإسلام سياسيًا :

أما والأمر كذلك، فلابد من التشمير عن ساعد الجد، والنهوض حقيقة فى وجه عوامل هدم الإسلام هذه، ولكن كيف السبيل ؟

أما من جهة السياسة فناصر الدين ليس من الساسة المحترفين، ولذلك كانت مهمته فى هذه الناحية التحدث إلى كل من يجد فيه روح الإنصاف من الغربيين ذوى النفوذ، والعمل على إذاعة كل ما يمكنه إذاعته من آراء المنصفين منهم، وتبنى قضية الشرق المظلوم.

ومن أمثلة ما كان يذيعه مثلاً، ما يلى :

نشر أخيرًا المسيو (أوجين يونج) وكيل حكومة التونكين الفرنسية سابقًا كتابًا عنوانه (استعباد الإسلام - الحرب الصليبية الجديدة)[١٦] وهذا

(١٦) L, Islam sous le joug (La nouvelle Croisade) Eugene- young 1962.

الكاتب معروف بأنه من الكاثوليك المتمسكين بدينهم ولكنه معروف كذلك بأنه فرنسى من خيرة الفرنسيين وقد أنكر فى كتابه هذا، فى كبير شجاعة وصراحة، تلك الحروب الصليبية الجديدة التى يقوم بها اليوم (الفاتيكان) ذلك المركز الرئيسى المقدس، حيث البابل الجد الأعظم للمسيحية، وقد أظهر أنهم يقومون بذلك دون أن يفت فى عضدهم ملل أو كلل، أو أن ينال منهم أى تهاون أو كسل، وإنما يقومون به من وراء ستار المداهنة، وفى ثوب من الرياء يشف عما تحته.

ومما جاء فى كتاب مسيو يونج قوله : (إننا نهيىء من اليوم مقدمات حروب دينية شديدة الفزع والهول) ثم أظهر أن مصالح فرنسا الحيوية إنما هى فى التفاهم والاتفاق الودى مع الإسلام، وإننا لنرجو أن يكون لكلام هذا الفرنسى الكبير صدى بعيدًا وأثرًا محمودًا فى مصلحة فرنسا والإسلام على السواء[١٧].

ومن جهة أخرى أخذ ينشر ما يصحح فكرة الأوروبيين عن الشعوب الإسلامية، ويبين أنها شعوب بعيدة كل البعد عن الهمجية والتوحش، وأنها تمتاز بالوفاء وعرفان الجميل والكرم والشجاعة والفضائل المحمودة، ويبين أن ماضيها المجيد خير نبراس يرسل أشعته على الفكرة الخاطئة الموجودة عند الغربيين، فيزيل ما غشى عليها من ظلمة، ويلفت نظر الفرنسيين فى قوة إلى ما أداه لهم المسلمون من أيادٍ جليلة فى ميدان الحروب ضد أعداء فرنسا.

ومن ألذع توجيهاته للفرنسيين فى هذا الميدان أنه، حينما ألف كتابه فى السيرة النبوية أهداه (لأرواح الجنود الإسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين).

(١٧) أشعة خاصة بنور الإسلام.

الانتصار للإسلام علميًا :

ومع ذلك فإن ميدانه الفسيح إنما كان الدفاع عن الإسلام، باعتباره دينًا سماويًا، لقد استمات فى الدفاع عن عقيدته التى يؤمن بها فى يقين حار مطمئن ومما زاد من قيمة دفاعه هذه الموازنات الكثيرة الدقيقة، بين الإسلام والمسيحية، فى كثير من الأصول، وفى كثير من الفروع، لقد درس الإسلام فى عمق، ودرس المسيحية فى عمق، ورأى أن هجوم رجال الكنيسة لا يفتر، وتزييفهم بالباطل لكل ميزة للإسلام لا ينقطع، فدافع واشتد فى دفاعه، وهاجم وكان لابد من الهجوم، واشتدت ضرباته للمسيحية ممثلة فى رجال الكنيسة.

ولكنه كان يعلن دائمًا - كما هو شأن كل مسلم - احترامه للمسيح لأنه رسول الله، واحترامه للمسيحية الصحيحة، التى يتحدث عنها القرآن - لا تلك التى ابتدعها رجال من بنى البشر، كان يعلن دائمًا أن دين الله واحد، وأن الإسلام أتى مصدقا لما سبقه، مصححًا لما ناله من تحريف ومهيمنًا عليه، وقد وعد الله بحفظ كتابه المقدس : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

فالقرآن فى العصر الحاضر هو الكتاب السماوى الوحيد الذى لم ينله ولن يناله تحريف أو تبديل.

يقول الأستاذ رائد رستم، عن ناصر الدين :

(وإنك لتجد الكاتب واسع الاطلاع، لذلك هو صحيح الحجة، ناهض البرهان شديد الهجوم، شديد الدفاع، ذلك لأنه غيور على دينه الذى لم يتخذه إلا بعد أن بحث وفكر، وهكذا كان فى عقيدته مكينًا، وفى إسلامه كاملًا).

كان يصحح الأخطاء، ويرد الهجوم، ويهاجم ويوازن بين الإسلام والمسيحية وكان قبل كل ذلك، وبعد كل ذلك يبين الإسلام ويوضحه ويشيد به، وكانت وسيلته إلى ذلك : المقالات والمحاضرات والرسائل والكتب، فضلاً عن الأحاديث الشفهية.

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام، أن الأستاذ راشد رستم، كان أول من ناصر الدين من المصريين فترجم له رسالته القيمة (أشعة خاصة بنور الإسلام) إلى اللغة العربية.

وحين توفى ناصر الدين سنة ١٩٢٩، كتب عنه الأستاذ راشد رستم مقالاً فى الأهرام ينعيه قال فيه :

(مات هذا المستشرق النابه، وقد احتشد حوله لتوديعه الوداع الأخير العدد العديد من كبار قومه الرسميين ومن أصدقائه، وعار فى فضله، من أهله ومن غير أهله من ممثلى الشعوب الشرقية التى أحبها وخدمها وقد وجب علينا وإن كنا لم نقف هنالك فى باريس مع الواقفين خاشعين أن نبعث إلى روحه تحيات السلام والاعتراف بالجميل).

ثم قال عنه :

(أحب المسيو دينيه حياة العرب، وهو ذلك الفنان الكبير : فاتخذ له بينهم مقامًا محمودًا فى بلاد الجزائر، فى تلك الواحة الهادئة الجميلة (بو سعادة) ينتقل إليه، يسكنه نصف العام كاملاً، يرتاح للعرب وجيرتهم ويروح عن نفسه بينهم، وينعم بما فى حياتهم من جلال تلك المناقب المأثورة عنهم، وتلك المكارم المعروفة بهم، والتى لا يميل إليها إلاَّ عُشاق الخيال السامى، ولا ينشدها إلا أهل الفضائل العالية، وقد وضع فى حياة العرب كتابًا جميلاً جليلاً ملأه باللوحات البديعة من ريشته القادرة، ذات البلاغة فى تصويرها البيان فى صحتها.

ولقد كان دينيه من كبار أهل الفن ورجال التصوير، وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة، تزدان بها جدران المعارض الفنية وتحتفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم، وله فى متحف لوكسمبرج - وهو متحف كبار - المصريين العصريين بباريس - عدة صور منها الصورة الشهيرة المعروفة باسم (غداة رمضان) وكذلك له صورة فى متحف (بو) وكذلك فى متحف (سدنى) - بأستراليا. وغير ذلك كثير.

وجميع صوره تدل على القدرة الفنية الكبيرة فى رسم الصحراء كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة، وهو ذو مركز خاص مشهود به بين إخوانه المصورين، وامتاز عنهم بتخصصه فى تصوير الحياة الإسلامية، وبالأخص ما كان منها فى بلاد الجزائر.

وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح حتى قيل عنه: إنه المصور الفريد بين إخوانه الذى يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ، أحسن تمثيل وهم يقولون عنه: إنه المصور (العربى). وقد جاءت ترجمة المسيو دينيه وأعماله فى معجم (لاروس الكبير)، وفى معلمة (هاشيت) للفنون الجميلة، وله عدة مؤلفات منها كتاب حياة العرب الذى ذكرناه، ومنها كتاب السراب، وكتاب حياة الصحراء، وكتاب ربيع القلوب، وكتاب الشرق كما يراه الغرب، وكلها تشير إلى ما فى طبيعته من الخلق الطيب، وما يحمله فى قلبه من الحب والتقدير للشرق والشرقيين.

ومن أهم كتبه ما جعله تاريخًا لحياة الرسول سيدنا محمد ﷺ وهو السيرة النبوية فى مجلد كبير جليل، وضعه باللغة الفرنسية وزينه برسوم بريشته حتى ليعد تحفة من تحف الطباعة، كل ذلك تقديرًا منه لموضوع الكتاب، ثم إنه قدمه لأرواح الجنود الإسلامية الذين استشهدوا فى الحرب الكبرى هم يحاربون فى صفوف الفرنسيين.

ورسالته : (أشعة خاصة بنور الإسلام) : التى ترجمها صديقه المصرى الأستاذ راشد رستم إلى العربية، هى رسالة قيمة تثبت أن الإسلام قد جاء بالجديد الصالح من الأحكام وأنه دين يمكن تطبيقه فى كل عصر ومصر . .

لكن ألفونس أيتينيه (صلاح الدين) : كان له كتب أخرى قيمة أبرز فيها كمال الإسلام وجلاله من بينها كتاب (الحج إلى بيت الله الحرام) وكتاب (الشرق كما يراه الغرب) وقد ترجما إلى العربية، لكن أهم كتب صلاح الدين هو كتاب (السيرة النبوية) الذى ألفه مع زميل جزائرى له بالفرنسية هو السيد سليمان بن إبراهيم، وقد أهداه إلى أرواح الجنود المسلمين الذين استشهدوا وهم يحاربون فى صفوف الفرنسيين فى الحرب الكبرى، وكتابه هذا جدير بالاحترام والعناية فقد اعتمد فى وضعه على صحاح الكتب العربية كسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وليس على كتب المستشرقين.

وكان ناصر الدين قبل أن يضع كتابه - قد قرأ كتب المستشرقين فى السيرة النبوية فوجدها لا تساوى شروى نقير فلم يهتم بما كتبه (دوزى ولا مانس ودوغويه) ولا بما كتبه غيرهم ممن أساءوا فهم محمد ﷺ على افتراض حسن نواياهم، بل إن الحقيقة أن نواياهم لم تكن كذلك فقد أجهدوا أنفسهم حقدًا على الإسلام وبنى الإسلام، فلو أن قصدهم كان منزها عن دنىء الغرض لما حمّلوا العلم ما ينكره.

* * *

٥ - لماذا أسلم
الفيلسوف الفرنسى (رينيه جينو)
وسمى نفسه الشيخ عبد الواحد يحيى؟

ولد رينيه جينو سنة ١٨٨٦م لأسرة محافظة وكان أبوه من نوابغ المهندسين ولعل ابنه رينيه قد اكتسب ذكاء أبيه بالوراثة.. لذلك فإنه كان من المتفوقين فى دراسته، وقد ظل كذلك رينيه، يكسب الجوائز ويتقدم على زملائه حتى أتم دراسته العليا فى باريس سنة ١٩٠٨، وفى ذات السنة أصدر رينيه مجلة علمية أطلق عليها (المعرفة)، وكانت ذات طابع فلسفى صوفى، وقد كان من الذين استعان بهم رينيه فى تحرير المجلة الشيخ (عبد الحق).. وهو العلّامة (شمبرينو) الذى كان قد سبق رينيه إلى الإسلام.. وقد تأثر به رينيه وتوطدت الصلة بينهما.. ولم تكن صلة رينيه وقفًا على هذا الرجل وحده، بل إن الله كان قد مدّ له خيوط الهدى فاتصل بالشيخ عبد الرحمن عليش (شيخ السادة المالكية بالأزهر الشريف وقتئذ)، وكان اتصال رينيه بهذا العالم المصرى عن طريق عالم فنلندى يدعى (إيفان جوستاف) كان قد أسلم أيضا وسمى نفسه (عبد الهادى) وصار من ألمع محررى الجريدة العربية الإيطالية التى كانت تصدر بالقاهرة باسم (النادى)، وكانت هذه المجلة تنشر البحوث الصوفية الإسلامية والفلسفية.. وكان من أحسن ما نشرته بحثًا للشيخ عليش عن (محى الدين بن عربى) كان له صدى علمى واسع فى أوروبا حتى أُعْلن عن تأليف جمعية فى إيطالية والشرق لدراسة الآثار العلمية لابن عربى.. تأثرًا

بما نشر فى هذا البحث.

ثم إن عبد الهادى سافر إلى فرنسا بعد توقف مجلة النادى والتقى بزميله (رينيه جينو) سنة ١٩١٠ وأسهم معه فى تحرير مجلة المعرفة بنشاط..

وكان رينيه جينو مع اتصاله بالعلماء المسلمين وبمن أسلموا لا ينقطع عن الدراسة للأديان عامة والإسلام بوجه خاص.. وقد اقتنع عقله بالقرآن وشغف بـه فؤاده باعتيـار أن القرآن هـو الكتاب الـوحيد الـذى لم ينله التحـريف والتعديـل فلما تم اقتناعـه التام ولمس فى قلبـه عمق الإيمـان بـالإسلام.. أشهـر إسلامـه سنة ١٩١٢ وتسمى بـاسم (عبد الـواحـد يحيى)..

ولما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، وتوقف كل نشاط علمى يتصل بالدين سافر رفيقه (عبد الهادى) إلى أسبانيا وبقى بها حتى توفى فى برشلونة سنة ١٩١٧.

لكن الشيخ (عبد الواحد يحيى) ظل دءوبًا على كتابة الأبحاث العلمية مدافعًا عن الإسلام والفلسفة الإسلامية فى مختلف المجلات المتخصصة.

وفى عام ١٩١٧ عين الشيخ عبد الواحد (أستاذًا للفلسفة فى جـامعة الجزائر) فقضى بها عامًا عاد بعده إلى وطنه للتدريس فيه.. لكن أبحاثه شغلته فاستقال وتفرغ لأبحاثه.

وتوالت كتبه بعد ذلك ومنها (كتاب سر حـرف النون) الـذى أهداه للشيخ عبد الرحمن عليش فكتب يقول: (إلى الذكرى المقدسة.. ذكرى الشيخ عبد الرحمن عليش العالم الكبـير المالكى المغـربى الذى أدين لـه بالفكرة الأولى لهذا الكتاب..).

وقد حضر الشيخ عبد الواحد يحيى إلى مصر سنة ١٩٣١م مندوبا عن إحدى دور النشر فى باريس لينقل إليها بعض النصوص الصوفية الإسلامية

مـع ترجمـة بعضها، ولكن دار النشر عـدلت عن المشروع، أمـا الشيخ عبد الواحد فإنه لم يقبل بمصر بديلاً بعد ما أَلفها وأحبّها فسكن فى حى الأزهر وتزيًّا بزىّ علماء الأزهر المعروف حتى أصبح من يراه يحسبه عالمًا أزهريًّا مصريًّا).

وفى سنة ١٩٣٤ تزوج من ابنة الشيخ محمد إبراهيم (أحد علماء الأزهر الشريف) ثم انتقل إلى حى الدقى حيث أقام فى منزل صغير أسماه (فيلا فاطمة) وأنجبت ابنتين إحداهما (خديجة) والأخرى (ليلى) ثم أنجب ولدًا أسماه (أحمد)، واستمر يشتغل بالتأليف والترجمة ويراسل المجلات العلمية الفرنسية حتى توفاه الله بمصر سنة ١٩٥١ . . فاهتزت الأوساط العلميـة والصحفية الأوروبية لخبر وفاتـه واهتمت بنشر المقالات فى التعـريف به وتأبينه حتى أن - الكاتب الفرنسى (بول سران) أصدر كتابًا عن حياتـه وآثاره.

مؤلفات الشيخ (عبد الواحد يحيى):

- ألف الشيخ رحمه الله سبعة عشر كتابا باللغة الفرنسية.

تـرجم منهـا ثمـانيـة كتب إلى اللغـة الإيـطاليـة، وأربعـة كتب إلى الإنجليزية، كما ترجم بعضها إلى لغات أخرى كالإسبـانية والبـرتغاليـة والإيطالية. . بل إن واحدًا من كتبه قد ترجم إلى لغة التبت.

ومن أشهر مؤلفات الشيخ عبد الواحد يحيى:

١ - أزمة العالم الحديث: بين فيه الانحراف الذى تسير فيه أوروبا وضلال الغرب عن السبيل.

٢ - الشرق والغرب: انتصر فيه لحضارة الشرق وروحانياته وأنحى على فساد الغرب وماديّته.

٣ - كتاب رمزية الصليب : وفيه أوضح أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة[١٨].

٤ - أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب : ويبين فيه فضل الثقافة الإسلامية على أوروبا.

وغير ذلك كثير من المؤلفات القيمة التى رأت فيها الكنيسة الكاثوليكية خطرًا كبيرًا فحرمت قراءتها بل إنها حرمت حتى الحديث عن مؤلفها. .

ومع ذلك فقد انتشرت مؤلفات الشيخ عبد الواحد يحيى فى جميع أرجاء العالم، وطبعت المرة بعد الأخرى وترجم الكثير منها إلى جميع اللغات الحية الناهضة ما عدا العربية.

ونحن نهيب بالأجهزة الدينية المتخصصة فى الأزهر ووزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن تقوم بدراسة هذه الكتب ونشر ما تحتاج إليه الدعوة الإسلامية من ذخائرها.

---

(١٨) تحت الطبع : كتاب السيرة العطرة : مدخل ومنهاج. . وفيه فصل كامل فى تفنيد هذه الفرية والرد على القائلين بها.

٦ - لماذا أسلم
اللورد هدلى الانجليزى
وسمى نفسه الشيخ رحمة الله هدلى؟

فى كتاب أوروبا والإسلام يحكى لنا المرحوم الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود قصة إسلام هذا اللورد الإنجليزى فيقول :

«ولد اللورد هدلى (رولاند جورج لانسون هدلى) سنة ١٨٥٥ م فى أسرة عريقة بريطانية تتمتع بثراء عريض، وكان خامس من حملوا لقب لورد على التعاقب فى هذه الأسرة.

وقد تخرج فى كلية ترنتى بجامعة كمبريدج سنة ١٨٧٨ م مهندسًا، حيث خدم فى الجيش البريطانى برتبة (كابتن) أى (نقيب) ثم تدرج فى الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة (اللفتنانت كولونيل) أى (المقدم) لكنه عاد إلى الحياة المدنية حيث تولى تحرير جريدة (سالزبوى جورنال) عدة سنين.

كما قدم كثيرًا من البحوث الهندسية النفيسة التى بهرت كبار المهندسين وتقديرًا لجهوده منحته جمعية المهندسين جائزتها مرتين، وقد شغف بمطالعة المؤلفات التى تعالج النظريات الفلسفية والعقائد الدينية، فقدم له بعضها بصيصًا من المعلومات عن العقيدة الإسلامية، ولم يزل ذلك البصيص يتضاعف شيئًا فشيئًا حتى زاد تعطشه إلى معرفة المزيد من الإسلام وتاريخ المسلمين، ثم أخذ يسعى بنفسه للتعرّف على أحوالهم المعاصرة ومدى تأثرهم الاجتماعى والخلقى بدينهم، فضاعف ذلك من إعجابه بهم

وبعقيدتهم، ثم رأى فى النهاية أن يكون أكثر صراحة مع نفسه ومع مجتمعه فأعلن إسلامه على الملأ فى ١٦ من نوفمبر سنة ١٩١٣ م وأطلق على نفسه اسما إسلاميا يضاف إلى لقبه الإنجليزى فأصبح يسمى : (الشيخ اللورد : رحمة الله الفاروق هدلى).

ويقول هدلى عن نفسه :

(عند ما كنت أقضى الزمن الطويل من حياتى الأولى فى جو المسيحية كنت أشعر دائمًا بأن الدين الإسلامى حسن وسهل وأنه خلو من عقائد الرومان والبروتستانت، وقد ثبّتنى فى هذا الاعتقاد زيارتى للشرق التى أعقبت ذلك، ودراستى للقرآن المجيد). ويستطرد هدلى : (فكرت وصليت أربعين سنة كىْ أُصلَ إلى حلّ صحيح، ويجب علىّ أن أعترف أيضًا أن زيارتى للشرق ملأتنى احترامًا عظيمًا للدين المحمدى السلس الذى يجعل الإنسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة لا فى أيام الآحاد فقط، . . أيمكن إذن أن يوجد دين يمكن العالم الإنسانى من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيقى الذى هو فوق الجميع . . . إنه إذا أصبح كل فرد من الإمبراطورية الإنجليزية محمديًّا[1] حقيقيا بقلبه وروحه، لأصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك لأن الناس سيقادون بدين حقيقى).

ويشكر هدلى الله سبحانه على أن كرمه وعنايته كان متأصّلاً فيه من الصغر. . ويحكى كيف أن الإسلام قَرعَ لبّه حقًّا وتملك رشده صدقًا وأقنعه نقاؤه وأصبح حقيقة راسخة فى عقله وفؤاده، إذ التقى بسعادة وطمأنينة ما رآها قط من قبل كأنما استنشق هواء البحر الخالص النقى، وأنه بتحققه من سلامة وضياء وعظمة الإسلام ومجده أصبح كرجل فر من

(١) يقصد مسلما : إذا الإسلام هو الدين عند الله . . ولا ينسب لمحمد وإنما أرسل به محمدًا

سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار.

ولقد كان لإسلام اللورد هدلى ضجة كبيرة نظرًا لمركزه فى بلاد الإنجليز، ولما يعلمه فيه عارفوه من نضج فى التفكير وتعقل فى وزن الأمور، وقد جاء إلى مصر فى طريقه إلى حج بيت الله الحرام، وقد احتفى به أهالى الإسكندرية وعلمائها. . ويشيد هيدلى ببعض تعاليم الإسلام فيقول :

(ليس هناك فى الإسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه، إنه فوق الجميع وأمام الجميع، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه، إنه لمن المدهش حقًا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء رؤية ربهم القهار المتصل دوامًا بكل مخلوقاته سواء كانوا عاديين أو أولياء مقدسين. . . إن مفتاح السماء موجود دائمًا فى مكانه ويمكن إدارته بأذل وأقل المخلوقات دون أية مساعدة من نبى أو كاهن أو ملك إنه كالهواء الذى نستنشقه مجانًا لكل خلق الله. . أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك فما دعاهم إلى هذا العمل إلاَّ حُبّ الفائدة.

ليس غرضى أن أهاجم أى فرع معين من فروع الديانات لأبينّ جلال وسلامة الديانة الإسلامية التى هى خالية فى نظر الكاتب المنصف من العوائق الظاهرة جليًا فى كثير من الديانات الأخرى.

أما الذين يفترون على الله الكذب وينفثون سمومهم حقدًا وعداوةً للإسلام فيقول لهم :

(ليس فى وسع الإنسان فى الحقيقة إلا أن يعتقد أن مدبّجى وناسجى هذه الافتراءات لم يتعلموا حتى ولا أول مبادىء دينهم، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا فى جميع أنحاء العالم تقارير معروف لديهم أنها محض كذب

واختلاق، إن تعاليم القرآن الكريم قد نفذت ومورست فى حياة محمد ﷺ سواء فى تحمله الألم والاضطهاد، أو فى زمن انتصاره ونجاحه، فأظهر أشرف الصفات الخلقية التى لا يتسنى لمخلوق آخر إظهارها، فكل صفات الصبر والثبات فى عصره كانت ترى أثناء الثلاث عشرة سنة التى تألمها فى مجاهداته الأولى بمكة، ولم يشعر فى كل زمن هذا الجهاد بأى تزعزع فى الثقة بالله وأتم كل واجباته بشمم وحمية، وكان مثابرًا ولا يخشى أعداءه لأنه كان يعلم أنه تكلف بهذه المأمورية من قبل الله ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه.

ولقد أثارت شجاعة الرسول ﷺ، التى كانت إحدى مميزاته وصفاته العظيمة إعجاب واحترام الكافرين وأولئك الذين كانوا يشتهون قتله.

ومع ذلك فقد انتبهت مشاعرنا، وازداد إعجابنا به بعد ذلك فى حياته الأخيرة أيام انتصاره بالمدينة عندما كانت له القوة والقدرة على الانتقام، واستطاعته الأخذ بالثأر، ولكنه لم يفعل بل عفا عن كل أعدائه، فالعفو والإحسان والشجاعة ومثل هاتيك الصفات كانت ترى منه فى كل تلك المدة حتى أن عددا عظيما من الكافرين اهتدوا إلى الإسلام عند رؤية ذلك، عفا محمد عنهم بلا قيد ولا شرط وهم الذين اضطهدوه وعذبوه، وأوى إليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة، وأغنى فقراءهم، وعفا عن ألد أعدائه عندما كانت حياتهم فى قبضة يده وتحت رحمته.

تلك الأخلاق الربانية التى أظهرها النبى الكريم أقنعت العرب بأن حائزها يجب ألا يكون إلا من عند الله، وأن يكون رجلاً على الصراط المستقيم حقًا وكراهيتهم المتأصلة فى نفوسهم حولتها تلك الأخلاق الشريفة إلى محبة وصداقة متينة.

نحن نعتبر أن نبى بلاد العرب[٢] ذو أخلاق متينة وشخصية حقيقية وزنت واختبرت فى كل خطوة من خطا حياته، ولم ير فيها أقل نقص أبدًا.

وبما أننا فى احتياج إلى نموذج كامل يفى بحاجاتنا فى خطوط الحياة، فحياة النبى المقدس تسد تلك الحاجة.

وإن حياة محمد ﷺ، كمرآة أمامنا، تعكس علينا التعقل الراضى والسخاء والكرم والشجاعة والاحترام والصبر والحلم والوداعة والعفو، وباقى الأخلاق الجوهرية التى تكون الإنسانية، ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة.

خذ أى وجه من وجوه الآداب، وأنت تتأكد من أنك تجده موضحًا فى إحدى حوادث حياته..

ثم ها هو الشيخ رحمه الله هيدلى يضع ذات قلوب بنى وطنه تحت الضوء، ويدعوهم إلى الإسلام فيقول:

(إننى أعتقد أن هناك آلافًا عديدة من الرجال والنساء، مسلمون فى ذات قلوبهم، ولكن يمنعهم من إعلان هذه الحقيقة مراعاتهم للعرف، وخوفهم من النقد والاتهام، ورغبتهم فى تلافى ما يتبع إعلان هذا التحول من مشاكل وإننى لأهيب بغيرى أن ينهج نفس المنهج الذى أعتقد مخلصًا أنه الصراط المستقيم الذى يجلب السعادة لهؤلاء الذين يرون فيها أقدمت عليه خطوة إلى الأمام، وليس فيها على أية حال معنى العداء للمسيحية.

* * *

---

(٢) الصحيح أن محمدًا ﷺ بعث للعالمين كافة.. ولم يبعث للعرب فقط وإن كان عربيا.

لماذا أسلم
عبد الله بانرسى ؟
مسلم من إنجلترا

يقول (عبدالله باترسى)[1] وهو ضابط برتبة رائد، بالجيش البريطانى، عن سبب إسلامه :

- كان من عادتى اليومية - منذ أكثر من ربع قرن - أن أتنزه فترة فى زورق صغير فى طرق بورما المائية، وكان بحار الزورق (الشيخ على) رجلاً مسلمًا من (شيتاتونج) فى شرق باكستان، ماهرًا فى عمله، متمسكًا بتعاليم دينه، مخلصًا له، حريصا على الصلاة فى وقتها. بادى التقوى، فلم يكن جديرًا باحترامى فحسب، بل مثيرًا لاهتمامى كذلك بماهيّة هذا الدين، الذى استطاع السيطرة على هذا الرجل، وجعل منه عبدًا تقيًّا.

اشتريت بعض الكتب التى تبحث فى تاريخ الإسلام وتعاليمه. ودرست ما أمكن من سيرة النبى محمد (ﷺ) وما حققه من عظائم الأمور، وكنت أحيانًا أناقش بعض هذه الأمور مع أصدقائى المسلمين، ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى، وكان على - كما كان على كثير من غيرى - أن ألتحق بالخدمة فى الجيش الهندى، فى بلاد ما بين النهرين، وأعيش مع العرب، الذين بعث منهم الرسول، والذين - بلغتهم - نزل القرآن.

وكانت إقامتى بين هؤلاء الناس حافزًا على الاستمرار فى الاهتمام بالإسلام وعلى دراسته، فتعلمت العربية، وازددت اتصالاً بالناس،

(١) منبر الإسلام - العدد٧ السنة٣١ - رجب١٣٩٣هـ الأستاذ إبراهيم الفحام.

فأعجبنى حرصهم على عبادة الله، وانتهى بى الأمر إلى أن أمنت أنا كذلك بوحدة الإله ووحدانيته.

- على الرغم من أن ترددى على المساجد كان قليلاً، عندما تضطرنى أعمالى الرسمية بصفتى ضابط شرطة - بعد ذلك - فقد بقيت حتى ذهبت إلى فلسطين فى الفترة بين سنتى ١٩٣٥ و١٩٤٢ حيث وجدت الشجاعة على الإعلان رسميًّا بدخولى فى دين الإسلام الذى تخيرته لنفسى، منذ سنوات عديدة.

لقد كان يومًا عظيمًا فى حياتى، هذا الذى أعلنت فيه إسلامى رسميًّا فى المحكمة الشرعية فى (بيت المقدس).

كنت فى ذلك الحين (رئيس أركان الحرب) وكان إعلانى لاعتناق الإسلام سببًا فى بعض المضايقات.. ومنذ ذلك الوقت، عشت حياة المسلمين عقيدة وعملاً فى مصر، ثم أخيرًا فى باكستان.

- والإسلام دين يضم أضخم مجموعة من الأخوة. تعدادهم حوالى ستمائة مليون والانتساب إليه انتساب إلى الله.

- وإذا كنت اليوم قادرًا على الاعتراف بعظمة الإسلام، وقد استطعت فى السنين الأخيرة أن أبذل فى سبيل الإشادة بعظمته، جهدى ونتاج قلمى وحياتى فإن الفضل يعود إلى ذلك الرجل البسيط (الملاح) الذى كان فى تقواه، حافزًا لى لأعود إلى الله وإلى الإسلام. فإننا جميعًا نولد مسلمون. ولكنى - فى ضعف البشرية - كنت قد ضللت الطريق.

٨ - لماذا أسلم
الصحفى النمسوى الكبير
(ليوبولد فايس)؟

ولد (ليوبولدفايس) سنة ١٩٠٠ فى مدينة ليفو التى تتبع بولندا الآن وكانت وقتها تابعة للنمسا، وبرغم حداثة سنّه سنة ١٩٢٢ فقد ترك بلاده وقام بعدة رحلات فى بلاد الشرق الآسيوية والأفريقية متفقدًا أصولها كاتبًا عنها لأمهات الصحف الأوروبية، حتى صار من أوسع الكتاب الأوروبيين اطلاعا وأنفذهم بصيرة وأكثرهم تحررًا وأشدهم تعطشًا للاستزادة من المعرفة عن طريق الرحلات.

ولقد أدهشه فى رحلاته أن يرى ما كان عليه المسلمون الأوائل من عزة وحضارة وما صار إليه أحفادهم الآن برغم أنه لا يجد فى الإسلام ما ينفر من العلم أو يخمد الهمم أو يطفىء جذوة الأمل والكفاح فى نفوس أتباعه.. بل إن الإسلام يدعو إلى التحرر والأخذ بأسباب التقدم والفلاح وعدم التواكل والاستسلام والخضوع.. ولم يلبث ليوبولدفايس أن أدرك السبب الحقيقى وراء انحلال المسلمين وتخلفهم.. إن السبب الحقيقى هو جهل المسلمين بأحكام دينهم وعدم تمكنهم منها أو تمسكهم بها.. وذلك عكس ما يشيع خصُوم الإسلام من أن تمسك المسلمين بدينهم هو الذى أدى إلى تخلفهم.. لذلك نجد ليوبولدفايس يقول: (كنت كلما زدت فهمًا لتعاليم الإسلام من ناحيتها الذاتية وعظيم ناحيتها العلمية ازددت رغبة فى التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها تطبيقا تاما على الحياة

الحقيقية . . لقد ناقشت هذه المشكلة مع كثير من المسلمين فى جميع البلاد ما بين طرابلس الغرب إلى هضبة البامير فى الهند، ومن البوسفور إلى بحر العرب، فأصبح ذلك شجىً فى نفسى طفا فى النهاية على سائر أوجه اهتماماتى الثقافية بالعالم الإسلامى ، ثم زادت رغبتى فى ذلك شدة، حتى أنى وأنا غير المسلم أصبحت أتكلم إلى المسلمين مشفقًا على الإسلام، من إهمال المسلمين وتراخيهم) . . .

ثم إنه حدث أن ناقش فايس أحد رجال الإدارة الشبان فى أفغانستان فى ذلك الأمر، فلما لمس فيه ذلك الشاب غيرته على الإسلام وإلمامه بتعاليمه وإيمانه بكمالها وعظمتها وقدرتها على إسعاد البشرية وعلاج مشكلاتها، قال له : (إنك ما دمت ترى هذا الرأى فإنك فى الحقيقة مسلم وأنت لا تدرى) ولقد أثرت هذه الكلمات فى نفس ليوبولدفايس. . فأطرق صامتًا يتدبر معانى الكلمات التى سمعها. . وأيقن بصدقها. . حقًّا لقد أسلم بقلبه وإنه ليحس ذلك. . ولم يبق إلا أن يعبر تعبيرًا علميًّا عن حقيقة ما آمن به.

لذلك لم يكد يعود إلى أوروبا سنة ١٩٣٨ حتى أشهر إسلامه. . وقد تحدث فى صدق عن أسباب اعتناقه الإسلام فى كتابه (الإسلام فى مفترق الطرق)[1] فقال : (. . . لم يكن الذى جذبنى تعليمًا خاصًّا من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع العجيب والمتراص بما لا أستطيع له تفسيرًا من تلك التعاليم الأخلاقية بالإضافة إلى منهاج الحياة الأخلاقية. . إن الإسلام على ما يبدو لى بناء تام الصنعة وكل أجزائه قد صيغت ليتم بعضها بعضًا ويشد بعضها بعضًا، فليس هناك شىء لا حاجة إليه، وليس هناك نقص

(١) ترجم الدكتور عمر فروخ هذا الكتاب إلى اللغة العربية سنة ١٩٤٨ . . ولفايس كتاب آخر هو (الطريق إلى مكة).

فى شىء، فنتج من ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص... ولعل هذا هو الذى كان له أبلغ الأثر فى نفسى).

وقد تحدث فايس عن دراساته فى الإسلام وتاريخه، وما كتبه المنصفون والمغرضون فقال: (... سعيت إلى أن أتعلم من الإسلام كل ما أقدر عليه، فدرست القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، ودرست لغة الإسلام وتاريخ الإسلام وكثيرًا مما كتب عنه أو كتب فى الرد عليه، وقد قضيت أكثر من خمس سنوات فى الحجاز ونجد، وأكثر من ذلك فى المدينة ليطمئن قلبى بشىء من البيئة الأصلية للدين الذى قام النبى العربى ﷺ بالدعوة إليه فيها، وبما أن الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الأقطار، فقد تمكنت من المقارنة بين أكثر وجهات النظر الدينية والاجتماعية التى تسود العالم الإسلامى فى أيامنا، وهذه الدراسات والمقارنات خلقت فىّ العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات التى خلقها تأخر المسلمين محتفظًا بحيويته).

وقد بلغ من تبحر ليوبولدفايس فى العلوم الإسلامية أنه اختير عند إنشاء دولة باكستان ليشغل وظيفة (مدير دائرة تجديد الدين فى إقليم البنجاب الغربى) ثم صار فيها بعد مندوبًا لباكستان فى الأمم المتحدة..

٩ - لماذا أسلم
النبيل النمسوى كارل فرودشتاين
وسمى نفسه (يحيى) أو (يحيى بك)؟؟

كان كارل فرودشتاين واحدًا من نبلاء الإمبراطورية النمسوية، وقد ورث الضياع الواسعة والثروات الطائلة والسلطات التى لا حد لها.. وقد ورث من الإمبراطور لقب (سيد ومزارع) وهو لقب يسمح لمن يحمله بمقابلة الإمبراطور متى شاء - ولأن كارل فرودشتاين كان فارسًا مقاتلاً يحمل على صدره النياشين والأوسمة فقد منح نيشان (القديس جريجوريس).. منحه له بابا روما لخدماته الجليلة التى أداها للكنيسة الكاثوليكية فى شبابه - خاصة أنه كان يتوسط لتسوية الخلافات بين الكرادلة النمساويين والفاتيكان..

ويروى فرودشتاين قصة إسلامه فيقول:

(.. أتذكر ذلك جيدًا.. كانت إحدى ليالى الشتاء العاصفة.. والأمطار الغزيرة تنهمر كالسيل الجارف.. وكنت ليلتها أزمع القيام برحلة.. لكنى إزاء العواصف والأمطار لزمت القصر[1] وعدلت عن النزهة - ودفعنى شعورى بالوحدة إلى البحث فى مكتبتى الضخمة عن كتاب مفيد.. فوقعت يدى على نسخة مترجمة إلى اللغة الألمانية من القرآن الكريم، فتناولتها واستلقيت على المقعد الكبير، وشرعت أتصفحها وأقرأ

(١) كان كارل فرودشتاين يمتلك قصرًا ضخمًا يضم ٨٨ قاعة كبيرة يتوسط مزارعه التى ورثها عن آبائه والتى كان يديرها بجدارة تعد مضرب الأمثال.

بعض سورها بإمعان. . وقد أحسست بنشوة فائقة ومتعة روحية لاتوصف، وفجأة خطر لى خاطر لم يلبث أن ملك على نفسى. . فارتديت معطفى على عجل وحملت المظلة وغادرت القصر غير مبالٍ بالأمطار الغزيزة ولا الرياح الهادرة، وبعد جولة فى الدور التى تخصصت فى بيع الكتب القديمة عدت بنسختين أخريين من الترجمة الألمانية للقرآن الكريم وعدة كراسات، وبدأت أنقل إلى تلك الكراسات كل مجموعة من الآيات تتناول موضوعًا معينًا. . وقد استغرق ذلك العمل منى كل أوقات فراغى شهرين كاملين لم أشعر خلالها لفرط استمتاعى بهذا العمل بأى عناء، وما كدت أفرغ من ذلك حتى بدأت أتابع فى شغف غامر عرض القرآن الكريم لكل الموضوعات التى تناولها. . ولقد بهرتنى عظمة القرآن وأخذت بمجامع فؤادى ولبى. . لكننى تملكنى خوف على عقيدتى التى ورثتها عن آبائى، . . والتى كنت شديد التمسك بها فكبحت جماح نفسى وآثرت أن أرجع النظر فى تلك الكرامات التى أجهدت نفسى فى إعدادها. . وعندما التحقت بجامعة (فينا) لمواصلة دراساتى العالية أتيح لى أن أختلط ببعض الطلاب القادمين من إقليم (البوسنة) الذى كان يتبع النمسا فى ذلك الوقت، فرحت أراقبهم عن كثب، فأعجبت بصفاتهم الحميدة، . . وأحسست بانجذابى نحوهم ورغبتى الصادقة فى توطيد صلاتى بهم حتى غلب على الشعور بأننى واحد منهم - ولما كان الإسلام من الديانات غير المعترف بها فى النمسا وقتذاك فقد كان الطلاب المسلمون يعانون شعورًا بالتشتت لعدم وجود رابطة تضمهم فلجئوا إلى أمام جنود البوسنويين المسلمين فى (فينا) وعهدوا إليه بتكوين جاليتهم ورئاستها، إلا أنه لم يلبث أن أعتذر لانشغاله بأعباء وظيفته.

ولما كانوا يعلمون حُبّى لهم فقد طلبوا مساعدتى على إيجاد رابطة

تضمهم، فقبلت اقتراحهم وتعهدت بالدفاع عن مصالحهم، وأنشأت الرابطة فعلاً، واختارونى رئيسًا شرفيًا لها على الرغم من أننى كنت حتى ذلك الوقت مسيحيًا، بل وثيق الصلة بالأوساط الدينية. . لذلك ما إن ذاع هذا الخبر حتى استدعانى وزير المعارف. . وسألنى عن حقيقة ما علم به، فأجبته بأنه من العار أن يكون بين أبناء النمسا رعايا مسلمون ولا تعترف الدولة بدينهم رسميًا.

فقال لى الوزير: (إن من أسباب تعذر الاعتراف بالإسلام رسميًا أنه يبيح تعدد الزوجات) لذلك فقد أفهمته (أن الإسلام لا يحتم هذا التعدد كفرض واجب على كلّ مسلم، لكنه يترك الحرية لأتباعه فى اختيار أكثر من زوجة بشروط وقيود معينة، وما دام القانون النمسوى لا يسمح بالتزوج بأكثر من واحدة فالنمسويون لا يسعهم إلاّ احترام هذا القانون فى البلاد التى يعيشون بها، وخاصة أن ذلك الاحترام لن ينقض شيئا من مبادىء دينهم): فقال له الوزير: (إذا كان الأمر كذلك فإننى أرجوك أن تعد مشروع قانون بالاعتراف بالدين الإسلامى رسميًا كى أتقدم به إلى البرلمان. .) فأعددت له المشروع وحملته إليه حيث نقّحه قليلاً، وعرض القانون على البرلمان الذى أجازه كما هو).

وبذلك صار الدين الإسلامى من الأديان المعترف بها رسميًا فى النمسا منذ ذلك الحين فى سنة ١٩٠٨م، وعلى أثر ذلك تكونت الرابطة الإسلامية للطلاب النمسويين. . فتنحى فرودشتاين غن رياستها لمن هو أهل لها من المسلمين.

وما أن أتم فرودشتاين دراسته العالمية حتى قام برحلة طويلة إلى بلاد أفريقية الشمالية حيث درس الإسلام وأحوال المسلمين عن قرب ثم عاد إلى النمسا فالتحق بالكلية الحربية وتخرج منها ضابطًا بسلاح المدفعية.

وبعد سنوات قلائل تعرف بالدوق (دى برجاس) الذى كان يطالب بعرش البرتغال، قد دعاه إلى مرافقته إلى أسبانيا ليعاونه فى الوصول إلى الحكم بما له من دراية بالفنون الحربية، ولكنه لم يوفق فى تحقيق ذلك الغرض فعاد إلى النمسا بعد أن استفاد بكثير من التجارب التى أكسبته خبرة كبرى بالحياة والعلاقات بين الشعوب والدول، فبدأ يطالع المؤلفات التى يضمها فى مكتبته إلا أنه لم يجد بها برغم ضخامتها ما يروى غليله . . بل لم يجد ضالته، كذلك فى مكتبه جامعة (فينا) فأزمع السفر إلى ألمانيا حيث بدأ يدرس أصول الأديان على أسس علمية ويقارن بينها، ثم عاد إلى النمسا ومعه من المراجع ما ساعده على استئناف دراسته الجادة الواعية التى نقلته إلى آفاق جديدة، وما أن قطع مرحلة كافية فى ذلك المضمار حتى وجد نفسه يؤمن فى النهاية إيمانًا راسخًا بأن الإسلام هو الدين الحق وأنه كان صادقًا فى مشاعره نحو الدين منذ أن اهتدت بصيرته إلى أول قبس من نوره العظيم.

وبينما هو يستعد لإشهار إسلامه على الملأ اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى فاضطر أن يصحب فرقته إلى ميادين القتال. حيث أبلى أحسن البلاء وجرح أربع مرات وأنعم عليه بأكثر من عشر من الميداليات والنياشين، ثم أرسل إلى تركيا التى كانت تحالف النمسا لتدريب بعض فرق سلاح المدفعية بها وهنالك توثقت صلته بكثير من الضباط المسلمين، وأعجب القادة الأتراك بكفاءته وإخلاصه فمنح رتبة البكوية وظل مقيمًا فى تركيا، حتى انتهت الحرب وكلف بالتوجه إلى روسيا لمفاوضة حكومتها فى شأن الأسرى النمسويين، إلا أن بعض المسئولين هناك اشتبهوا فى أمره، فلما أحس الخطر غادر البلاد بعد أن تعرض لأهوال عديدة كفاهُ الله شرّها وحفظهُ بعين رعايته.

وحين وصل إلى ميناء (ريجا) أعلن إسلامه على الفور، وتزوج بعد ذلك من فتاة شركسية مسلمة كانت وفية مخلصة وأنجب منها ذرية مسلمة طيبة.

وتوجه بعد ذلك إلى بلاده حيث باع قصره وأملاكه لعزمه على الهجرة منها ليعيش فى بلد إسلامى لكنه استلم ثمن بيع أملاكه بعملة (الكرورون) الورقية التى أصبحت بعد ذلك لا قيمة لها.

وقد اختار بلاد الأفغان لإقامته.. وقد أهلته ثقافته العالية وتجاربه العديدة وإلمامه بلغات شتى هى الألمانية والفرنسية والتركية والروسية والهندية والعربية على احتراف الصحافة. فراسل مجموعة من الصحف النمسوية والبولندية والهولندية وغيرها، وطاف فى كثير من الدول الشرقية.

وقد أنهى النبيل النمسوى المسلم حديثة الذى حكاه والذى كان قد دار بينه وبين صحفى مصرى حين زار مصر سنة ١٩٢٨ - بابتسامة راضية مطمئنة وهو يشير إلى ماضيه فى بلاد آبائه وحاضره فى بلاد الإسلام وهو يقول: لقد خسرت كل شىء إلاّ حرية فكرى.

***

١٠ - لماذا أسـلم
الأب عبد الأحـد دُؤاد
الأشـورى العراقى؟

كان الأب عبد الأحد دؤاد ينتسب إلى ملة الكلدان الكاثوليك، وكان يقوم بعمله الدينى فى ولاية ديار بكر مطرانًا لها من قِبَل بابا روما، وكان إلى جانب تبحره فى العلوم اللاهوتية النصرانية على دراية باللغات القديمة التى حررت بها الكتب والصحف المقدسة - فضلاً عن اطّلاعه على العلوم الإسلامية خصوصًا القرآن الكريم وتفاسيره وبعض كتب الحديث - وسيرة النبى محمد ﷺ - وانتهى به الأمر إلى الإسلام.

وقد توصل الأب عبد الأحد دؤاد إلى نور الإسلام بعد أن استبان له من أبحاثه كما يرويها هو نفسه فيقول:

١ - لقد كانت نتيجة تحقيقاتى أننى اقتنعت وأيقنت أن قضية قتل المسيح عليه السلام وصلبه ثم قيامه من بين الأموات قصة خيالية.

٢ - إن الأناجيل الأربعة مع كونها ليست تأليف المسيح ذاته - لم توجد فى زمانه بل وجدت بعد وفاة الحواريين بزمن طويل، وأنها وصلت إلينا بحالة محرفة - وقد لعبت فيها الأقلام.

٣ - إن نسخ الأناجيل الأربعة الموجودة ضمن العهد الجديد باللسان اليونانى تحمل اسم (إنجيل) بصورة العنوان فقط - أما نسختها المكتوبة باللسان السريانى وهى المعتبرة جدا لدى كلّ عالم النصرانية المسماة

(بشيطتا) أى البسيطة فقد وضع عليها اسم (كاروزونا) أى (موعظة) محل كلمة (إنجيل) بمعنى أنها مواعظ أربعة - وليست هى الإنجيل الخاص بالسيد المسيح - فأين هذا الإنجيل؟ وماذا صار إليه أمره؟

٤ - إن الكنسية العامة بقيت ٣٢٥ عامًا بغير كتاب حتى انعقد مجمع نيقية وقرر بمعرفة ٣١٨ أسقفًا ممن يقولون بألوهية المسيح انتخاب المواعظ الأربعة السابقة - وكذلك الرسائل الثلاثة والعشرون وذلك من كتب كثيرة كان يربو عددها على أربعين أو خمسين ومن رسائل لا تعد ولا تحصى.

٥ - لا يجد الباحث فى هذه الرسائل شيئًا عن ولادة المسيح ولا عن طفولته وشبابه ولا عن أفعاله ومعجزاته ولا عن مواعظه ولا عن الوقائع أو الأحوال التى كانت فى حياته وأثناء صلبه المزعوم ولا ذكر فيها لاسم مريم والدة المسيح.

٦ - هناك بيانات غريبة ينفرد بها بعض تلك الرسائل فمنها مثلا قول بطرس (إن المسيح قضى عقب موته ثلاثة أيام فى جهنم بين الأرواح المحبوسة فى السجن).

٧ - عندما انعقد مجمع نيقية كان (أريوس) رئيس الموحدين فى المؤتمر ودلل بالبراهين على أن المسيح عليه السلام مخلوق - وقد أيده فى هذه الحقيقة الثلثان من أعضاء المؤتمر - وكان المأمول أن تتدخل السلطة الحاكمة لأخذ الرأى - إلا أنه حدث العكس فقد تبطن الإمبراطور الرومانى قسطنطين رأى صديقه وابن وطنه بابا وكاهن روما، والذى يعتنق فكرة ألوهية المسيح فأمر بإخراج أعضاء المجمع أنصار التوحيد، بل وأمر بقتل أريوس - واختار ٣١٨ أسقفا ممن يميلون إلى عقيدة التثليث وألوهية المسيح، وأجبرهم على التوقيع على عقيدة نيقية بالتثليث وألوهية المسيح

والتصديق على المواعظ الأربعة والرسائل الثلاث والعشرين السابق الإشارة إليها.

٨ - إن المسيح عليه السلام كان يهوديا، ولم يعظ الأمم غير اليهودية كما نهى تلاميذه الذين أرسلهم ليبشروا عن المضى إلى مدن غير المدن اليهودية بل نهاهم عن المضى حتى إلى أمّة السامريين الممتزج دمهم بدم اليهود، والذين يؤمنون بأسفار توراة موسى عليه السلام فقط، فكيف يسوغ لعاقل أن يعتقد فى سلامة العبارات الواردة بنهاية إنجيل متى والتى تعنى عكس ذلك مثل قوله (تلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس) بل إن المسيح كما ورد عنه فى المواعظ السابقة الأربعة دعا اليهود أبناء أما باقى الشعوب فقد دعاها كلابًا - وهذا وارد صراحة فى إنجيل متى الإصحاح ١٥ عدد ٢١ إلى عدد ٢٨.

٩ - كيف ساغ للكنيسة أن تبطل شريعة موسى فيما يتعلق بالختان لأنه حسب تلك الشريعة من لم يختتن يعد نجسًا - والمسيح نفسه ختن فى اليوم الثامن من ولادته.

ثم كيف ساغ للكنيسة أن تبطل الوصية الواردة فى شريعة موسى باحترام يوم السبت - كما هو وارد فى سفر الخروج إصحاح ٢٠ عدد ٨ (اذكر يوم السبت) لكن الكنيسة استعاضت عنه بيوم الأحد وأبطلت يوم السبت رغم أن المسيح عليه السلام فى كل تلك يقول بكلام قطعى كما هو وارد فى إنجيل متى إصحاح ٥ من عدد ١٧ إلى ١٨ : (لا تظنوا أنى جئت لأنقض الشريعة أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد، ونقطة واحدة من الناموس حتى يكمل الكل).

١٠ - استنبط أن ميلاد المسيح كان بشارة بميلاد محمد ﷺ وأورد فى

إنجيل لوقا ما يدل على ذلك إذ جاء فى إنجيل لوقا أنه عند مولد المسيح ظهر جمهور من الجنود السماوية للرعاة السوريين وأخذ هؤلاء الأملاك يدعون بالنشيد التالى : (الحمد لله فى الأعالى - وعلى الأرض السلام - وبالناس المسرة) وهذا هو النص الموجود فى الترجمة العربية : أما النص الذى فى الترجمة التى قامت بها جمعية الإنجيل فهو كالآتى : (الحمد لله فى الأعالى على الأرض سلامه - وفى الناس حسن الرضا).

ويقول الأب عبد الأحد دؤاد : إن هؤلاء الأملاك لم يتكلموا باللغة العربية بل تكلموا باللغة السريانية وهى لغة هؤلاء الرعاة مما يقتضى بيان كلمات هذه الأنشودة باللغة السريانية وترجمتها الحقيقية باللغة العربية وبخاصة الكلمتان السلام أو سلامة (المسرة أو حسن الرضا - لأن ترجمتها إلى السلام أو سلامة والمسرة أو حسن الرضا ترجمة خاطئة ويتساءل ما معنى على الأرض السلام أو سلامة وأى سلام شهدته الأرض منذ خلقها الله، وقد دنسها أحد ابنى آدم حين قتل أخاه فى مطلع البشرية وأصبح طبيعيا للنوع البشرى أن يعيش عيشة تكاد تكون مستمرة بين الفجائع الوضيعة والاختلافات والحروب التى جلبت عليها الطبيعة البشرية، كذلك الحال بالنسبة للمسرة أو حسن الرضا، فأين المسرة التى رآها الناس وما قيمتها إذا قيست بالدموع والعرق والكفاح والآلام التى يعانيها الجنس البشرى وأين حسن الرضا الذى أظهروه، والأطماع التى لا تحد والكفاح لا ينتهى، وقد رأى تولستوى المفكر الروسى الشهير أنها من الآيات المحرفة.

وبعد هذا يورد الأب عبد الأحد دؤاد الكلمتين الأصليتين باللغة السريانية وهما (إيردينى - وأيودوكيا) وأوضح ببحث لغوى طويل أن إيرينى معناها الإسلام وايودوكيا معناها أفعل تفضيل من الحمد أى أكثر الحمد أو

أحمد والمعنى العام كما يراه هو فى اللغة العربية : (الحمد لله فى الأعالى - وأوشك أن يجىء الإسلام للأرض - يقدمه للناس أحمد) ويؤكد مرة أخرى أنه لو كان المقصود بمعنى peace (السلام) . . الأمن وعدم الحرب . . لاستعملت كلمة (شلم) السريانية أو (شالوم) العبرانية[1].

---

(١) كتاب الإنجيل والصليب - تأليف الأب عبد الأحد دؤاد الأشورى العراقى - والمحفوظ فى دار الكتب - عن كتاب الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين للمستشار محمد عزت - الطهطاوى - مكتبة دار التراث القاهرة.

خاتمـــة

قال الله تعالى فى سورة آل عمران :

﴿إن الدين عند الله الإسلام ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ .

عزيزى القارىء :

هذا نذير . . وفى كتابنا الذى بين يديك بلاغ . . فإذا كنت ممّن أنعم الله عليهم وعلى آبائهم من قبلهم بهذا الدين القويم فهلمّ إلى تجديد دينك وتحسين إسلامك . . وإن كنت ممن ساروا وراء عقائد آبائهم من غير المسلمين فسارع إلى دين الله المتين . . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

نسأل الله لنا ولك حسن المثوبة وأن يهدينا سواء السبيل.

مراجع الكتاب

١ - القرآن الكريم.

٢ - صحيح البخارى/ القاهرة ١٣٤٥.

٣ - صحيح مسلم بشرح النووى - المكتبة المصرية - القاهرة.

٤ - موطأ مالك - القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٥ - سنن النسائى : أحمد بن شعيب - القاهرة.

٦ - طبقات ابن سعد.

٧ - سيرة ابن هشام.

٨ - الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام : القرطبى.

٩ - دلائل النبوة : تحقيق السيد أحمد صقر - للبيهقى.

١٠ - إظهار الحق : الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندى - المطبعة الخيرية - ١٣٠٩ هـ.

١١ - هذا هو الحق : محمد محمد عبد اللطيف. ابن الخطيب - القاهرة - المطبعة المصرية ومكتبتها.

١٢ - مقامع الصلبان : أحمد بن عبد الصمد الخزرجى. تحقيق عبد المجيد الشرقى. تونس الشركة التونسية لفنون الرسم.

١٣ - مجلة المنار : المجلد الثامن - عدد ١٦ شوال ١٣٢٣ هـ - ١٣ ديسمبر ١٩٠٥ م.

١٤ - الكتاب المقدس : المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٦٦.

١٥ - الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين - المستشار محمد عزت الطهطاوى.

١٦ - محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن - إبراهيم خليل أحمد.
١٧ - أشعة خاصة بنور الإسلام - الفونس إيتين دينيه.

مصادر البيانات الشخصية :

د. عيسى عبده : أكبر أبناء الطبيب عبده إبراهيم.

الأستاذ سليم إبراهيم عبد الملاك : شقيق الطبيب عبده إبراهيم.

د. محمد توفيق صدقى : زميل الدراسة بالمدارس الابتدائية والثانوية وكلية الطب للطبيب عبده إبراهيم.

الأستاذ أحمد نجيب برادة : زميل الدراسة بالمدارس الابتدائية والثانوية وصديق له دوره الهام.

تنبيه : بعض النصوص الواردة بالمباهلة : عن كتاب مقامع الصلبان. مع بعض التصرف.

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٥٧٥٩
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3760 – 4	ISBN

١ / ٩١ / ٤٣٨
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

